

## الباب الأول

### فى حقوق الزوجة على الزوج

المقدمة :

\* أولاً : نبذة تاريخية

لا حاجة بنا إلى بيان مركز المرأة فى التشريعات المختلفة والعصور المتعاقبة، بعدما أفضنا فى الحديث عن ذلك فى الجزء الثانى الخاص بالحجاب، وأجب هنا أن أقدم لمحة خاطفة على آثار الزوجية فى التشريعات الأوروبية والكنسية، ليتمكن ببعض المقارنة أن تظهر سياسة الإسلام الرشيدة فى هذا المجال .

فى العهد القديم لأوروبا كان الزواج يكسب الولاية والسلطة على الزوجة، سواء من حيث النفس أو المال، كسلطة الأب على أولاده، حيث كانت له حقوق دون أن تكون عليه واجبات . ولكن الكنيسة خففت من وطأة هذا المبدأ، استناداً لقول القديس بولس بالاعتراف للزوجة بالواجبات التى للزوج .

ومن أهم آثار الزواج قديماً، بل وحديثاً، تعفف المرأة وصيانة عرضها الذى لو خدشته لكان لزوجها حق مطاردتها فى الشوارع حتى تموت إن لم تفلت منه، وهذا المبدأ مأخوذ من روح التشريع الجرمانى البربرى . وأما التشريع الكنسى فكان يقضى عليها بالرجم، ثم تطور الحكم إلى عقوبات بسيطة على كلا الزانيين، مع حرمانهما .

ولما حلت محاكم الدولة محل الكنيسة فى النظر فى هذه الجريمة عوقبت

المرأة بحبسها في دير، ثم تطور التشريع أخيراً إلى عدم العقوبة للزاني، وتخريم المرأة مبلغ خمسة وعشرين فرنكاً، وهو مبلغ يشجع على معاودة اقرار الجريمة. وقانون العقوبات المصري يعاقب عليها بالحبس أو الغرامة.

ومن آثار الزوجية في التشريع الوضعي أن تحمل الزوجة اسم زوجها، كما يقضى بذلك قانون فرنسا في المادة « ٢٩٩ مدني » وأن يلتزم الطرفان بالأمانة والمساعدة، فلا يجوز أن يقع منهما الزنى، وعلى كل منهما أن يساعد الآخر عند الحاجة، بمقتضى مادة: ٢١٢، ومنها أن كلاهما يشترك في تكاليف شعون المنزل بقدر طاقته بمقتضى مادة: ٢١٤. ومن أهم آثار الزوجية عندهم عدم أهلية المرأة المتزوجة لإجراء التصرفات القانونية، فهي كالقاصر، تقع تحت وصاية الزوج، وهو صورة للوصاية المستمرة على المرأة، التي كانت شائعة لدى الإغريق والرومان والجرمان، ثم اندثر هذا المبدأ في أوائل عصر الإمبراطورية الرومانية. ومع ذلك بقيت المرأة عديمة الأهلية في بعض الأحوال الخاصة، كالتزامها لأجل شخص آخر. وهذا المبدأ معروف في شمالي فرنسا دون جنوبيها، ولكن قضى عليه أو على أكثره سنة ١٩٤٤م. انظر المادة: ٢١٧ من القانون الفرنسي في هذا الشأن المذكورة في كتابنا « الحجاب بين التشريع والاجتماع » ص ٣٩٠<sup>(١)</sup>. ثم انظر هذه المادة المنصوصة في القانون الإسلامي ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٨] لتري مقدار احترام الإسلام لشخصية المرأة والاعتراف بوجودها وبدورها الهام في الحياة البشرية.

وجاء في مجلة الأمل بقلم منيرة ثابت<sup>(٢)</sup> أن الزواج في فرنسا يتم إما بعقدين منفصلين أو بعقد مزدوج، أحدهما للجسد والآخر للمال. فإن كان بعقد واحد فإن أموال الزوجين تصبح بمجرد العقد وتسجيله كتلة واحدة يديرها الزوج كما لو كان مالكة وحده، وأموال هذه الكتلة تضمن جميع التصرفات. ويحدث هذا تلقائياً ما لم يختار الزوجان نظاماً مالياً خاصاً من الأنظمة الأخرى.

(١) صالح بكير - مجلة الأزهر، مجلد ١٩، ص ٢٤٠. (٢) مارس وأبريل ١٩٥٨.

ومنها مثلاً «الدوطة» الذى تكتفى فيه الزوجة بتقديم جزء معين مقوم نقداً أو عيناً من مالها، وتحتفظ لنفسها بالباقي، ومنها النظام المعروف بالانفصال المالى التام، وفى مثل هذه الحالة يوقع الزوجان عقداً مستقلاً للمال، ويتم شهره مع عقد الزواج.

وعند الطلاق يأخذ عقد الزواج تأشيرة بذلك، وهذا الطلاق لا يسقط حق الزوجية فقط، بل يسقط معها النظام المالى أياً كان نوعه. وقد يحدث تحايل عند إغراق الزوج فى الديون، فيتفق مع زوجته على الطلاق ليسقط الشركة المالية بينهما، ويهرب أموال الزوجة من الدائنين.

وقد حرم المشرع الفرنسى ذلك التحايل. وتحايل الزوجان على ذلك التحريم بتمثيل خيانة زوجية يثبت الزوج خيانتة صورياً مع أخرى، وتطلب الزوجة بذلك المستند الطلاق. وتنبه القانون لذلك فأباح رجوعهما للزواج من جديد، مع بقاء النظام المالى السابق دون فرار منه.

### \* ثانياً: القواعد الأساسية للحقوق الزوجية:

(أ) الزوج، كما عبر بعض الكتاب، أشبه بربان سفينة، يمزج بها عباب الحياة الزوجية بأموج مشكلاتها وأغوار مفاجآتها، ولو قدر لهذه السفينة أن تسير فى مياه ساكنة وأمواج هادئة كسب الربان من هذه الفرصة كثيراً، وتقدمت سفينته إلى الأمام فى أمان يجعله يقطع من المسافات فى طريق السعادة الزوجية ما لا يستطيعه لوهاج البحر وتلاطمت أمواجه وثار غضبه، تلك الحالة التى تقلق بال الربان وتشوش عليه فكره وتتطلب منه حزمًا ويقظة، ليحتفظ بتوازن السفينة، وينجو من خطر محقق على الأقل، فوق ما ضاع منه من تقدم إلى الأمام.

والبيت من جهة أخرى أشبه بإدارة حكومية تتمثل فيها جميع المصالح، وتزخر بشتى الأنشطة، وهى تتطلب مديراً حازماً يقظاً لبقاً، صقلته الحياة بأحداثها، وحنكته بتجاربها، ولا يستطيع أن يضطلع بهذه المهمة على خير وجه إلا رجل وفقه الله فسار على الجادة واتبع النهج السليم.

ولهذا جعله الإسلام فى موضع التقدير والإجلال، بل جعل سياسته فى المنزل مقياساً لكفايته وصلاحيته للقيادة والتوجيه فى الحياة العامة، استمع إلى قول النبى ﷺ «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم»<sup>(١)</sup>، وقوله «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله»<sup>(٢)</sup>، وفى رواية «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم»<sup>(٣)</sup>، وقوله «ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لثيم»<sup>(٤)</sup>.

ولقد كان النبى ﷺ المثل الأعلى والقذوة الحسنة فى هذه الناحية، كغيرها من النواحي، وقد أحست بذلك زوجاته وعلم به غيرهن، فتقدمن إليه واهبات أنفسهن، ليستظللن بظلال أخلاقه الوارفة، وينعمن فى كنفه بهذا الجو الجميل. وذلك على الرغم مما اختاره لنفسه من رقة العيش والزهد فى الحياة. ولكن السعادة الزوجية شىء آخر وراء الثروة والمادة، إنها الجو الذى يمتزج فيه الحزم بالرقة، والشدة باللين، واليقظة بالثقة، والرياسة بالكياسة، والنشاط الجاد بالأمن المتوافر.

خطب خالد بن صفوان امرأة فقال: أنا خالد بن صفوان، والحسب على ما قد علمتية، وكثرة المال على ما قد بلغك، وفى خصال سألينها لك فتقدمين على أو تدعين. قالت: وماهى؟ قال: إن الحرة إذا دنت منى أملتني، وإذا تباعدت عنى أعلتني، ولا سبيل إلى درهمى ودينارى، ويأتى على ساعة من الملل لو أن رأسى فى يدي نبذته، فقالت: قد فهمنا مقالتك، ووعينا ما ذكرت، وفيك بحمد الله خصال لانرضاه لبنات إبليس، فانصرف رحمك الله<sup>(٥)</sup>.

إن السعادة الزوجية تكون فى الجو الذى ودت معه أم حبيبة زوج الرسول

(١) رواه الترمذى عن عائشة وصححه.

(٢) رواه الترمذى والنسائى والحاكم وقال: رواه ثقات علي شرط الشيخين.

(٣) رواه الترمذى وابن حبان عن أبى هريرة وهو صحيح.

(٤) رواه ابن عساکر من حديث على كرم الله وجهه - الوحي المحمدي لرشيد رضا، ص ٢٨٠.

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة، ج ٤، ص ١٤.

عليه الصلاة والسلام أن تشرك فيه أختها «عزة» لولا أن الشرع يمنع الجمع بين الأختين، فقد صح أن أم حبيبة قالت: قلت يا رسول الله انكح أختي - عزة بنت أبي سفيان - فقال «أوتحبين ذلك؟» فقلت: نعم لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي. فقال ﷺ «إن ذلك لا يحل لي» قلت: فإننا نحدث أنك تريد أن تنكح «درة» بنت أبي سلمة، قال «بنت أم سلمة؟» قلت: نعم، فقال «لو أنها لم تكن ربيبتى في حجرى ما حلّت لي، إنها لابنة أختي من الرضاة، أرضعتنى وأبا سلمة «ثوية» فلا تعرضن على بناتكن ولا اخواتكن»<sup>(١)</sup> ومعنى «مخلية» خالية من ضرة، وإذا كان ذلك فأولى من يشاركني فيك أختي. وأخبار الواهبات أنفسهن له مذكورة في كتب السنة والسيره.

(ب) يقول الخبراء: قلب المرأة قيثاره لا تبوح بأسرارها إلا لمن يعرف كيف يحرك أوتارها. معنى هذا أن القيادة الحكيمة للمنزل تتطلب دراية واسعة وعميقة لنفسية المرأة، وخبرة كبيرة بعواطفها وميولها. وفي الإسلام قرآنه وحديثه وآثار سلفه ما يعين على تفهم هذه النواحي، وقد ألقت كتب حديثة فيها دراسات وافية لهذا الموضوع، بل أنشئت في البلاد الأجنبية مدارس خاصة لهذه الدراسات كما هو مذکور في بحث الحجاب «ص ٣٦١». وقد أصدرت الكنيسة الكاثوليكية في «بوجوتا» مرسوماً يقضى بأن يلتقى الشبان والشابات الراغبون في الزواج ليأخذوا دروساً في أصول الحياة الزوجية من علم النفس وعلم الأمراض والأخلاق والدين والقانون ويحصلون في النهاية على شهادات بالنجاح، وعند الرسوب يتعين عليهم تأجيل الزواج لإعادة البرنامج من جديد<sup>(٢)</sup>.

والعرب في الجاهلية كانوا على دراية بهذه النواحي تلقوها في مدرسة الحياة العملية، وهي وإن جاءت انعكاساً لحياتهم المبسطة إلا أنها تعد نماذج حية

(١) رواه البخارى، ج٧، ص١٢، ١٤، ومسلم ج١٠، ص٢٥، ٢٦ - الزرقانى على المواهب، ج٣، ص٢٧١.  
(٢) الأهرام ١٥/٩/١٩٦٦.

لتجارب طويلة، ونتائج ممارسة فعلية زكّيت ودُعِي إليها في العصور الحديثة لاتصالها بخواص المرأة حتى كادت تكون من ذاتياتها. وفي الجزء الأول توجد صور تشهد بذلك، كخطبة هند بنت عتبة بن ربيعة لسهيل بن عمرو وأبي سفيان بن حرب بعد انفصالها من الفاكه بن المغيرة، وستأتى فى بيان حقوق الزوج على زوجته قصة زواج شريح بزینب بنت جریر.

بعد هاتين النقطتين إليك بعض القواعد الكلية التي تساعدك على حسن معاملتك لزوجتك:

١- المرأة فيها عنصران للخير والشر، وناحيتان للضعف والقوة أو اللين والشدة، ولكل من الناحيتين موقف يتطلب منك أن تفقه لتضع الدواء فى موضع الداء.

فأنت ترى من المظاهر التي تدعوك لرحمتها والعطف عليها أنها ضعيفة جسمياً وعقلياً وعاطفياً، خصوصاً فى هذا العش الجديد، وهو عش الزوجية وانقطاعه عن حنو الأب وشفقة الأم، كما يصوره قول نائلة بنت الفرافصة بن عمرو، عندما حملت وقد كرهت الغربة وحزنت لفراق أهلها، تخاطب أباها صباً الذى زوجها لعثمان بن عفان رضى الله عنه ( كما فى عيون الأخبار ج ٤ ، ص ٧٦ ).

ألست ترى يا ضب بالله أننى مصاحبة نحو المدينة أركبا

إذا قطعوا حزنا تحت ركابهم كما زعزعت ریح يراعاً مثقبا

لقد كان فى أبناء حصن بن ضمضم لك الويل، ما يغنى الخباء المطبنا

مع إحساسها فى هذا العش الجديد بأسار الزوجية بعد الانطلاق والحرية، وتحمل آلام الحمل وما يتبعه، والخدمة وما تتطلبه، والطاعة لرب البيت ومن يتصل به، وكفى أنها فراش تمهده لك فى خضوع وانكسار. روى أبو أمامة أن النبى ﷺ قال فى النساء « حاملات مرضعات رحيمات بأولادهن، وأنهن خلقن من ضعف وعورة »<sup>(١)</sup>.

(١) رواه أحمد وابن ماجه والطبرانى والحاكم.

والنساء بذلك كالقوارير التي لا تتحمل العنف والشدة، وقد جاء في وصفهن بذلك قول النبي ﷺ « رويداً أنجشة لا تكسر القوارير » يعنى ضعفة النساء . وذلك عندما كن معه فى سفر وأنجشة يحدو فتسرع الجمال ويخاف النساء الوقوع<sup>(١)</sup> .

إن هذه النواحي أو المظاهر الضعيفة فى المرأة تتطلب منك معاشرتها بالمعروف، من المجاملة والملاطفة والإيناس ورعاية الشعور وتحمل البوادر فى الحد الذى لا يخذش كرامة ولا يمس شرفاً . وهذا ما لمح إليه النبي ﷺ بقوله فى حجة الوداع « ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم »<sup>(٢)</sup> وقوله « استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن اعوج ما فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء »<sup>(٣)</sup> وفى رواية « إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها »<sup>(٤)</sup> وقوله « إن المرأة خلقت من ضلع، وإنك إن ترد إقامة الضلع تكسرها، فدارها تعش بها »<sup>(٥)</sup> وعن المقدم بن معد يكرب أن النبي ﷺ قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « إن الله يوصيكم بالنساء خيراً، ( ثلاث مرات ) إن الرجل من أهل الكنائس ليتزوج المرأة وما يعلم ما له بها من الخير، فما يرغب واحد منهما عن صاحبه حتى يموتا هرماً »<sup>(٦)</sup> وقوله « أمركن مما يهمنى بعدى، ولن يصبر عليكن إلا الصابرون »<sup>(٧)</sup> .

(١) رواه مسلم، ج ١٥، ٨٠ .

(٢) رواه الترمذى عن عمرو بن الأحوص، وقال: حسن صحيح .

(٣) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة . (٤) رواه مسلم .

(٥) رواه أحمد وابن حبان والحاكم عن سمرة وهو صحيح .

(٦) رواه الطبرانى ورجاله ثقات . وقد سكت البوصيرى عن أخذ يحيى عن المقدم « المطالب

العالية، ج ٢، ص ٥١ » وضعفه الألبانى .

(٧) رواه الحاكم عن عائشة وصححه وفى الترمذى وابن حبان زيادة: قاله لأزواجه ورواية

الترمذى وابن حبان حسنة .

وكذلك ما ورد فى النهى عن ضربهن، واصفاً لهن بأنهن إماء الله، وهو يشعر بالانكسار ووجوب العطف عليهن، وسيأتى ذلك فى موضعه، وقد تقدم فى الجزء الثانى « ص ٥ » كيف خلقت المرأة من ضلع.

ويعجبني فى هذا قول أحدهم: خلقت المرأة من أحد ضلوع الرجل ولم تخلق من قدميه حتى يحق له أن يدوسها، بل خلقت من جنبه لكى تكون مساوية له، ومن تحت إبطه لكى يدافع عنها، وقريباً من قلبه لكى يحبها<sup>(١)</sup>.

ومن مظاهر القوة والشدة فى المرأة الأنانية والاستعثار، ومحاولة التروؤس كرد فعل لعقدة نفسية تلازمها بسبب سلطان الرجل عليها. ومن مظاهره التدخل فيما لا يعنى، ونضالها ضد الرجل فى قضيتها المزعومة بعدما خسرت قضاياها مع الطبيعة إن كان لها فيها خيار، وغرورها بجمالها وفتنتها، وشططها فى الكماليات، وقلقها النفسى، وسرعة استجابتها للأفكار السوداء والمبادئ الهدامة، وحدتها فى غيرتها، وتفننها فى الحيل والمكائد التى وجدت الجو المناسب لإحكام شركها، واستغلالها عاطفة حب الرجل لها فى فرض إرادتها عليه، وغير ذلك من كل ما يوحى به شعورها بالنقص بالنسبة للرجل، وبناتج التغيرات البيولوجية التى تتعرض لها أحياناً كثيرة.

وهذه المظاهر تتطلب منك حزمًا ويقظة وحكمة. ولهذا أباح النبى ﷺ ضربهن بعد النهى عنه، لأن المعاملة اللينة أغرت الكثير منهن على التمرد، وسيأتى بيان ذلك فى موضعه.

وإذا كان هذا يقتضى منك الحزم واليقظة فلا ينبغى أن يكون على الوجه الذى عاملها به القدماء، من اعتبارها حيواناً نجساً خلق لخدمة الرجل، يجب أن يكتم فمها حتى لا تتكلم ولا تضحك كثيراً بحضرة الرجال، على ما رأيت فى بحث « الحجاب » من المعاملة القاسية التى كانت تلقاها فى البيئات البدائية والفلسفية على السواء، بل ينبغى أن تكون فى هذه المواقف مربيةً حكيماً ورقبياً

(١) الأهرام. ١٦/٦/١٩٥٤.

يقظاً، غيوراً على الحرمات، محافظاً على الشرف والكرامة، مصلحاً للأخطاء، ساداً لأبواب الفساد، عادلاً في الحكم، دقيقاً في التنفيذ .

وأعتقد أن هذه الظواهر مرض مزمن جبلت عليه، وهو ملازم لها منذ خلقت إلى أن تموت، فما بالذات لا يتخلف، وإن أثرت فيه الحضارة والتطور فإن ذلك بقدر يسير، أو باستبدال مظاهر جديدة مناسبة، وهي والأولى تلتقى في نقطة واحدة، ولا يجوز الاستهانة بهذا المرض حتى لا يفتك بالأسرة والمجتمع كله .

ولعل مما يشير إلى ذلك قول النبي ﷺ «لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر»<sup>(١)</sup> وخنز اللحم - بكسر النون وفتحها في الماضي والمضارع - خنزاً وخنوزاً، أى فسد وأنتن . قال العلماء : معناه أن بنى إسرائيل لما أنزل الله عليهم المن والسلوى نهوا عن ادخارها فادخروا ففسد وأنتن، واستمر من ذلك الوقت، وفي حواء يقول النووي : إنها أم بنات آدم فأشبهنها ونزع العرق لما جرى لها في قصة الشجرة مع إبليس فزين لها أكل الشجرة، فأغواها فأخبرت آدم بالشجرة فأكل منها<sup>(٢)</sup> .

جاء في تفسير ابن كثير « أول سورة الأعراف » عن ابن جرير الطبري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أكل آدم من الشجرة قيل له : لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال : حواء أمرتني ، قال : فأنى قد أعقبتها، لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلا كرهاً، قال : فرنت عند ذلك حواء، فقيل لها : الرنة عليك وعلى ولدك .

كان المعز لدين الله الفاطمي يخشى فتح مصر، وأخذ يتحسس أخبارها من بعد، فقيل له : إن قصور الإخشيد قد غرقت في الترف، وإن النساء هناك قد استهنن بالفضيلة، فقال : اليوم فتحت مصر . وقد مر في الجزء الأول « ص ١٨١ » عبارة : فتش عن المرأة، والمناسبة التي قيلت فيها .

وإلى هذا أشار القرآن الكريم بقوله ﴿ إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وهو حكاية لقول

(١) رواه البخارى، ج ١، ص ١٨٧، ومسلم ج ١٠، ص ٥٩ .

(٢) صحيح مسلم، ج ١٠، ص ٥٩ .

عزيز مصر لامرأته حين راودت يوسف عن نفسه، ولما امتنع استبقت وشكت إليه، متهمّة إياه بالسوء، وبعد التحقيق وشهادة الشاهد قال لها ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨]، وهو دليل على أصالة هذا المعنى فيهن، فهو موجود لديهن من قديم.

ويقف النبي ﷺ من إشارة عائشة بتقديم غير والدها أبي بكر الصديق للصلاة عند مرض النبي موقف الحازم الخبير بميول المرأة واتجاهاتها، فيقول « مروا أبا بكر فليصل بالناس، إنكن صواحبات يوسف »<sup>(١)</sup> والمراد أنهن مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن. ووجه المشابهة بينهما - كما قال القسطلاني -<sup>(٢)</sup> أن زليخا قد استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة. ومرادها الزيادة على ذلك، وهو أن ينظرن إلى حُسن يوسف، ويعذرنها في محبته، وأن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها لكونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك، وهو ألا يتشاءم الناس به. وقد صرحت هي بذلك، كما عند البخاري في باب وفاته عليه الصلاة والسلام، فقالت: لقد راجعته وما حملني علي كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً، وإلا كنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به. اهـ.

ولعل مما يضاف إلى ذلك أن النسوة لما عيّن زليخا لشغفها بيوسف، ثم رأينه ملنّ إليه ميلاً أذهلهن عما في أيديهن فقطعنها، ونفس كل واحدة منهن تحدثها بما حدثت نفس زليخا، ولما لم ينلن حكمن عليه بالسجن في صورة انتقام يعوضهن شيئاً مما فاتهن. فظاهر كلامهن أخيراً الانتقام والكراهية، وحقيقة كلامهن أولاً عند رؤيته، الحب والهيام.

يقول شكسبير: لو كانت دموع النساء تخصب الأرض لأنبتت الملايين من التماسيح<sup>(٣)</sup>. ومما قيل فيها: « المرأة كتاب صفحاته سوداء، وكلماته مضيئة،

(١) رواه البخاري ومسلم. (٢) المواهب اللدنية، ج ٢، ص ٣٦٨.

(٣) الرسالة الأسبوعية بيروت ١٩٧٨/٩/٢٥.

ولذلك يفضل الرجل أن يقرأه ليلاً»، «المرأة الجميلة جنة لعينيك، جهنم لنفسك، عفريت لجيبك».

من أجل ذلك وقف عمر بن الخطاب موقف الحزم عندما راجعته زوجته في أمر هام قائلاً لها: ومالك أنت ولما هنا، وما تكلفك في أمر أريده. وسيأتى نص الحديث عند الكلام على تحمل الزوج أذى زوجته. ذكر ابن الجوزى فى سيرة عمر<sup>(١)</sup> عن ابن أبى شيبه أن عمر لما عاتب بعض عماله كلمته امرأته فيه، فقال: يا عدوة الله، وقيم أنت وهذا؟ إنما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين<sup>(٢)</sup> وهو القائل: عودوا نساءكم لا<sup>(٣)</sup> والقائل: خالفوا النساء فإن فى خلافهن البركة<sup>(٤)</sup>.

وإذا عدَّ البعض هذا الأسلوب عنيفاً فإن عمر يعرف مناسبته لمقتضى الحال، وهو تدخلها فى أمر هام على مستوى المسؤولية الكبرى، مع أنه هو القائل - مراعاة لضعف المرأة - ينبغى أن يكون الرجل فى أهله مثل الصبى، فإذا التمسوا ما عنده وجد رجلاً<sup>(٥)</sup>.

إن تدخلهن فى السياسة العامة فيه خطورة، يحكى التاريخ أن تيمورلنك لما سلّم له «دلهى» وخضع ملكها اشترط الملك أن ينجو هو وأهل المدينة من السلب والنهب، ورضى تيمورلنك، ولكن نساء امرائه وقواده لم يرضين، فحملنهم على نهب «دلهى» لاغتصاب المجوهرات التى يضرب بها المثل، فاستجاب الغزاة لثورة النساء وأغاروا على المدينة، وقتلوا من استطاعوا وجعلوا من رءوسهن هراً وفازوا بجمع الجواهر.

ويمكنك بعد هذا أن تفهم معنى النصوص والأقوال الواردة فى النساء، فما كان منها لصالحهن فمراعى فيه ضعفهن، وما كان منها عليهن فمراعى فيه حدتهن.

(١) ص ٨٥. (٢) إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٤٢، وكشف الغمة ج ٢، ص ١٠٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٦. (٤) كشف الغمة، ج ٢، ص ١٠٩.

(٥) الإحياء، ج ٢، ص ٤١، وروى قريب منه عن لقمان وكشف الغمة، ج ٢، ص ١٠٥.

فمن الأول :

(أ) قوله تعالى ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩].

(ب) وقوله ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجَنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء: ٣٦]. والمراد بالصاحب بالجانب الزوجة على ما قاله على وابن مسعود وابن أبي ليلى، كما فى تفسير القرطبي، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث المرشدة إلى حسن معاملتهن، وهى مذكورة فى مواضعها.

ومن الثانى :

(أ) قوله تعالى ﴿ إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨].

(ب) وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤]

والعداوة تنشأ من شدة الكراهية وصعوبة الانتقام من العدو. وهو ملاحظ عند المرأة بشكل أوضح. فهى تنشأ من تقصير الزوج فى ناحية تحبها، دون إمكانها أن تصل إلى غرضها منه، أما عند الزوج فإنه إذا كرهها أمكنه أن يطلقها ويستريح منها. وكذلك تكون العداوة عند الولد الذى لا يستجيب والده لما يريد، ولا يجد ما يسعفه بغرضه سواه، أما الوالد فقل أو ندر أن يكون عدواً لولده، فإن عاطفة الأبوة بحنانها تطف إلى حد كبير ما يكون مثيراً للغضب على ولده وكراهيته له.

وسبب نزول هذه الآية، كما قال ابن عباس، أن رجالاً أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبى صلى الله عليه وسلم، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ليأتوه، فلما أتوه ورأوا الناس قد فقهوا فى الدين هموا أن يعاقبوهم فأنزل الله تعالى هذه الآية<sup>(١)</sup>.

(١) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح «تفسير القرطبي».

وقيل نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، وكان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا ورققوه، فيرق ويقيم

(ج) وقول الرسول ﷺ «ثلاث من الفواقير» أي التي تكسر فقار الظهر - وذكر منها « وامرأة إن حضرت أدتك، وإن غبت عنها خانتك »<sup>(١)</sup>. أما رواية «استعيذوا من الفواقير الثلاث» وعد منهن «المرأة السوء، فإنها المشيبة قبل المشيب» فسندها ضعيف<sup>(٢)</sup>.

(د) روى عن النبي ﷺ أنه قال: «علقوا السوط حتى يراه أهل البيت، فإنه أدب لهم»<sup>(٣)</sup> وهو في الأدب المفرد للبخاري من كلام ابن عباس أن النبي ﷺ أمر بتعليق السوط في البيت. وقد ذكره القرطبي في تفسيره بدون سند وبلفظ: «رحم الله امرأ علق سوطه وأدب أهله»<sup>(٤)</sup>.

وهناك من الآثار والأقوال في هذا المعنى كثير، منها:

(أ) قول عمر رضي الله عنه، كما رواه الحسن: النساء عورة فاستروها بالبيوت، وداووا ضعفهن بالسكوت. وفي حديث آخر له: لا تسكنوا نساءكم الغرف، ولا تعلموهن الكتاب، واستعينوا عليهن بالعرى، وأكثروا لهن من قول «لا» فإن نعم تغريهن على المسألة<sup>(٥)</sup>.

(ب) قول علي رضي الله عنه: «لا تطيعوا النساء على حال، ولا تأمنوهن على مال، ولا تذروهن يدبرن العيال، فأنهن إن تركن وما يردن أو ردن المهالك، وأزلن الممالك، لا دين لهن عند لذاتهن، ولا ورع لهن عند شهواتهن، ينسين الخير ويحفظن الشر، ويتمادين في الطغيان، ويتصددين للشيطان»<sup>(٦)</sup>.

(١) رواه الطبراني بسند حسن عن فضالة بن عبيد «الإحياء»، ج ٢، ص ٤٢.

(٢) رواها أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس «المرجع السابق».

(٣) كشف الغمة، ج ٢، ص ١٠٨، رواه الطبراني

(٤) ج ٥، ص ١٧٤. (٥) عيون الأخبار، ج ٤، ص ٧٨.

(٦) المستطرف، ج ٢، ص ١٩٠.

(ج) قول لقمان لابنه: «يا بني، اتق المرأة السوء، فإنها تشيبك قبل المشيب، واتق شرار النساء، فإنهن لا يدعون إلى خير، وكن من خيارهن على حذر»<sup>(١)</sup>.

(د) قول ابن المقفع: إياك ومشاورة النساء، فإن رأيهن إلى أفن، وعزمهن إلى وهن، واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن، فإن شدة الحجاب خير لك من الارتياب، وليس خروجهن بأشد من دخول من لا تثق به عليهن، فإن استطعت ألا يُصرفن عليك فافعل، ولا تمكّن امرأة من الأمر ما جاوز نفسها، فإن ذلك أنعم لحالها، وأرضى لبالها، وأدوم لجمالها، وإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تعدّ لكرامتها نفسها، ولا تعطها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تطل الخلوة مع النساء فيمللنك وتملهن، واستبق من نفسك بقية، فإن امساكك عنهن وهن يردنك باقتدار خير من أن يهجمن عليك على انكسار، وإياك والتغاير في غير موضع غيره، فإن ذلك يدعو الصحيحة منهن إلى السقم<sup>(٢)</sup>.

(هـ) قول ابن عبد القدوس:

وتوقّ من غدر النساء خيانة  
فجميعهن مكاييد لك تنصب  
لا تأمن الأنثى حياتك إنها  
كالأفعوان يراع منه الأنيب  
لا تأمن الأنثى زمانك كله  
يوماً ولو حلفت يميناً تكذب  
تغرى بلين حديثها وكلامها  
فإذا سطت فهو الصقيل الأشطب<sup>(٣)</sup>

والأشطب مأخوذ من قولهم: سيف مشطّب وذو شُطب، وهي طرائقه

«أساس البلاغة للزمخشري».

(١) الإحياء، ج ٢، ص ٤١. (٢) عيون الأخبار، ج ٤، ص ٧٨.

(٣) زهر الآداب للحصري على هامش العقد الفريد، ج ١، ص ١٩، العقد الفريد، ج ٣،

ص ٢٠٨، المستطرف، ج ٢، ص ١٨٩، عيون الأخبار، ج ٤، ص ٨٤.

(و) قول كُثِيرٍ عزة:

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن  
وإن هي أعطتك اللبان فإنها  
وإن حلفت لا ينقض النأى عهدها  
فليس مخضوب البنان يمين<sup>(١)</sup>

وروى البيت الأول بلفظ:

تمتع بها ما ساعفتك ولا يكن  
عليك شجا في الصدر حين تبين

والشجا هو ما ينشب في الحلق من عظم وغيره. ولا شك أن مثل هذا الشعر ليس صحيحاً على إطلاقه أو في كل الحالات، فلعله إحساس خاص من الشاعر بمن رأى منها شراً فذم جميع الناس لأجلها.

(ز) تقدم في الجزء الثاني من هذه الموسوعة «ص ٢٢» قول الحجاج للوليد

في ذم النساء.

وهذه النقول عن عمر وعلى ولقمان وابن المقفع وغيرهم أذكرها للدلالة على ما يحسه هؤلاء في المرأة من ناحية الشدة، وإن كانت لهم ولغيرهم أقوال في ضعفهن وإكرامهن. وهي على كل حال لا تعدل ما قاله الرسول ﷺ في هذا الشأن. والعبرة في الاستدلال على الحكم بالقول الثابت، ولا عبرة بغيره مما قد يصور حالة خاصة لا ينبغي أن تؤخذ مأخذ العموم، فليس لها سند صحيح، وهي مجرد صور للعرض قد يكون بعضها صحيحاً على عمومها.

إن نواحي الشدة في المرأة قد تقوى حتى تطغى على نواحي الضعف فيها، وهنا تتحين الفرص للشأر لنفسها، خصوصاً عندما تكفل لها القوانين وبعض الأعراف الحرية التامة، وهي تحاول أن تقصى الرجل عن مكانه أو تزحمة فيه، فإن لم يفظن إلى ذلك سلب سلطانه الأدبي وانهارت مكانته وفسد المجتمع كله.

ومن هنا كانت نسبة المرأة الصالحة التي عرفت واجبها حقاً، ووقفت عند

(١) المرجع السابق.

حدودها التي حددتها لها الطبيعة، ووضحتها لها القوانين الإلهية، قليلة بالنسبة لغيرها، يشير إلى ذلك الحديث المروي عن عمرو بن العاص، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمصر الظهران، فإذا بغربان كثيرة فيها غراب أعصم، فقال «لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب في هذه الغربان»<sup>(١)</sup> وفي رواية عن أبي أمامة «مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب»<sup>(٢)</sup>، والغراب الأعصم ما كان أبيض البطن أحمر المنقار، وفسره النبي ﷺ في بعض الروايات بأنه الذي إحدى يديه بيضاء<sup>(٣)</sup>.

وكما يشير إليه أيضاً حديث «كامل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»<sup>(٤)</sup>. وفي رواية «... ولم يكمل من النساء إلا ثلاث، مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خوليد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»<sup>(٥)</sup>.

وحسبنا تأكيداً لهذا الحكم أنه لم يف بمبايعة النبي ﷺ للنساء على عدم النياحة - وكان عددهن ٤٥٧ كما يقول ابن الجوزي - إلا خمسة، كما رواه مسلم عن أم عطية<sup>(٦)</sup>، ولا عجب في ذلك بعد وصف النبي ﷺ للمرأة بأنها خلقت من ضلع أعوج لا تستقيم على طريقة واحدة كما تقدم.

ومن الأقوال الشديدة في المرأة قول «أفلاطون» عندما رأى امرأة عوراء: «ذهب نصف الشر». وقول «اليوجانس» الفيلسوف عندما رأى امرأة تحمل ناراً

(١) رواه أحمد وإسناده صحيح وهو في السنن الكبرى للنسائي «الإحياء» ج ٢، ص ٤١.

(٢) رواه الطبراني بسند ضعيف «المرجع نفسه».

(٣) المطلب العالية، ج ٢، ص ٥٧. (٤) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق.

(٥) رواه ابن مردويه «تفسير ابن كثير»، ج ٢، ص ٣٢.

(٦) ج ٦، ص ٢٣٧.

« نار على نار » وحامل شر من محمول . وقوله عندما رأى فتاة تتكلم « سيف يُسن للشر » وقول « أرميا » : « المرأة باب الجحيم وطريق الشروسم العقرب » . وقول القديس « أنطونيوس » : « المرأة معاملة أسلحة للشياطين ، وصوتها فحيح الأفاعى »<sup>(١)</sup> . وقول بعضهم : « إن المرأة إذا قالت لك : إني أحبك ، فمعناه أنها سمحت لك بأن تحبها ، أو مجرد إذن لك بحبها » .

ومما ورد في ذمهن قول طفيل الغنوى :

إن النساء كأشجار نبتن معاً منها المرار وبعض المر مأكول  
إن النساء متى ينهين عن خلق فإنه واقع لابد مفعول<sup>(٢)</sup>

وقد قامت إحدى الصحفيات<sup>(٣)</sup> بحصر لبعض مظاهر العداوة للمرأة منها :

- ١- اتهامها بأن حواء أخرجت آدم من الجنة .
- ٢- وضع الرومان القيود في أيديها وأرجلها .
- ٣- أحرقها الهنود مع زوجها المتوفى في القرن السابع عشر .
- ٤- باعها الصينيون كالرقيق إذا لم تتزوج .
- ٥- ذبحها الوثنيون للآلهة حتى تجلب السعد لهم .
- ٦- عاملها البابليون كأسيرة ، يحلق شعرها إذا توفى زوجها ، وتقوم بتسويد أسنانها بعد الزواج حتى لا ينظر إليها أحد ، وما زالت مطيعة طاعة عمياء لزوجها ، والعالم يحسد اليابان ويطلق عليها جنة الرجل .
- ٧- في مصر ألقوها في النيل ليفيض .
- ٨- في أيام الحاكم بأمر الله اضطهدت حتى تخلصت منه أخته ست الملك .

(١) مجلة الإسلام ، مجلد ٢ ، عدد ٤٥ .

(٢) عيون الأخبار ، ج ٤ ، ص ١١٣ ، اللطائف والظرائف للثعالبي ، ص ٦٧ .

(٣) ملحق جريدة القبس الكويتية ١٨ / ١٢ / ١٩٧٨ .

٩- ذمها الشعراء، ومن ذلك قول بعضهم:

لا تأمن إلى النساء ولا تثق بهوهنه  
يبدين ودا كاذباً والغدر حشو ثيابهنه  
بحديث يوسف فاعتبر متحذراً من كيدهنه  
أو ما ترى إبليس أخرج آدم ما من أجلهنه  
وقول المعري:

هي النيران تخشى من بعيد      ويحرقن الأكف إذا لمسنه  
ولولا أنهن أذى وكيد      لما أصبحن في حلل حبسنه

١٠- يقول بعض الأدباء: المرأة مثل مانعة الصواعق، تمتص الصدمات والكوارث وتعيش بعدها، وإن ملايين الرجال يشعلون الحروب التي تأكلهم، ولكنها تعيش كأرملة بعدهم. [أنيس منصور].

قال جحا للنجار عندما أراد أن يتزوج: ضع خشب السقف أسفل وخشب الأرض أعلى، فقال: لماذا؟ قال: إن المرأة إذا دخلت مكاناً جعلت عاليه سافله. اقلب هذا المكان بسرعة حتى يعتدل بعد الزواج.

قال عنها شوينهور الذي لم يتزوج: إنهن الجنس غير اللطيف، رياضتهن المحببة هي التسوق خارج بيوتهن، يرين مهمة الرجال جلب المال، ومهمتهن القضاء على المال.

وقال الأديب الفرنسي «فلوبير»: «إنى أندم على أن الله لم يخلقنى امرأة حتى أعرف كيف تفكر المرأة».

٢- المفروض بل الواقع أن الرجل هو المدير برئاسة الحياة الزوجية، بحكم مواهبه ومزاياه الفطرية والكسبية، وذلك بنص القانون الإلهي الكريم في قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. وقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وتوضيح هاتين الآيتين المذكور في بحث الحجاب، ص ٣٣٥. وهذا أمر مقرر من قديم التاريخ وفي كل الأديان، فقد قرر أرسطو، عند حديثه عن الأسرة، أن الطبيعة عينت مراكز أعضائها وهم الزوجان والأولاد والعبيد، فالعاقل يحكم كسيد، والقوى الجسم ينفذ ويخدم، فالرجل سيد والمرأة أقل عقلاً، فعملها الزينة وتدبير المنزل، والعبيد للأعمال الصعبة<sup>(١)</sup>.

وقال حكماء الهند: لا تخالطوا النساء كثيراً، ولا تتركوهن يملكن أنفسهن، لأن المرأة تعامل الرجل الضعيف كأنه الغراب الذي نتف ريشه<sup>(٢)</sup>. وفي سفر التكوين: «وقال للمرأة: تكثيراً أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك»<sup>(٣)</sup>، وقد تقدم في الجزء الثاني، ص ٣٣٦.

فحافظ على هذه المنزلة، ولا تخضع لأية سلطة تحاول أن تنتزعها منك، وراقب تصرفات الزوجة التي تجتهد في إيجاد ثغرة في شخصيتك لتنفذ منها إلى اغتصاب هذا الوسام الرفيع وتستيقظ حين تثور فيها عوامل الشدة التي تكسى بطبقة أخاذة منسوجة من الحب الذي تمكّن في قلبك نحوها، فإن الحب مقود تستطيع المرأة أن تقودك به إلى حيث هي تريد.

يقول «محمد قطب» في كتابه [شبهات حول الإسلام]: قوامة الرجل أصلها الفكر لا العاطفة، والمرأة نفسها لا تحترم الرجل الذي تسيره ويخضع لرغباتها، بل تحتقره، والأمريكية أخيراً بعد المساواة استعبدت الرجل، فأصبحت هي التي تغازله وتتلطف له ليرضى، وتتحسس عضلاته المفتولة وصدره العريض، ثم تلقى نفسها بين أحضانه حين تطمئن إلى قوته بالقياس إلى ضعفها. على أن المرأة إذا تطلعت للسيادة في أول الزواج وهي فارغة البال، فإنها تتنازل عنها حين تكثر هموم العيال.

(١) دراسات في الاجتماع العائلي للدكتور الخشاب.

(٢) كتاب «بنج ننترا» - المصور ٢٥ فبراير ١٩٥٥.

(٣) إصحاح ٣: ١٦.

هذه القوامة تشريف أدبي يقصد به ربط النظام العائلي بمحور يدور حوله ولا يراد به الاستبداد أو الاحتقار للمرأة، بل هي في الحقيقة من باب «وضع الشخص المناسب في المكان المناسب».

ولهذا نرى الإسلام لا يحل للزوج أن يحمل زوجته المسيحية أو اليهودية على تغيير دينها، ولا يبيح له أن يتدخل في شؤونها المالية تدخلاً يمنعها التصرف فيه، ولا يحد من حرية رأيها في مجالات كثيرة، فلا تكن أيها الرجل ديكتاتوراً، بل كن طبيباً، إن لجأ إلى إجراء عملية جراحية، أو إن أراد أن يسقى مريضاً دواءً مُراً فليكن ذلك مزوجاً بعاطفة الرحمة التي تحمله على إنقاذ المريض من خطر محقق يراه بخيرته.

وإن تنازلت عن رئاستك وتخليت عن الميدان وأسلمتها الزمام كانت هي الخصم والحكم معاً، لا تعرف الموازنة بين القوى، لأن كل ما تتصرف به فهو موزون في رأيها، إنها إن تسلمت الدفة لم تستطع أن تتجنب الخطر، بل تكون هي الخطر نفسه، وكيف تتنازل أيها الرجل عن تشريف منحك الله إياه، حيث جعلك سيداً عليها. إذ يقول ﴿وَأَلْفَيْاً سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]. أليق بك أن تكون بعد هذا عبدها المسخر. أو تكون قد بدلت نعمة الله عليك كفوفاً؟.

\* حاشية:

السيد في اللغة العربية يطلق على الرب والمالك والشريف والفاضل والكريم والحليم ومتحمل أذى قومه والزوج والرئيس والمقدم. وأصله من ساد يسود. ويطلق على المرأة أيضاً سيدة، كما في بعض الروايات، كل بنى آدم سيد، فالرجل سيد أهل بيته، والمرأة سيدة أهل بيتها [النهاية لابن الأثير].

وأرى أنه إذا قيل: الرجل سيد أهل بيته دخلت المرأة تحت هذه السيادة، وإذا قيل: المرأة سيدة أهل بيتها لم يدخل الرجل تحت سيادتها، بل المراد ما دونه من أولاد وخدم.

هذا، وكانت النساء يتحدثن عن أزواجهن بلقب «سيد» ففي حديث عائشة رضي الله عنها أن امرأة سألتها عن الخضاب فقالت: كان سيدى رسول الله

عليه السلام يكره ربحه . أرادت معنى السيادة تعظيماً له، أو ملك الزوجية من قوله تعالى ﴿وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ . ومنه حديث أم الدرداء قالت : حدثني سيدي أبو الدرداء [النهاية لابن الأثير] .

ولتعلم أيها الرجل أن نفسها كنفسك، إن أرسلت عنانها قليلاً جمحت بك طويلاً . وإن أرخيت عذارها شبراً جذبتك ذراعاً، وإن كبحتتها وشدت يدك عليها في محل الشدة ملكتها<sup>(١)</sup> .

اقرأ خطبة سهيل بن عمرو وأبي سفيان لهند بنت عتبة بن ربيعة في مبحث اختيار الزوجين لتبين هذه الحقيقة . واذكر تشبيه عمرو لها باللعبة، واجعل نصب عينيك دائماً تلك النتيجة الحتمية الممهورة بخاتم النبوة « لن يفلح قوم ملكوا أمرهم امرأة »<sup>(٢)</sup> وتوضيحه المذكور في بحث الحجاب « ص ٤٧٦ » وفي الحديث أيضاً « هلكت الرجال حين أطاعت النساء »<sup>(٣)</sup>، وهما مرويان عن أبي بكر، وظروفهما تتشابه، فالأول حين علم الرسول أن الفرس ولوا عليهم امرأة، والثاني حين جاءه بشير يبشره بظفر خيل له وكانت رأسه في حجر عائشة، فقام فخر ساجداً : فلما انصرف من سجوده أنشأ يسأل البشير فحدثه، فكان فيما حدثه أمر العدو وكانت عليهم امرأة فقال « هلكت الرجال حين أطاعت النساء » .

ومما يذكر في القصص أن رجلاً في بنى اسرائيل أعطى ثلاث دعوات مستجابة، فطلبت زوجته منه أن يدعو أن تكون أجمل امرأة، فلما صارت كذلك نفرت منه إلى غيره، فدعا عليها الثانية فصارت قرداً أقبح ما تكون القروء، ولما أحست بخطئها وندمت تشفع إليه القوم، فدعا الثالثة فعادت كما كانت زوجة عادية<sup>(٤)</sup> .

(١) الإحياء، ج ٢، ص ٤١ . (٢) رواه البخاري من حديث أبي بكر نفيح بن الحارث .  
(٣) رواه أحمد والطبراني والحاكم وصححه، لكن الذهبي أورد بكارين عبد العزيز بن أبي بكر في الضعفاء وقال : قال ابن عدى : أرخو أنه لا بأس به، قال : هو من جملة الضعفاء الذين يكتب حديثهم « فيض القدير للمناوي » .  
(٤) حياة الحيوان للدميري، ج ٢، ص ٢٦٤، مادة « كلب » وعبون الأخبار، ج ٤، ص ١١٧ .

وسأل النعمان طبيبه عن السوء السوء والداء العياء، فقال: المرأة التي تعجب من غير عجب، وتغضب من غير غضب، إن كان مكثراً لم ينفعه ماله، وإن كان مقللاً عيّرته بالفقر، فتلك التي أراح الله منها بعلمها، وضيق عليها قبرها!!! وأما الداء العياء فالشباب القليل الحيلة، اللزوم للخليلة، إن غضبت ترضاها، وإن رضيت فداها - أي قال لها: فداك أبي وأمي، أو نحو ذلك - فلا كان ذلك في الأحياء<sup>(١)</sup>.

هذا، وقد ظهرت آراء حديثة في عهود التحرر والثورة على القديم تقول: إن قوامة الرجل على المرأة محلها إن كان صالحاً لها، وإلا كانت القوامة لها عليه، وهذا فهم عقيم يراد به مسايرة التطور في رفع درجة المرأة لتساوى الرجل وتمنع السيطرة عليها، فعلى فرض عدم أهليته للقوامة فلن تكون المرأة هي القوامة عليه، بل ذلك يكون لرجل رشيد يرعى شئونه لسفه أو جنون أو عجز على نحو آخر، وإن أعسر بالنفقة عليها، وهو العامل الثاني الكسبي في استحقاق القوامة عليها جازت لها المطالبة بفسخ العقد، لا أن تكون هي قوامة عليه، كما هو رأى مالك والشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يجوز الفسخ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]. انظر تفسير القرطبي<sup>(٢)</sup>.

ولا يفوتني هنا أن أشيد بموقف الأمير «ألبرت» البلجيكي الذي تزوج «فيكتوريا» ملكة إنجلترا [تولت في يونية ١٨٣٧م] على كره منها، مع أنه ابن خالها، فقد طرقت عليه باب مكتبه يوماً وهو مشغول بالمطالعة، فقال: من بالباب؟ فقالت: ملكة إنجلترا، فلم يرد عليها، فطرقت الباب ثانية، فسألها كما سأل أولاً، فقالت: أنا زوجتك. ففتح لها ثم قال: إنني أعرف أن زوجتي في بيتي، لكنني لا أعرف ملكة إنجلترا فيه.

٣- إن المرأة تعيش في حياتها الزوجية على ما تعودته في أيامها الأولى، وهي ستسنى المستقبل في حياتها على طعم الكأس التي شربتها في هذه الفترة

(٢) ج ٥، ص ١٦٩.

(١) مفيد العلوم للرازي، ص ٢٠٨.

التي انتقلت فيها إلى عشها الجديد بمناخه الجديد . فكيف لها المناخ الذي ينبغي أن تتعوده . وضع لها أسس النظام الذي تحب أنت أن تسير هي عليه .

ولا أريد منك أن تمثل الدور الذي يمثله رجل « التبت » من ضربه لزوجته ليلة الزفاف ثلاث ضربات، الأولى لتنسى والديها، والثانية لتنسى أحبائها السابقين، والثالثة لتخافه<sup>(١)</sup> بل بين لها ما تحب وما تكره، وبعد تعليمها راقب التنفيذ، ولا تجعل شريك الأول كله عسلاً صافياً خالصاً، فالنفس تملءه، وربما كان فيه السم الزعاف وأنت لا تحسه، بل اجعله ممزوجاً بشيء من مرارة التوجيه والإرشاد، حتى تكون آخر الكأس كأولها على نسق واحد، وهذا ما نحاه شريح مع زوجته التميمية، وسيأتيك نبؤها عند الحديث عن حقوق الزوج على زوجته .

إن شهر العسل له خطورته وأهميته :

(أ) فالملاحظ أنه يكون فترة ترف وبذخ، ليظهر الزوج أمام زوجته بأنه ثرى عظيم، يجتذب بذلك قلبها وإعجابها واحترامها له، وهذا له أثره على الميزانية في المستقبل، وهو يعقبهما كأميراً للتخلص من ورطة الديون، أو متابعة المستوى الذي بدأ به حياته الزوجية .

(ب) وكذلك تكون هذه الفترة فترة تحرر من كثير من القيود، وإطلاق العنان للشهوة والمجاملة الكبيرة، وتلك لها أثرها في نظرة كل منهما للآخر، يقوى فيها الظن أن الكأس ستظل مترعة بهذا اللون من الإحساس والشعور، وأن آخر قطرة منها ستكون حلوة كأولها، وهذا الظن سيظهر أنه وهم وخيال عندما يصطدم الزوجان بصخرة الواقع الطبيعي البعيد عن التكلف والتصنع .

(ج) يشاهد في هذه الفترة أن كثيراً من الأزواج يحرصون على قضائها في بلد أجنبي وهذا له أخطار :

منها الوقوع تحت تأثير التقليد الأجنبي في الأوضاع والأخلاق ومظاهر السلوك، التي تكون بعيدة عن حياتنا الإسلامية وتقاليدنا العربية .

(١) أخبار اليوم ٢٩/٩/١٩٤٥ .

ومنها ضياع جزء كبير من المال لتغطية لوازم المتعة في هذا البلد، والأزواج أولى به، وبلادهم أحق بإنفاقه فيها.

ومنها الدعاية السيئة لأخلاق المسلمين، فإن هؤلاء يخرجون كثيراً عن حدود الأدب واللياقة، مجارة لغيرهم، وهذا يعطى صورة سيئة عن الإسلام، أو على الأقل عن المجتمع الإسلامى الذى لا يتمسك بدينه، وهو دين الرجولة الحقة والأخلاق الفاضلة، كما يدعى أهله وكما يسمع عنه الأجانب. فالأخطار فى هذا التقليد مادية وخلقية ودينية، وقد نعى كاتب إنجليزى على شهر العسل وختم مقاله بقوله: لو أنصف الأزواج لجعلوا شهر العسل بعد الزواج بعام كامل على الأقل، لكيلا تبدأ الحياة الزوجية بمظاهر مؤقتة ليس فى الاستطاعة أن تستمر.

وكان نساء العرب يعلمن بناتهن طريقة اختبار الزوج فى أيام الزواج الأولى، لتعامله بعد ذلك على ضوء النتائج التى يسفر عنها الاختبار. فكانت المرأة تقول لبنتها: اختبرى زوجك قبل الإقدام والجرأة عليه، انزعى رمحه، فإن سكت فقطعى اللحم على ترسه، فإن سكت فكسرى العظام بسيفه، فإن سكت فاجعلى الإكاف على ظهره وامططيه، فإنما هو حمارك<sup>(١)</sup>.

٤- ثم اعلم أن رابطة الحب والتوافق العاطفى تلعب دوراً هاماً فى سعادة الأسرة وضمان سيرها فى طريق الاستقرار، لأنها كمخالفة بين ربان السفينة والبحر، لا يجد معها ما يعوق سيره أو يشغل فكره، والحب ميل القلب نحو الغير، وقد تكون أسبابه المباشرة غير معروفة، فهو توجيه إلهى لا يملك المرء أحياناً صرفه عن قلبه، وهذا أمر مشاهد محسوس، يشير إليه النبى ﷺ بقوله عندما نعدت عائشة حبه الخديجة «إنى قد رزقت حبها»<sup>(٢)</sup>، فالتعبير بقوله «رزقت» يشير إلى أنه عمل إلهى، وكذلك يشير إليه قوله وهو يقسم بين نسائه «اللهم هذا قسمى فيما أملك، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك»<sup>(٣)</sup> بمعنى أن قسمة الأمور المادية

(١) الإحياء، ج ٢، ص ٤١، وعيون الأخبار، ج ٤، ص ٧٧.

(٢) رواه مسلم. (٣) رواه أصحاب السنن عن عائشة - زاد المعاد، ج ٤، ص ١٩.

مستطاع أن يكون فيها عدل بين الزوجات، أما الحب فمن الصعب أن يكون فيه عدل بين أكثر من واحدة، ولعل مما يشير إليه قوله تعالى ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب: ٤] ويؤيد هذا قوله تعالى ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمَعْلُوقَةِ ﴾ [النساء: ١٢٩]، فالعدل التام في الحب غير مستطاع مهما حاول الإنسان ذلك. ولهذا أرشد الله إلى عدم الإسراف فيه نحو المحبوب « فلا تميلوا كل الميل ». وفي بحث تعدد الزوجات توضيح هذه المسألة، كما سيأتى منها عند ذكر حق العدل بين الزوجات. وقد قال النبي ﷺ لعائشة رضيت الله عنها « أنا لك كأبى زرع لأم زرع »<sup>(١)</sup>، عندما ذكر الحديث الطويل الذى جاء فيه: قالت الحادية عشرة: زوجى أبو زرع فما أبو زرع؟ أناس من حلى أذنى، وملا من شحم عضدى، وبجّحنى فبجّحت إلى نفسى، فعنده أقول فلا أقبح، وأرقد فأصبح، وأشرب فأتنح.

وقد نهى النبي ﷺ نساءه عن إيذائه فى عائشة بقوله « لا تؤذنى فى عائشة، فإنه والله ما نزل على الوحي وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها »<sup>(٢)</sup> وقد سأله عمرو بن العاص: أى الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال « عائشة »<sup>(٣)</sup> وما حبه لخديجة وإكرام صديقاتها بعدها ببعيد.

والحياة المنزلية بغير حب أشبه بالأرض القاحلة التى لا نبات فيها ولا ماء، أو الصحراء الموحشة التى لا أنيس فيها ولا دليل، وقد عذر النبي ﷺ « بريرة » فى نفورها من « مغيث » زوجها وهو يتبعها فى الطرقات يبكى ودموعه تسيل على لحيته، لترضى بالعيش معه بعد عتقها، وقد أشار عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالبقاء معه فأبت، لأنها لا تحبه.

وبريرة كانت جارية لأبى لهب، وقيل لابنه عتبة، وقيل لبعض بنى هلال،

(٢) رواه البخارى.

(١) رواه مسلم.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

فكاتبوها ثم باعوها فاشتريتها عائشة . وجاء الحديث فى شأنها بأن الولاء لمن أعتق<sup>(١)</sup> وضبط اسمها بفتح الباء الأولى<sup>(٢)</sup> وإن كان فى بعض المصادر بضمها تصغير «بَرَّة» وزوجت بعد لم تكن راضية عنه، ولما اشترتها عائشة وأعتقتها قال لها النبى ﷺ «ملكك نفسك فاخترى» وكان زوجها يمشى خلفها يترضاها وهى تأباه . فقال النبى ﷺ «ألا تعجب يا عباس من شدة حب مغيث لبريرة وبغضها له؟» ثم قال لها «لو راجعته!! اتقى الله فإنه زوجك وأبو ولدك» فقالت : يا رسول الله . أتأمرنى فأفعل؟ قال : «لا، إنما أنا شافع» فقالت : إذا فلا حاجة بى إليه<sup>(٣)</sup>. والحب بين الزوجين مهما قوى فإنه لا بد صائر إلى ضعف، فالكمال التام المطلق غير محقق لهذا النوع الأرضى الذى تتجاذبه عوامل كثيرة تضعفه، فإن لم يكن له أن يستمر فينزل ليقف عند درجة الصداقة، التى لا تعدم شعوراً طيباً نحو الطرفين .

يقول «فرانكلين» : حيث يوجد زواج من غير حب سوف يوجد حب من غير زواج<sup>(٤)</sup>، ومعنى هذا أن الحب إذا لم يتوافق بين الزوجين سيضطرب كل منهما إلى أن يوجد علاقة حب خارج منطقة الزواج، أى حب حرام .

ومن تجارب الاخصائيين فى هذا الموضوع أن الحياة الزوجية إذا فقدت سحرها يمكن بعث الدفء فيها من جديد، وجعل الطرف الآخر يشعر كأنما عاد إلى الوراء سنوات طويلة، هذا ما تؤكد «غريسى ستيم» الاخصائية الاجتماعية السويدية، من خلال عملها لعشرين عاماً فى ميدان بحث المشكلات الزوجية .

تقول «غريسى» هناك سبع نقاط تعيد دماء الشباب للحب بين الزوجين، وهى :

(١) رواه البخارى ومسلم . (٢) البخارى، طبقة الشعب، ج٧، ص٨ .  
(٣) ذكر الغزالي قصتها فى الإحياء «ج٢، ص١٧٩» بالسند عن عكرمة عن ابن عباس فى رواية البخارى «الزبيدي، ج٣، ص٢٦٣»، وذكرها ابن سعد فى الطبقات «ج٨، ص٢٦٠» والسرخسى فى المبسوط «ج٥، ص٩٩»، وابن القيم فى زاد المعاد «ج٤، ص٢٣» والمذكور مزيج من هذه الروايات - نشرة الأوقاف رقم ٤٠ .  
(٤) آخر ساعة ٤/٣/١٩٥٣ .

١- إطرء الرجل لزوجته بسخاء عندما تقدم له طبقاً شهياً، وإطراؤها له عندما يقوم بتصليح جزء من الحديقة مثلاً.

٢- تجنب التعليقات السلبية وعدم الإشارة للشعر الأبيض والسمنة والتجاعيد والنسيان، بل على العكس يجب تبادل العبارات المشجعة التي تحمل التقريظ، كالقول بأن الطرف الآخر يبدو اليوم أحسن من أى وقت مضى. ومن الأقوال الجديدة: تستطيع المرأة أن تبلع الكذبة جرعة واحدة إذا كان فيها مدحها، أما إذا كانت تدمها فأنها تبتلعها نقطة نقطة، لأن الحق مر [إذاعة صباح الخير ١٠/٥/١٩٦٧].

٣- التحدث كما لو كانا فى مرحلة الخطوبة، وهذا يتطلب تجديد الأحاديث المحببة عن المزايا التى جذبت كلا منهما للآخر، وأن يجيد كل منهما الاستماع، كما لو كان يستمع إلى أليفه بشغف قبيل الزواج.

٤- تشجيع كل منهما الآخر على مزاولة أنشطة رياضية، والحذر من ذكر عبارة تنم عن أن زمان هذه الأنشطة قد مضى.

٥- ممارسة الهوايات التى اعتادا ممارستها أيام الشباب، وعدم الاعتذار بأنهما كبرا على ذلك.

٦- الهدايا المفاجئة لها مفعولها السحرى، فلو أنه فاجأها بوردة كما كان يفعل وهو فتى لكانت هذه الوردة أفضل عندها من جوهرة، لأنها تعود بها إلى ريعان صباها، كذلك إذا فاجأته الزوجة بربطة عنق أو قداحة، فكأنهما يقولان لبعضهما: ما زلنا فى ريعان الشباب بكل ما فيه من دفء العواطف.

٧- المواظبة على ذكر عبارات الحب فى الخطابات عندما يغيب الزوج لعمل أو تغيب هى فى إجازة<sup>(١)</sup>.

على أن البيوت لم تحظ كلها بهذه العاطفة، التى هى منحة من الله مالك القلوب، يقلبها كيف يشاء، فلا ينبغى لمن حُرّمها أن تظلم الدنيا فى وجهه

(١) ملحق جريدة القيس الكويتية ٢٢/١٠/١٩٧٩.

ويسعى لهدم بناء الأسرة بعد أن تعب في تأسيسه، وإن وجد أحد الطرفين فتوراً في هذه العاطفة نحو الآخر فلا يحدثه بذلك، بل يغالب ويظهر الحب، ضماناً لجمع الشمل وسير السفينة في هذا الخضم اللجب، ومن هنا أجاز النبي ﷺ كذب الزوج على زوجته والزوجة على زوجها.

فعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً، أو يقول خيراً»<sup>(١)</sup>، وفي رواية زيادة قالت: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث، تعنى الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها<sup>(٢)</sup>.

ولأهمية هذه النقطة لا بد من بعض التوضيح لها. قال ابن الجوزي في جواز الكذب للمصلحة ما نصه:

«وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب فهو مباح إن كان المقصود مباحاً، وإن كان واجباً فهو واجب، وهو مراد الأصحاب، ومرادهم هنا لغير حاجة وضرورة، فإنه يجب الكذب إذا كان فيه عصمة مسلم من القتل. وعند أبي الخطاب يحرم أيضاً، لكن يسلك أدنى المفسدتين لدفع أعلاها. قال الشيخ تقى الدين: والمسألة مبنية على القبح العقلي - فمن نفاه وقال: لا حكم إلا لله فإن الكذب يختلف بحسب إمكانه، ومن أثبته وقال: الأحكام لذات العقل قبحة لذاته. ومهما أمكن المعارض حرم»<sup>(٣)</sup>.

وجاء في غذاء الألباب للسفاريني<sup>(٤)</sup>: قال ابن القيم في الهدى [زاد المعاد في هدى خير العباد، ج ٢، ص ١٤٥] يجوز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المشركين حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت

(٢) رواه مسلم - رياض الصالحين، ص ١٣٠.

(٤) ج ١، ص ١١٢.

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح، ج ١.

بالمسلمين من ذلك الكذب . وأما ما نال مَنْ بمكة من المسلمين من الأذى والحزن فمفسدة يسيرة فى جنب المصلحة التى حصلت بالكذب . . . إلى أن قال : ونظير هذا الإمام والحاكم يوهم الخصم خلاف الحق ليتوصل بذلك إلى استعمال الحق، كما أوهم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام إحدى المرأتين بشق الولد نصفين، حتى يتوصل بذلك إلى معرفة عين أمه . اهـ .

قلت : ومنه كذب عبد الله بن عمرو بن العاص على الرجل الذى أخبر النبى ﷺ أنه من أهل الجنة، فلأزمه أياماً ليعرف حاله، وادعى أنه مغضب لأبيه (١)، ويقاس عليه حلف اليمين لإنجاء معصوم من هلكة، واستدل عليه بخبر سويد بن حنظلة أن وائل بن حجر أخذه عدو له فحلف أنه أخوه . ثم ذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال « صدقت » المسلم أخو المسلم» (٢) .

ويمكن الرجوع فى استيضاح هذه النقطة إلى « نيل الأوطار للشوكانى، ج ٨، ص ٨٥، إحياء علوم الدين للغزالي، ج ٧، ص ١١٩ .

ومن طريف ما يحكى فى هذا الصدد أن عبد الله بن رواحة وقع على جاريتته فعلمت بذلك زوجته، فأعدت سكيناً لضربه، فلما سألته ادعى أنه لم يمسه، لأنه يقرأ القرآن، والجنب لا يقرؤه، فقالت له : اقرأ، فقرأ لها شعراً حسبته قرآناً، فصدقته، وأخبر النبى ﷺ بذلك كما ذكره القرطبي فى تفسيره (٣) وجاء فيه :

روى الدارقطنى عن عكرمة قال : كان ابن رواحة مضطجعاً إلى جنب امرأته، فقام إلى جاريتة له فى ناحية الحجرة فوقع عليها، وفزعت امرأته فلم تجده فى مضجعه، فقامت فخرجت فرأته على جاريتته، فرجعت إلى البيت فأخذت الشفرة ثم خرجت، وفرغ فقام فلقىها تحمل الشفرة، فقال : مهيم؟ - كلمة يمانية يستفهم بها، معناها : ما وراءك، أو ما شأنك؟ - قالت : مهيم!! لو أدركتك حيث

(١) رواه أحمد بسند مقبول - الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٢١٩ .

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح . (٣) ج ٥، ص ٢٠٩ .

رأيتك لو جأت - ضربت - بين كتفيك بهذه الشفرة . قال : وأين رأيتني ؟ قالت :  
رأيتك على الجارية ، فقال : ما رأيتني ، وقد نهى رسول الله ﷺ أن يقرأ أحدنا  
القرآن وهو جنب ، قالت : فاقراً ، وكانت لا تقرأ القرآن ، فقال :

أتانا رسول الله يتلو كتابه      كما لاح مشهور من الفجر ساطع  
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا      به موقنات أن ما قال واقع  
يبيت يجافى جنبه عن فراشه      إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

فقالت : آمنت بالله ، وكذبت البصر ، ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره ،  
فضحك حتى بدت نواجذه .

وهذا الحديث الذى رواه الدارقطنى عن عكرمة فى سنده مسلمة بن وهرام ،  
وثقه ابن معين وأبو زرعة ، وضعفه أبو داود<sup>(١)</sup> . والقصة ذكرها أيضاً ابن القيم فى  
كتابه «إغاثة اللهفان»<sup>(٢)</sup> وقال : إن الأبيات التى ذكرها هى :

شهدت بأن وعد الله حق      وأن النار مشوى الكاذبين  
وأن العرش فوق الماء طاف      وفوق العرش رب العالمينا  
وتحملة ملائكة شداد      ملائكة الإله مسومينا

ويذكرنى هذا بما جاء فى كتب الأدب ، قال الأصمعى : دخلت البادية  
ومعى كيس فيه دنانير ، فأودعته عند اعرابية ، فلما طلبته أنكرته ، فقدمتها إلى  
شيخ منهم ، فأصرت على إنكارها ، فقال الشيخ : قد علمت أنه ليس عليها إلا  
اليمين ، فقلت : أيها الشيخ كأنك ما سمعت قوله تعالى :

ولا تقبل لسارقة يميناً      ولو حلفت برب العالمينا

فقال : صدقت أيها الرجل ، وهددها فأقرت ورددت إلى مالى ، ثم التفت  
الشيخ إلى وقال : فى أى سورة تلك الآية ؟ فقلت : فى قوله تعالى :

(١) من كتاب «حياة الصحابة» ج ٣ ، تأليف محمد يوسف ، نجل الشيخ محمد إلياس  
الهندي ، طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .  
(٢) ص ٢٠٨ ، ٢٥٧ .

## ألا هبى بصحنك فأصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا

فقال الشيخ: يا سبحان الله، لقد كنت أظن أنها في «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً»<sup>(١)</sup>. والصبوح هو الشرب بالغداة أى أول النهار، وهو ضد الغبوق أى الشرب مساء، تقول منه: صبحه من باب: قطع يقطع.

فالكذب يجوز لتحقيق مصلحة ليس فيها ضرر لمسلم، أو كان الضرر أقل، وذلك فى مثل المواطن الآتية:

١- الإكراه عليه، كما أكره المستضعفون من الصحابة على النطق بكلمة الكفر، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، وهو يؤول إلى التخلص من ضرر المشركين أو الظالمين. ومنه كذب الثوار على الحجاج.

٢- فى الحرب، للحديث الذى رواه مسلم «الحرب خدعة» ومن حوادثه قتل كعب بن الأشرف، وقول النبى ﷺ لمن سأله يوم بدر: ممن؟ فقال «من ماء».

٣- بين الزوجين، وذلك بنص الحديث المتقدم.

٤- الصلح بين المتخاصمين، وبينه وبين غيره، وذلك بنص الحديث المتقدم.

٥- لتخليص برىء من ظلم، ومنه كذب إبراهيم عليه السلام فى قوله عن امرأته: إنها أختى.

٦- الاستدراج لأخذ الحق، كما جاء عن عمر من رضائه بتولية جبلة بن الأيهم إن أسلم، ثم محاسبته.

٧- الوصول إلى تقرير حقيقة، ككذب إبراهيم عليه السلام فى قوله «إنى سقيم» وذلك ليتخلف حتى يكسر الأصنام، وقوله «بل فعله كبيرهم» وقوله «هذا ريبى» للنجم والقمر والشمس.

(١) مجلة العربى - فبراير ١٩٧١ - طرائف.

كان ابن أبي عذرة الدؤلى يخلع النساء اللائى يتزوج بهن، فصارت له فى الناس من ذلك أحدوثة يكرهها، فأشهد عبد الله بن الأرقم على امرأته أنها تبغضه، ثم ذهب إلى عمر رضى الله عنه، فأرسل إليها، فجاءت هى وعمتها، فسألها هل تحدثت أنك تبغضين زوجك؟ قالت: نعم، لأنه أنشدنى الله، أفأكذب يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فاكذبنى، فإن كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تحدثه بذلك، أقل البيوت الذى يبنى على الحب، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب<sup>(١)</sup>.

غير أنى أحذرك إذا كنت تحب زوجتك أن يطغى حبك لها على واجبك ومركزك كرجل له رئاسته وكرامته، فإن سلطان الحب يأسر القلوب، ويذيب صفات الرجولة الكاملة إن تمحض وانفرد فى الميدان، وفى بحث الحجاب «ص ١٢ وما بعدها، ص ٣٧» وفى بحث اختيار الزوجين «ص ٢٢٣» كثير مما يدل على ذلك.

وأذكر حكمة الإمام الشافعى إذ يقول: «ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك، وإن أهنتهم أكرموك، المرأة والخادم والنبطى»<sup>(٢)</sup>. وقد استغل كثير من النساء سلطان الحب حتى جلسن على عروش الممالك بعد عروش القلوب، فكانت المآسى والنكبات الخلقية والاجتماعية بل السياسية أيضاً، وإن شئت دليلاً على ذلك فاقراً تاريخ فرنسا لترى آثار «مدام دى بومبادور» فى لويس الرابع عشر، و«مدام دى بارى» فى لويس الخامس عشر، وغيرهما ممن أسعدهن الحظ فرفعن من عاملات فقيرات إلى متصرفات تولى وتعزل، وتنهى وتأمّر، وتقرب وتبعد، وترى وتحكم كما يشاء الهوى، وفى بحث الحجاب «ص ٣١٥، ٣١٧» صور من نفوذ هذه الملكات وغيرهن من النساء.

وسأريك بعد أن الرسول ﷺ، مع حبه الشديد لعائشة رضى الله عنها، كان

(١) الإحياء، ج ٣، ص ١٢٠. (٢) الإحياء، ج ٢، ص ٤١.

يغضب لمحارم الله، ولا يوافقها على كل ما تهواه، ما دام يجافى الحق ويجانب الصواب، وسترى أيضاً أن الحب قد يستغل استغلالاً سيئاً فتنشأ عنه أزمات في الأسرة قد تؤدي إلى التضحية بأعز ما يحرص الرجل على احترامه وتكريمه، وذلك عند إثثار حب الزوجة وصعوبة التوفيق بينها وبين أمه .

وقد يثار هنا سؤال هو : هل يمكن للمرأة أن تستعين بوسائل السحر على حب زوجها لها؟ والجواب باختصار أن المرأة نفسها سحر في أقصى درجات السحر، يمكنها بما تملك من جمال ودلال وأخلاق وحسن معاشرة أن تجذب قلب زوجها إليها، فإن عجزت مع هذا كله عن أن تبقى على حبه لها ولو في أدنى درجاته، فمن الجائز أن تكون هناك عوامل أخرى صرفته عنها، وقد تكون عوامل بشرية من الجو الذي تعيش فيه، وقد تكون عوامل غير بشرية يشير إليها قول الله تعالى في آية السحر من سورة البقرة: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

وبيان حكم تعلم السحر والعمل به مذكور في غير هذا الكتاب، مع التنبيه على عدم التورط في التعامل مع الدجالين الذين يوهمون الأغرار بأنهم يستطيعون أن يعملوا ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه . « انظر س، ج للمرأة المسلمة، ص ٢٦ » و« فتاوى وأحكام للمرأة المسلمة ص ١٧ » .

٥- واعلم أن الحقوق التي سأذكرها هنا لا يقصد منها ما هو خاص بالواجب المحتتم، كما اصطلح عليه علماء الفقه، بحيث يترتب على التقصير فيه عقاب الله، بل المراد بها ما يشمل الواجب والمندوب، فإننا لانريد للأسرة مجرد أن تقوم وتتكون، بل نريد أن تكون سعيدة تؤدي وظيفتها على الوجه الأكمل . ولاشك أن بعض المندوبات لها دخل كبير في هذه السعادة، فإذا كان غرضنا من بيان الحقوق التي للطرفين السعادة الكاملة للأسرة كانت هناك هذه المندوبات من الواجبات اجتماعياً، لأنه يترتب على تركها أو التقصير فيها عدم هذه السعادة .

وعلى ضوء هذه القواعد سأضع بين يديك من الحقوق مجموعات منظمة،

فإن الذين تحدثوا عنها لم يستوعبوها، وإن استوعبوها ذكروها غير مرتبة ولا منظمة، بل سردوها سرداً يصعب معه الإلمام بها، وإليك هذا التنظيم.

(أ) نظراً لجانب الضعف فى المرأة يجب على الرجل - دينياً واجتماعياً - أن يكون لطيفاً فى معاملته إياها، وسأختار لك مظهرين لهذا اللطف، هما:  
١- المحافظة على شعورها. ٢- تحمل أذاها.

(ب) ونظراً لحدة عواطفها وبعض نواحي النقص فيها يجب أن يكون موجهاً لها ومراقباً لتصرفاتها، لأن زلتها ستلصق به حتماً، ضرورة كونه عضواً فى أسرة هى أيضاً عضو فيها، ولهذا التوجيه والمراقبة ثلاثة مظاهر:

١- تعليمها. ٢- الغيرة عليها ومراقبة سلوكها. ٣- تأديبها عند المخالفة.

(ج) ونظراً لكونها أجنبية فى النسب عنه، وصارت بحكم الزواج تحت رعايته، فلا ينبغى أن يكون موقفه منها موقف الوصى من القاصر، على الصورة التى هى امتداد للزواج بسلطة، الذى تلوثت به العصور المظلمة، فقد عفى الإسلام على هذه المعاملة الشاذة، ومنح الزوجة قسطاً كبيراً من الحرية فى التصرفات المالية كما رسمت قواعد الشريعة - من بيع وشراء وهبة وخلافه، وحرم على الزوج أن تمتد يده إلى ما يخصها، إلا بطيب نفسها ورضاها، ومن هنا ينتج حق المحافظة على مالها.

(د) ونظراً لكونها منقولة من عش إلى عش، ومن جو إلى جو آخر ينبغى أن يعوضها ما فقدته من أنس وحنان كانت تتمتع به فى كنف والديها، فىكون لها أنيساً ومسلماً بكل ما يشرح صدرها، وينسيها غريبتها، ويعودها العيش فى عشها الجديد، وهذا ينتج لها حق تسليتها.

(هـ) ونظراً لكونها زوجة طلبت للمتعة وجب عليه تحقيقاً لهذا المعنى  
أمران:

١- إعفافها بالمباشرة الجنسية.

٢- العدل فى القسّم إن اجتمعت عنده زوجات.

(و) ونظراً لكونها شريكة له فى بناء الأسرة، و مساعدة له على الحياة يجب أن يكون هناك تفاهم على الوسيلة التى يتحقق بها هذا الفرض، وهذا يعطيها حق المشاورة.

(ز) ونظراً لكونها محققة لرغباته المادية والمعنوية، مطيعة له فيما يريد منها، لأنه سعى إليها محتاجاً لها، وجب عليه أن يكافئها على ذلك بأمر ثلاثة:

١- الإنفاق عليها. ٢- الوفاء لها.

٣- الإحسان فى تطليقها عند الاستغناء عنها.

وبهذا التنظيم يتجمع لها ثلاثة عشر حقاً، أعتقد أنها هى أهم الحقوق الواجبة لها على الزوج، وما عداها يندرج فيها، أو ليس له من الأهمية ما لهذه الحقوق، والآن نشرع فى الكلام على كل حق منها بالتفصيل فى الفصول الآتية، وسيكون فى كثير منها تفريعات لازمة لتوفية الموضوع حقه إن شاء الله.

\* \* \*

## الفصل الأول

### المحافظة على شعورها

المحافظة على شعور الزوجة كلمة واسعة، يعبر عنها أحياناً بحسن الخلق، الذى هو أعم منها وأشمل، فهو ينتهي بآثاره ومظاهره، إلى حيث تنتهى كلمة «المعروف» في قوله تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] وفى قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ولكنى أقصد بهذا العنوان بعضاً من مظاهر حسن الخلق والمعروف، التى تتصل بضعف المرأة وجوانب الخير فيها. ومن أبرز هذه المظاهر ما يأتى:

١- صون اللسان عن رميها بالعيوب التى تكره أن تعاب بها، سواء أكانت خلقية لا تملك من أمر تغييرها شيئاً، كقصر ودمامة وغيرهما، أم خلقية لها دخل فيها، كتباطؤ فى إنجاز عمل، أو عدم إتقانه، أو ثرثرة ونحو ذلك، علماً بأن العيوب الخلقية خاصة كانت مقياس تقديرك لها عندما تقدمت لخطبتها، نزولاً على حكم الحب الذى تمكن من قلبك نحوها، فأعماك عن كثير مما صرت تعيبها به عند فتور هذا الحب، يقول الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليله      كما أن عين السخط تبدى المساويا

ومما يدل على كراهة الإسلام لهذا المسلك، وهو رميها بالعيوب - إلى جانب النصوص العامة التى تنهى عن السخرية واللمز والتنازب بالألقاب والاحتقار والسباب وغير ذلك من العيوب الخلقية - قوله ﷺ لمعاوية بن حيدة، عندما سألته عن حق الزوجة على الزوج «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا فى البيت»<sup>(١)</sup>. ومعنى «لا تقبح» لا تقل:

(١) رواه أبو داود وقال: حديث حسن - الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٩، رياض الصالحين، ص ١٤٢.

قَبَّحَكَ اللهُ . وقال الحافظ المنذرى بعد ذكر هذا الحديث : أى لا تسمعها المكروه،  
ولا تشتمها، ولا تقل : قبحك الله ونحو ذلك .

ومن المكروه الذى ينبغى ألا يسمعها إياه عيب أحد من أهلها بفقر أو جهل  
أو عدم حسب أو نسب أو دين أو خلق . وقد حدث أن فاطمة بنت عتبة بن  
ربيعة قالت لزوجها عقيل بن أبى طالب : تصير إلى وأنفق عليك . فكان إذا دخل  
عليها قالت : أين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ؟ « والدها وعمها ، وقد ماتا  
كافرين » فقال : على يسارك فى النار إذا دخلت . فشدت عليها ثيابها ، فجاءت  
عثمان فذكرت له ذلك ، فضحك وأرسل ابن عباس « من أهل عقيل » ومعاوية  
« من أهل فاطمة » ليحكما بينهما ، فوجداهما قد أغلقا عليهما الباب فرجعا<sup>(١)</sup> .  
واعيذك بالله أن تشتط فى كراهيتك لها ، فتبالغ فى رميها بالقبح ، خصوصاً  
عندما تشور أعصابك ، بسبب تصرفاتها ، أو بسبب آخر ، فتكون كالشاعر الذى  
هجا امرأته بقوله :

لها جسم برغوث وساقا نعامة	ووجه كوجه القرد بل هو أقبح
وتبرق عيناها إذا ما رأيتها	وتعبس فى وجه الضجيع وتكلح
لها مضحك كالحش تحسب أنها	إذا ضحكت فى أوجه القوم تسلح
وتفتح - لا كانت - فما لو رأيتها	توهمته باباً من النار يفتح
إذا عاين الشيطان صورة وجهها	تعوذ منها حين يمسى ويصبح

ذكرها ابن عبيد ربه فى العقد الفريد<sup>(٢)</sup> ، وزاد ابن قتيبة فى عيون  
الأخبار<sup>(٣)</sup> :

فما ضحكت فى الناس إلا ظننتها	أمامهم كلباً يهرُ وينبح
وقد أعجبتها نفسها فتملحت	بأى جمال - ليت شعرى - تملح

(١) تفسير ابن كثير: وإن خفتم شقاق بينهما .

(٢) ج ٢ ، ص ٧٩ .

(٣) ج ٤ ، ص ٣٤ .

وقال الشاعر «دعبل الخزاعي» في امرأة كبرت سنها، وقيل: كانت زوجته:  
يا من أشبهها بحمي نافض      قطاعة للظهر ذات زفير  
صدغاك قد شمطا ونحرك يابس      والصدر منك كجؤجؤ الطنبور  
يا من معانقها يبيت كأنه      في محبس قمل وفي ساجور  
قبلتها فوجدت لدغة ريقها      فوق اللسان كلسعة الزنبور  
وقال فيها أيضا:

الأم على بغضى لما بين حية      وضبع وتمساح تغشاك من بحر  
تحاكى نعيما زال في قبح وجهها      وصفحتها، لما بدت، سطوة الدهر  
هي الضربان في المفاصل خاليا      وشعبة برسام ضممت إلى النحر  
إذا سمرت كانت لعينيك سخنة      وإن برقت فالفقر في غاية الفقر  
وإن حدثت كانت جميع مصائب      موفرة تأتي بقاصمة الظهر  
حديث كقلع الضرس أو نتف شارب      وغنج كحطم الأنف عيل به صبرى  
وتفتت عن قلع، عدمت حديثها،      وعن جبلى طى وعن هرمى مصر<sup>(١)</sup>

حمى نافض = ذات رعدة. شمطا = شابا. جؤجؤ الطنبور = صدر المزمارة.  
ساجور = خشبة توضع في عنق الكلب. الضربان = ألم. سخنة = ضد القرعة. قلع  
= صفرة الأسنان.

٢- عدم إظهار النفور والأشمئزاز منها، خصوصاً إذا وجدت فيها صفات  
هي من صنع الله وحده، قضى بذلك عليها القدر، الذي وقفت حياله مستسلمة،  
وذلك كعقمها، أو مرضها مثلاً. وهذا مظهر للمحافظة على شعورها فوق المظهر  
الأول، وهو الإمساك عن رميها بالعيوب، وكيف تبيح لنفسك النفور منها وهي  
الحريصة على إرضائك والفوز بحبك وتقديرك لها، لكن الأمر ليس بيدها، بل بيد  
من اختار لها هذا الوضع لحكمة قد تخفى على كثير من العقول، لعل منها أن  
يكون ذلك اختباراً لحساسية الإيمان ومدى فهم واقع الحياة.

(١) مجلة مرآة الأمة الكويتية ١٧/٤/١٩٧٤، بقلم عبدالستار فراج.

ولمثل هذه الأمور عنى الشارع بالوصية بها حتى لا تخمد نار الحب التى هو روح الحياة الزوجية السعيدة، وحتى لا يكون من وراء ذلك فصم عُرا الزوجية. يقول لك الدين: انظر إلى زوجتك من زواياها المختلفة. وبكلتا عينيك لا بعين واحدة، فلعل صفات الخير فيها تخفف من حدة نفورك منها، فإن العقيم قد تكون عفة اللسان طاهرة، أو تكون صنّاعا ماهرة. ومثل هذه الصفات تفوق الجمال الحسى فى وزن المرأة المثالية، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، وقوله ﷺ «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضى منها آخر»<sup>(١)</sup>.

وكلمة «يفرك» ماضيها فرك بكسر الراء، ومضارعها بفتحتها، ومعناها يبغض، والأسلوب يقصد به النهي، لا الخبر.

قال لقيط بن صبرة، وكان فى وفد بنى المنتفق، يا رسول الله، إن لى امرأة وإن فى لسانها شيئاً - يعنى البذاءة - فقال له «فطلّقها إذا» قال: يا رسول الله، إن لها صحبة، وإن لى منها ولدأ، قال «فعظّمها، فإن يك فيها خير فستفعل، ولا تضرب ظعینتک ضربک لأمتک» رواه أصحاب السنن<sup>(٢)</sup>.

وإليك بعض نماذج طيبة فى هذا الموضوع:

ذكر الإمام الغزالى فى كتابه «الإحياء»<sup>(٣)</sup> أن بعض المريدين تزوج امرأة ذات جمال، فلما قرب زفافها أصابها الجدري، فاشتد حزن أهلها لذلك، خوفاً من أن يستقبحها زوجها، فأراهم أنه قد أصابه رمد. ثم أراهم أن بصره قد ذهب، حتى زفت إليه، فزال عنهم الهم، وبقيت عنده عشرين سنة، ثم توفيت ففتح عينيه، فقليل له فى هذا، فقال: تعمدت لأجل أهلها حتى لا يحزنوا. وهذا من نوادر المجاهدين لأنفسهم، المثاليين فى تصرفاتهم.

روى ابن أبى الزناد عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه قال: بينما عمر بن

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة. (٢) حياة الحيوان الكبرى - بهمة -

(٣) ج ٣. ص ٨٩.

الخطاب رضى الله عنه يطوف بالببيت إذ رأى رجلاً يطوف وعلى عاتقه امرأة مثل المهة، يعنى حسناً وجمالاً، وهو يقول:

عدت لهذى جملاً ذلولاً موطأ أتبع السهولاً

أعد لها بالكف أن تميلاً أحذر أن تسقط أو تزولا

أرجو بذاك نائلاً جزيلاً

فقال له عمر رضى الله عنه: يا عبد الله من هذه التى وهبت لها حجك؟ فقال: امرأتى يا أمير المؤمنين، وإنما حمقاء مرغامة أكل قمامة لا يبقى لها خامة. فقال له: مالك لا تطلقها؟ قال: إنها حسناء لا تفرك، وأم صبيان لا تترك، قال: فشأنك بها<sup>(١)</sup>.

والنهي عن إظهار النفور من الزوجة مما لا سبيل إلى التخلص منه هو امتداد للنهي عن إحدى صوره التى كانت عند اليهود قبل الإسلام. فقد كانوا يخرجون المرأة من المنزل إذا حاضت، لا يقربونها ولا يجتمعون معها، ولا يأكلون مما تعمل شيئاً.

ذكر القرطبي أن من قبائل العرب من كانت الحائض عندهم مبعوضة، فقد كان بنو سليح أهل بلد الحضر - وهم من قضاة - نصارى، إن حاضت المرأة أخرجوها من المدينة إلى الرىض حتى تطهر، وفعلوا ذلك بنصرة بنت الضيزن ملك الحضر، فكانت الحال مظنة حيرة المسلمين فى هذه الأمر، وتبعث على السؤال عنه ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٌ ﴾.

وفى بعض الكتب: كان العرب يقولون، إن الولد الذى تحمل به أمه عقب الحيض مباشرة غير محمود، وقال أبو كبير الهذلى:

ومبرأ من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء معضل

(١) الأحكام السلطانية للماوردي، ص ٢٥٠، العقد الفريد وج ٢، ص ٨٤، وحياة الحيوان - مها، ج ٢، ص ٢٩١.

غَبْر الحِيضَة = جمع غَبْرَة، ويجمع على غُبْر، وهي آخر الشيء (١).

وفهم المسلمون أولاً وجوب اعتزال النساء في الحيض على هذه الصورة، حتى جاء أبو الدحداح في نفر من الصحابة فقالوا: يا رسول الله، البرد شديد والثياب قليلة، فإن آثرنا هن هلك سائر أهل البيت، وإن استأثرنا بها هلكت الحيض فقال «إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن» وإليك نص الحديث الذي رواه مسلم (٢): عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهم في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فقال رسول الله ﷺ «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله، اليهود تقول كذا وكذا، فلا نجامعن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من اللبن إلى النبي ﷺ فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يجد عليهما (٣).

لقد قال اليهود: إن أي شيء تمسه الحائض ينجس، ويجب غسله، فإن مس لحم القربان أحرق بالنار، ومن مسها أو مس شيئاً من ثيابها وجب عليه الغسل، وما عجنته أو طبخته أو غسلته فهو نجس حرام على الظاهرين حل للحيض (٤).

ولو أردت أن تعرف مقدار تخرجهم منها فاقراً سفر اللاويين «اصحاح ١٥» كله، ففيه حديث طويل عن الدم، وفيه أنها بعد سبعة أيام من انقطاع حيضها تقرب يمامتين أو فرخى حمام للكاهن، فيعمل الكاهن الواحد ذبيحة خطية والآخر محرقة، ويكفر عنها الكاهن أمام الرب من سيل نجاستها.

(١) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور.

(٢) ج ٣، ص ٢١١.

(٣) وأخرجه أحمد - تفسير ابن كثير، ص ٣٧٧. (٤) خطط المقرئ، ج ٤، ص ٣٧٣.

والمرأة فى الهند إذا حملت تنبذ فى غرفة ضيقة مظلمة، ولا يقترب منها أحد، لأنها أصبحت نجسة، وتفصيل ما تقاسيه من معاملة شاذة مذكور فى بحث الحجاب .

أين هذا من معاملة الإسلام للمرأة لو كانت حائضاً؟ تقول السيدة عائشة رضى الله عنها: كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فمى فيشرب . وأتعرق العرق - العظم الذى عليه بقية من لحم - وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على فمى . وتقول أيضاً: قال لى رسول الله ﷺ «ناولينى الحُمرة - السجادة - من المسجد» قالت: فقلت: إني حائض، فقال «إن حيضتك ليست فى يدك» رواه مسلم<sup>(١)</sup> وتقول ميمونة أم المؤمنين: كان رسول الله ﷺ يضطجع معى وأنا حائض، وبينى وبينه ثوب . رواه مسلم<sup>(٢)</sup> . وكذلك ورد فى مسلم مثل هذا عن أم سلمة . قال النووى تعليقاً على ذلك: قال العلماء: لا تكره مضاجعة الحائض ولا قبلتها ولا الاستمتاع بها فيما فوق السرة وتحت الركبة، ولا يكره وضع يدها فى شىء من المائعات، ولا يكره غسل رأس زوجها من محارمها وترجيله، ولا يكره طبخها وعجنها وغير ذلك من الصنائع، وسؤرها وعرقها طاهران، وكل هذا متفق عليه . اهـ .

أما ما رواه أبو داود عن عائشة أنها إذا حاضت نزلت عن المئال - الفراش على الحصير - فلم تقرب رسول الله ﷺ ولم تدن منه حتى تطهر، فمحمول على التنزه والاحتياط، ذكره ابن كثير<sup>(٣)</sup> .

\* **تكملة:** لما حاضت عائشة بسرف وهى خارجة للحج، قال لها النبي ﷺ «إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم»<sup>(٤)</sup> . وفى شرح الشرقاوى على الزبيدى: روى الحاكم بسند صحيح من حديث ابن عباس أن ابتداء الحيض كان على حواء

(٢) ج ٣، ص ٢٠٦ .

(١) ج ٣، ص ٢٠٩، ٢١٠ .

(٤) رواه البخارى - الزبيدى، ج ١، ص ١٧١ .

(٣) ص ٣٧٩ .

بعد أن أهبطت من الجنة ا.هـ. وذكر ابن جرير الطبري بسنده قال: قال أبو يزيد بعد ذكر أكل آدم من الشجرة وأن حواء هي التي أغرته: قال تعالى: إن عليّ أن أدميها في كل شهر مرة، وأن أجعلها سفيهة، فقد كنت خلقتها حليمة، وأن أجعلها تحمل كرها وتضع كرها، فقد كنت جعلتها تحمل يسرا وتضع يسرا<sup>(١)</sup>.

وجاء في كشف الغمة للشعراني<sup>(٢)</sup>: كان أنس بن مالك رضى الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أخبرني جبريل عليه السلام أن الله عز وجل بعثه إلى أمنا حواء حين دميت، فنادت ربها: جاءني دم لا أعرفه، فنادها: لأدمينك وذريتك كما قطعت من الشجرة وأدميتها، ولأجعلنه لك كفارة وطهورا». وجاء هذا الحديث في الجامع الكبير للسيوطي من رواية الدارقطني في الأفراد عن عمر رضى الله عنه<sup>(٣)</sup>.

وتقدم في بحث الحجاب «ص ٢١» عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال الله تعالى لآدم: يا آدم، ما حملك على أن أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: فاعتل آدم، فقال: يارب زينته لى حواء، قال: فإني عاقبتها بألا تحمل إلا كرها، ولا تضع إلا كرها، ودميتها في كل شهر مرتين، قال: فرئت - حاضت - حواء عند ذلك، ف قيل لها: عليك الرئة وعلى بناتك. أخرجه أحمد بن منيع. وقال ابن حجر: موقوف صحيح الإسناد<sup>(٤)</sup>.

ويقال: إن حيض حواء كان يوم الثلاثاء. روى عن أنس أن النبي ﷺ سئل عن يوم الثلاثاء فقال «يوم الدم، فيه حاضت حواء، وفيه قتل ابن آدم أخاه» ذكره الدميري ولم يخرج<sup>(٥)</sup>. ويقال: إن حيض حواء كان غما لقتل ابنها لأخيه. يقول الشرقاوى بعد ذكر حديث الحاكم: ولا ينافيه ما روى عن عائشة وابن

---

(١) أحكام المرجان للمحدث القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الله الشبلي الحنفى المتوفى سنة ٧٦٩هـ.

(٢) ص ٨١. (٣) ج ١، ص ٢٥٥، برقم ١٦ / ٧٧٤ طبعة الأزهر.

(٤) المطالب العالية، ج ١، ص ٥٩. (٥) مادة غراب.

مسعود: كان أول ما أرسل الحيض على بنى إسرائيل . لأن المراد أن الذى أرسل عليهن ظهوره وطول مكثه، عقوبة لنسائهم . كما روى عن ابن مسعود: كان الرجال والنساء في بنى إسرائيل يصلون جميعاً، فكانت المرأة تستشرف إلى الرجل، فألقى الله عليهن الحيض، ومنعهن المساجد<sup>(١)</sup>، وقيل: لأن الله قطع عن نسائهم الحيض عقوبة لهم لكثرة عنادهم، ومضى على ذلك مدة، ثم رحمهم الله وأعاد حيض نسائهم، فكان ذلك أول الحيض بالنسبة لمدة الانقطاع . وأجاب في المصابيح بالحمل على أن المراد بإرسال الحيض إرسال حكمه، بمعنى كونه مانعاً . فابتدأ بالاسرائيليات . وحمل الحديث على قضاء الله على بنات آدم بوجود الحيض .

هذا، وقد روى النسائي أنه صلى الله عليه وسلم قال «إن ابنتى فاطمة حوراء آدمية لم تحض ولم تطمث» ولذلك سميت الزهراء، أى الطاهرة، فإنها لم تردماً، لا فى حيض ولا فى ولادة، وكانت تطهر فى ساعة الولادة وتصلى، فلا يفوتها وقت . قاله صاحب الفتاوى الظهيرية الحنفى والمحب الطبرى<sup>(٢)</sup> .

#### \* عجيبة:

ذكر ابن قتيبة فى كتابه «تأويل مختلف الحديث» أن المرأة الطامث تدنو من اللبن لتسوطه - تخلطه - وهى منظمة الكف والثوب فيفسد اللبن . وقد تدخل البستان فتضر بكثير من الغروس فيه من غير أن تمسها<sup>(٣)</sup> .

وجاء فى كتاب «محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني»<sup>(٤)</sup> تعليل لأثر الحسد بالعين بأنه بخار ينفصل من العين والجوف فيدخل فى المعيون . ولهذا كره الأكل بين يدي السباع والكلب والسنور، بل يرمى لها ليشغلها عن النظر، وقالوا: ومثل تأثير العائن فى المعيون نظر الرجل إلى العين المحمرة فتحمر عينه، والطامث تدنو من إناء اللبن لتسوطه فتفسده .

(١) رواه الطبراني فى الكبير برجال ثقات عن عبد الله «المطالب العالية»، ج ١، ص ١٠٨ .

(٢) رسالة الصبان فى آل البيت على هامش مشارق الأنوار للعدوى، ص ١٦٢ .

(٣) مرآة النساء، ص ٢٣ . (٤) ج ١، ص ٢٠٠ .

ولعل مما يفسر هذه الظواهر ما نشرته مجلة «الحوادث» اللبنانية بتاريخ أول نوفمبر ١٩٧٤، ص ٦٩: أن المجلة الطبية البريطانية «ذى لانسيت» أى الموضع، ذكرت القصة التالية:

«تسلم أحد الأطباء باقة زهور، فأمر المريضة بوضعها فى الماء، فامتنعت، ثم أرغمها على وضعها، وبعد بضع ساعات ذبلت الزهور، وأخبرت المريضة الطبيب بأن هذا سبب امتناعها عن وضعها فى الماء، فإن الزهور تذبل كلما مستها وهى حائض».

والتفسير العلمى لذلك هو أن جلد المرأة الحائض يفرز مادة تسمم النبات. ويعتقد بعضهم أن هذه المادة شبيهة بمادة «أوكسيخولسترين». وزعم بعض الأطباء أيضاً أنهم لاحظوا ظاهرة غريبة لدى بعض النساء وقت الحيض، وهى أن جلد الأصابع يكتسى ببقعة سوداء تحت محبس الزواج (كذا) ولاحظوا أيضاً أن المرأة المنقبضة النفس قد تفرز مادة خاصة مضرّة للأزهار أيضاً. وصدق الله العظيم ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٌّ فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ولعل مما يقرب من هذا ما قامت به جامعة شمال كارولينا الأمريكية من دراسات أثبتت فيها أن الإنسان المدخن يؤثر على الطماطم، فإنه إذا لمس الثمرة أو شجرتها يصيبها بفيروس اسمه «فسيفساء الطماطم» وأعراضه هى: ذبول الأوراق وتغير لونها من الأخضر إلى البنى وضعف الشجرة ثم قتل الشجرة نهائياً، وأوصت الجامعة بغسل أيدي العاملين فى زراعة الطماطم غسلًا جيداً وتطهيرها قبل لمس الثمر والشجر، مع عدم التدخين نهائياً أثناء عملهم<sup>(١)</sup>.

إن هذا التفسير يوضح لنا معنى الأذى فى الحيض الذى ورد فى القرآن الكريم. وقد يكون لليهود عذرهم فى التحرز من مخالطة الحائض. وإذا كان النبى ﷺ خالفهم وأباح ما عدا النكاح فقد يكون المراد منه عدم إظهار النفور والاحتقار للمرأة فى معاشرتهم لها وهى حائض، أو أى شىء آخر.

(١) الأهرام ١٢/٢/١٩٧٤.

جاء في كتاب «عجائب المخلوقات» للقرظيني<sup>(١)</sup>، أن الحائض إذا كشفت عن سرتها انقشع السحاب وإذا استلقت في أرض يخاف عليها البرد سلمت من ضرره، وإذا دنت من الرياض والأشجار فسدت، وإذا مرت في المقتاة تصير القشاء مُرّة، وإذا نظرت في المرآة تكدرت، وإذا وطئها الرجل يصير بليداً وينقص من نشاطه وطراوته وحسنه، وإذا مست المصروع سكن صرعه، وإذا وطئت سلخ الحية ماتت تلك الحية، وإذا رعت الغنم لم يقربها الذئب، ولو دنا منها يوجع بطنه. وخرقة حيضها إذا شدت على مؤخرة السفينة تأمن من الريح المخالفة.

هذا بعض ما قيل عن الحيض وأثره، وهو يحتاج إلى تفسير علمي يؤكد ما أثبتته بعض التجارب أو الملاحظات المتوارثة.

٣- من مظاهر المحافظة على شعور الزوجة عدم ذكر محاسن غيرها من النساء أمامها بقصد إغاظتها، فليس أقتل للمرأة من جرح شعورها في ناحية تظن - إن لم تعتقد - أنها تربعت بواسطتها على عرش الجمال أو الكمال.

على أن ذكر محاسن النساء يشتد وقعه إذا كان الخصم هو الضرة التي تنازعها قلب الزوج وماله وجسده، فلا ينبغي أن يقع الزوج في هذا، اللهم إلا إذا كان وسيلة لتأديبها أو الحد من كبريائها، فإنه يكون حينئذ علاجاً لا حرج منه، ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة وما رأيتها قط، ولكن كان يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فرما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول «إنها كانت وكانت.. وكان لي منها ولد»<sup>(٢)</sup>، وسيأتي ذلك في الفصل الثاني عشر.

ثم انظر إلى هذه الكلمة الطيبة التي ألقاها عتبة بن أبي سفيان على مسامع عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان لما خطب إليه بنته، وكان حدثاً، فأجلسه على

(١) على هامش حياة الحيوان للدميري، ج ٢، ص ٢١٠.

(٢) رواه البخاري ومسلم - رياض الصالحين، ص ١٦٤.

فخذه وقال له فيما قال: قد زوجتكها وأنت أعز على منها، وهي الصق بقلبي منك، فأكرمها يعذب على لساني ذكرك، ولا تهنها فيصغر عندي قدرك، وقد قربتك مع قريبك، فلا تبعد قلبي من قلبك<sup>(١)</sup>.

٤- من مظاهر المحافظة على شعورها حفظ سرها، خصوصاً ما كان متعلقاً بالناحية الجنسية، فإن الرسول ﷺ تحدث عن ذلك بقوله «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها»<sup>(٢)</sup> وفي رواية «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها» وفي رواية «إن أعظم...».

يقول النووي في تعليقه على هذا الحديث: فيه تحريم إفشاء الرجل ما يجرى بينه وبين امرأته من أمور الاستمتاع ووصف تفاصيل ذلك، وما يجرى من المرأة فيه من قول أو فعل ونحوه، فأما مجرد ذكر الجماع فإن لم تكن فيه فائدة ولا حاجة فمكروه، لأنه خلاف المروءة، وقد قال ﷺ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»<sup>(٣)</sup>. وإن كانت إليه حاجة أو ترتب عليه فائدة، بأن ينكر عليه إعراضه عنها، أو تدعى عليه العجز عند الجماع أو نحو ذلك فلا كراهة في ذكره، كما قال ﷺ «إني لأفعله أنا وهذه» وقال ﷺ لأبي طلحة وأم سليم «أعرستم الليلة؟» وقال جابر «الكيس الكيس» والله أعلم.

ومعنى «أعرستم» في هذا الحديث «الوطء» والفعل أعرَسَ. وقيل: إنَّ عرَسَ خطأ في إرادة الوطء منه، بل يقصد به النزول آخر الليل للمسافر، وقيل: يجوز أن يقصد بالتعريس الوطء. والحديث متفق عليه عن أنس<sup>(٤)</sup>.

وإلى جانب هذا الحديث في ستر الأمور الجنسية وما يحصل منها بين الزوجين حديث أسماء بنت يزيد بن السكن خطيبة النساء ووافدتهن، فقد ورد أنها كانت عند رسول الله ﷺ والرجال والنساء قعود عنده، فقال «لعل رجلاً

(١) العقد الفريد، ج ٢، ص ١٠٤.

(٢) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري. ويقول الألباني: إنه ضعيف وهو مما انتقده العلماء

على مسلم وقد رواه أيضاً أحمد وأبو داود.

(٤) رياض الصالحين - باب الصبر.

(٣) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

يقول ما فعل بأهله، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها « فأرّم القوم - سكتوا - فقلت: أى والله يا رسول الله. إنهم ليفعلون، وإنهن ليفعلن. قال « فلا تفعلوا، فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقى شيطانة فغشيها والناس ينظرون » رواه أحمد عن شهر بن حوشب.

وروى البزار مثله عن أبى سعيد الخدرى، وله شواهد تقويه<sup>(١)</sup>. كما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال « السباع حرام »<sup>(٢)</sup>. قال ابن لهيعة: يعنى به الذى يفتخر بالجماع. وأصل السباع الفخار بكثرة الجماع، وقيل هو الجماع، وقيل كثرته « النهاية لابن الأثير ».

ومحل وجوب الستر ما لم يكن هناك داع كما ذكره النووى من قبل، فإن امرأة ادعت أن زوجها عاجز عن إتيانها فقال للنبي ﷺ « إني لأنفضها نفص الأديم »<sup>(٣)</sup>.

ومما يذكر فى هذا المجال من الأمثلة الطيبة أن بعض الصالحين أراد أن يطلق امرأته، فقيل له: لم طلقنها؟ فقال: مالى ولا امرأة غيرى؟<sup>(٤)</sup>.

وقيل لسليمان، كيف وجدت امرأتك؟ قال: ولم أرخينا الستر إذا؟<sup>(٥)</sup>.

كما أن من الأمثلة غير الطيبة ما حدث من مروان بن الحكم مع زوجته عاتكة بنت هاشم بن عتبة بن ربيعة أم خالد بن يزيد بن معاوية، فإنه قد سب ولدها بها قائلاً: يا بن رطبة الإست. فقال له خالد: أنت مؤتمن خائن، وشكاً لأمه ما قال له، فقالت: لا عليك، فإنه لن يعود إليك بمثلها. فلبث مروان أياماً، فلما دخل عندها قتلته خفية<sup>(٦)</sup>. وتفصيل قتله مذكور فى « أسد الغابة » ترجمة مروان، وأشار إليها مجملة الدميرى فى كتابه « حياة الحيوان »<sup>(٧)</sup>.

(١) الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٢٨.

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى والبيهقى كلهم عن أبى سعيد الخدرى، وقد صححها غير واحد.

(٣) فقه السنة. (٤) الإحياء، ج ٢، ص ٥٢.

(٥) محاضرات الأصبهاني، ج ٢، ص ١٢٤. (٦) النجوم الزاهرة، ج ١، ص ١٦٩، ١٧٠.

(٧) ج ١، ص ٧٨.

وقيل: اسمها فاختة لا عاتكة. وقيل: إن عبد الملك أراد قتلها، فبلغها ذلك فقالت: أما إنه أشد عليك أن يعلم الناس أن أباك قتلتها امرأة، فكف عنها<sup>(١)</sup>.

٥- ومن المحافظة على شعورها نداؤها بلفظ فيه تكريم، كندائها باسمها الحقيقي، أو بلقب أو كنية جميلة، والعرف له دخل كبير في تحديد هذه النداءات، ولكل عصر لغته، ولكل بيئة تقاليدها، فإن بعض البيئات تستهجن أن تنادى المرأة بلفظ «يا امرأة» والبعض لا يستهجن ذلك أبداً.

٦- ومن ذلك أن يلقي عليها السلام عند دخول البيت ليؤنسها، أو ليطمئنها على أن ما تعرض له من مضايقات خارج المنزل لا يؤثر على حبه لها أو احترامه لشعورها، ففي الحديث عن أنس عن النبي ﷺ «يا بنى، إذا دخلت على أهلك فسلم يكن سلامك بركة عليك وعلى أهل بيتك»<sup>(٢)</sup>.

٧- وكذلك من المحافظة على شعورها سلوكه الحسن، سواء في النواحي المادية أو المعنوية، فإن الزوجة تحس بارتياح واعتزاز عندما ترى زوجها على ما تحبه له، وتتألم عندما لا يكون كذلك. وهذا باب واسع لا مجال للحديث عنه هنا. وقد قال العلماء: إن مما يسرها أن يكون الرجل معنياً بمظهره وهندامه، تسر لرؤيته جميلاً في ذاتياته وأعراضه، والنساء يردن من الرجال ما يريد الرجال منهن من هذه الناحية. وكان الإمام محمد المتوفى سنة ١٨٩هـ، يلبس الثياب النفيسة ويقول: إن لى نساء وجوارى، فأزين نفسى كيلا ينظرن إلى غيرى. وقال ابن عباس: أحب أن أزين لزوجتى، كما أحب أن تزين لى<sup>(٣)</sup> وقال عمر: تصنعوا لنسائكم، فإنهن يحببن منكم ما تحبون منهن<sup>(٤)</sup>. ولهذه النقطة توضيح سيأتى فى الباب الثانى إن شاء الله.

٨- وإذا كان الإسلام ينهى عن جرح شعورها بالقول فإنه ينهى عن ضربها بالأولى كما سيتضح بعد.

\* \* \*

---

(١) أعلام النساء. (٢) رواه الترمذى وصححه - حسن الأسوة.  
(٣)، (٤) تفسير القرطبي، ج ٣، ص ١٢٤، عيون الأخبار، ج ٤، ص ١١، وغذاء الألباب، ج ٢، ص ٣٢١.

## الفصل الثانى

### تحمل أذاها

وهذا الخلق أعظم مظهر لحسن عشرتها بالمعروف، وأعلى نقطة تصل إليها رحمته بالجانب الضعيف منها، وكياسته فى جانب الحدة والشدة التى تسيطر عليها، فحسن المعاشرة له طرفان، طرف سلبى وطرف إيجابى، والطرف السلبى هو الحد الأدنى، أما الإيجابى فهو يتفاوت تدرجاً، فالطرف السلبى إمساك عن إيذائها، وتحمل لأذاها، والإيجابى ما يكون وراء ذلك من تسلية وإنفاق ومشورة وغير ذلك. وهذا التحمل فى الحقيقة هو المحك القوى الذى يختبر به مدى ما عند الرجل من ضبط النفس وقوة الإرادة، وتلك هى المجاهدة التى تقتضى شجاعة يصمد بها الزوج أمام كل المثيرات.

والأذى الذى ندب الشرع إلى احتماله هو ما لا يمس الدين أو يخدش الكرامة، فهما أعز ما يحرص عليه الرجل الحرفى هذه الحياة. وكثير من النساء يندفعن لأتفه الأسباب، تستفزهن كلمة وتثيرهن إشارة، ولو أراد الزوج أن يناقش زوجته الحساب، أو يكيل لها بالكيل نفسه لصرفه ذلك عن رسالته الأصلية، كرجل سلّم إليه الزمام فى داخل البيت وخارجه، ولو تحكّم فيه الغضب واستبد به حب الانتقام لأدى ذلك فى غالب الأحيان إلى طلاقها أو ارتكاب أمر شديد معها.

على أن مما يخفف وقع أذاها على نفس الرجل عدم الغفلة عن أن النساء قد صبت عواطفهن فى قالب واحد لا يختلف فى جوهره وإن تغير فى شكله أو

حجمه، ٣، وهن في ذلك الشكل على درجات، وناهيك بزوجات النبي ﷺ، وقد أحسن اختيارهن، وأدبهن بأدب النبوة، فعندهن من العوامل الذاتية والكسبية ما يرشحن ليكن مثاليات في كل شيء، ومع ذلك فالعصمة من بعض الهفوات ليست من حظ كل البشر مهما كانت درجاتهم.

لقد كن يتحزبن ضد رغبته في حبه لعائشة، أو مكثه عند زينب قليلاً ليشرب العسل، واجتمعن على شكل مؤتمر قررن فيه محاولة صرفه ﷺ عن حبه الشديد لعائشة، وحملن قرارهن فاطمة بنته لعله ينزل على مقتضاه وبعد عدة سفارات تقوم بها بينه وبينهن تشترك فيها زوجته زينب، ينهاهن عن إيذائه في حبه، كما هو مفصل في مبحث تعدد الزوجات، على ما رواه مسلم وغيره<sup>(١)</sup>.

وكانت السيدة عائشة إذا غضبت منه هجرت اسمه، حتى إذا حلفت قالت: ورب إبراهيم، بدل أن تقول: ورب محمد. وقد تنبه ﷺ لهذا، ولما أخبرها أقرته، كما رواه البخاري ومسلم<sup>(٢)</sup>.

روى الشيخان<sup>(٣)</sup> أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما دخلا على النبي ﷺ وحوله نساؤه وهو واجم ساكت. فقال أبو بكر: لأقولن شيئاً أضحك به رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة - زوجته - سألتني النفقة فقلت إليها فوجأت - كسرت - عنقها، فضحك رسول الله ﷺ وقال «هن حولي كما ترى يسألنني النفقة» فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول ﷺ ما ليس عنده؟ فقلن: والله لا نسأل رسول الله شيئاً ليس عنده. ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين. ثم نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتَعِكُنَّ وَأَسْرَحِكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

(١) ج ١٥، ص ٢٠٥. (٢) الزبيدي، ج ٣، ص ٢٥٦، ومسلم ج ١٥، ص ٢٠٣.

(٣) البخاري، طبعة الشعب، ج ٧، ص ٣٧، ٣٨، ومسلم، ج ١٠، ص ٨١.

وفى رواية لمسلم<sup>(١)</sup> أن عمر رضى الله عنه قال: والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم، فبينما أنا فى أمر أتتته إذ قالت لى امرأتى: لو صنعت كذا وكذا! فقلت لها: ومالك أنت ولما هنا، وما تكلفك فى أمر أريده؟ فقالت لى: عجباً لك يابن الخطاب!! ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك - حفصة - لتراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان. قال عمر: فأخذ ردائى ثم أخرج مكانى حتى أدخل على حفصة، فقلت لها: يابنية، إنك تراجعين رسول الله حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه، فقلت: تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله، يا بنية لا تغرنك هذه التى قد أعجبها حسننها وحب رسول الله إياها... وقال: والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك، ولولا أنا لطلقتك.

وفى بعض رواياته أن عمر لما دخل على النبى ﷺ بعد ذلك قال: الله أكبر، والله لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً تغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا أقواماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم، فغضبت يوماً على امرأتى، فإذا هى تراجعنى، فأنكرت أن تراجعنى، فقالت: ما تنكر أن أراجعك، فوالله إن أزواج النبى ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل.

وأخرج عبد الرزاق فى مصنفه عن جابر بن عبد الله أنه جاء إلى عمر يشكو إليه ما يلقاه من النساء. فقال عمر: إنا لنجد ذلك، حتى إنى لأريد الحاجة فتقول لى: ما تذهب إلا إلى فتيات بنى فلان - فى العقد الفريد: قيان بنى عدى - تنظر إليهن، فقال له عبد الله بن مسعود: أما بلغك أن إبراهيم عليه السلام شكاه إلى الله خلق سارة، فقيل له: إنها خلقت من ضلع. فالبسها على ما كان منها. ما لم تر عليها خربة فى دينها<sup>(٢)</sup>.

(١) ج ١٥، ص ٨٥.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص ٩٦، العقد الفريد، ج ٣، ص ٢٠١.

وجاء في المطالب العالية<sup>(١)</sup>: أخرج الدولابي عن أبي أسامة، بإسناد لا بأس به، أن عمر سأل جرير بن عبد الله عن معاملته لنسائه، فذكر من غيرتهن واتهامهن له إذا خرج لحاجة أنه ذهب إلى ضرتهن. فقال عمر: إن كثيراً منهن لا يؤمن بالله ولا يؤمن للمؤمنين، ولعل أحداً ما يكون في حاجة بعضهن، أو يأتي السوق فيشتري الحاجة لبعضهن فيتهمنه. فقال ابن مسعود: أما علمت أن إبراهيم خليل الرحمن شكاً إلى الله دَرناً - سوءاً - في خلق سارة، فقال له: إن المرأة كالضلع، إن تركتها اعوجت، وإن قومتها كسرت، فاستمتع على ما فيها، فضرب عمر بين كتفي ابن مسعود وقال: لقد جعل الله في قلبك يا ابن مسعود من العلم غير قليل. اهـ.

ومما حكى أن امرأة رأت على كتف زوجها شعرة سوداء وهو عائد من الخارج، فقالت له في اتهام: لقد كانت رفيقتك الليلة ذات شعر أسود فمن هي؟ وفي الليلة التالية وجدت على كتفه شعرة بيضاء، فقالت: لقد كانت رفيقتك الليلة عجوزاً فما هي؟ وفي الليلة الثالثة اجتهد ألا تكون على كتفه شعرة، فقالت له، عندما لم تر أثراً لشعر، لقد كانت رفيقتك الليلة «قرعة». والمغزى أنها متهمة له على أي حال، حتى لو لم تكن هناك بينة أو دليل. ومن الأحاديث في تحمل أذاها ما رواه الشافعي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وأصحاب السنن الأربعة من حديث لقيط بن صبرة في وفد بني المنتفق إلى الرسول ﷺ، حيث قال له: إن لي امرأة وإن في لسانها شيئاً - يعنى البذاءة - قال: «فطلقها إذن» قلت: يا رسول الله إن لها صحبة، وإن لي منها ولداً، قال: فعظها. فإن يكن فيها خير فستفعل، ولا تضرب ظعنيتك ضربك لأمتك» من كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري - مادة بهمة .

وقد ذهب رجل إلى عمر يشكو خلق امرأته، فوقف ببابه ينتظر خروجه، فسمع امرأته تستطيل عليه بلسانها وهو ساكت لا يحير جواباً، فانصرف الرجل

(١) ج ٢، ص ٢٥.

قائلاً: إن كان هذا أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالى؟ فخرج عمر فرآه مولياً، فناده وقال: يا هذا ما حاجتك؟ فقص عليه الرجل ما كان. فقال له عمر - ناصحاً - يا هذا إنى أحتملها لحقوق لها على، إنها طباحة لطعامى، خبازة لخبزى، مرضعة لولدى، ويسكن بها قلبى عن الحرام، فقال الرجل: وكذلك زوجتى يا أمير المؤمنين. فقال له عمر: إذا فاحتملها فإنها مدة يسيرة - يريد مدة الحياة - (١). وقد تقدم لك حديث « لا يفرك مؤمن مؤمنة... ».

وقد بلغ ببعض الصوفية أنه تزوج امرأة سيئة الخلق، فكان يصبر عليها، فقيل له: لم لا تطلقها؟ فقال: أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها (٢).

ونقل ابن العربى أن رجلاً من الصالحين اسمه أبو محمد بن أبى زيد كانت له زوجة سيئة العشرة، تقصر فى حقوقه وتؤذيه بلسانها، فيقال له فى أمرها ويقول فى الصبر عليها، فكان يقول: أنا رجل قد أكمل الله على النعمة، فى صحة بدنى ومعرفتى وما ملكت يمينى، فلعلها بعثت عقوبة على ذنبى، فأخاف إن فارقتها أن تنزل بى عقوبة هى أشد منها (٣).

وكانت « زانتيبى » - قد تنطق جزانتيب - زوجة سقراط تكره الفلسفة، جاءه زائر ليتحدث معه فقال له: اخفض صوتك حتى لا تسمعنا زانتيبى فتثور علينا، فإنها تكره الفلسفة، ولعل أساس هذه الكراهية انصرافه عنها بفلسفته وعدم الإحساس باهتمامه بها كزوجة.

دخلت عليه مرة وهو شاخص ببصره إلى السماء وغارق فى التفكير فنادته فلم يرد عليها، فأوسعته سباً وشتماً بصوت عال، فلم يفق من سكرة الفكر إلا عندما سكبت عليه جرة ماء، أتدرى ماذا كان جوابه؟ لقد قال فى هدوء: ما زلت تبرقين وترعدين فلم تسكنى حتى أمطرت (٤).

(١) مجلة نور الإسلام، عدد رمضان ١٣٦٨ هـ. (٢) الإحياء، ج ٣، ص ٨٩.

(٣) تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٩٨. (٤) انظر مجلة العربى، مارس ١٩٧١.

إن الزوج إذا لم يضبط نفسه للمضايقات التي يراها من زوجته قد يؤدي به الغضب إلى إجراء قاس يندم عليه بعد أن تهدأ أعصابه . وفي حادث أوس بن الصامت مع خولة بنت ثعلبة عبدة، فقد أراد منها ما يريد الرجل من زوجته فامتنعت، ولعلها كانت لها وجهة نظر في ذلك، فقال لها: أنت علي كظهر أمي، وكان به لم، فندم على ذلك، وكان ما كان مما هو مذكور في أول سورة المجادلة، وهي قصة رواها بأسانيد أهل السنن<sup>(١)</sup>.

وأرى من الخير إذا رأى الزوج من زوجته ما يغضبه أن يسارع إلى إغلاق باب المناقشة معها، حتى لا تتأزم الأمور، ويساعد على ذلك هجر المكان إلى مكان آخر إلى حين، فإن تغيير الجو يؤثر في تغيير الحالة النفسية . وذلك ما كان يلجأ إليه النبي ﷺ والعقلاء من أمته . وقد تقدم لك اعتزاله في المشربية لنسائه، وأخرج الشيخان خبر مغاضبة فاطمة لعلی وخروجه للقيلولة في المسجد، واستعطاف النبي له وتكنيته أبا تراب<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان الإسلام يأمر الزوج بتحمل أذى زوجته فإنه ينهاه بالتالي عن ضربها لأسبابه تافهة، أو لأخطاء يمكن إصلاحها بغير هذه الوسيلة، التي هي مظهر من مظاهر التسلط على المرأة والقسوة في معاملتها التي تشتد بصورة بالغة، كما عند سكان هضبة التبت أو همج القدماء من اليونان والرومان، وكانت قريش تمارسه في الجاهلية، كما يحكيه عمر في الحديث السابق لرسول الله ﷺ .

والضرب ينفر الزوجة من الزوج، وإذا عرف به الرجل لا ترضى به النساء زوجاً، فعندما استشارت فاطمة بنت قيس رسول الله ﷺ في خطبة معاوية وأبي جهم لها، قال عن أبي جهم « لا يضع العصا عن عاتقه » وفي رواية « وأما أبو جهم فرجل ضراب للنساء »<sup>(٣)</sup> . والحديث بتمامه مذكور في بحث اختيار الزوجين .

(١) زاد المعاد، ج ٤، ص ١٤٥، الزرقاني على المواهب، ج ٢، ص ٢١٢ .  
(٢) البخاري - طبعة الشعب، ج ٨، ص ٧٧، والزبيدي، ج ٢١٢، الزرقاني على المواهب، ج ١، ص ٣٩٥ .  
(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

وقد نهى النبي ﷺ عن ضرب النساء، فعن إياس بن عبد الله بن أبي دياب قال: قال رسول الله ﷺ « لا تضربوا إماء الله » فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: النساء ذئرن على أزواجهن - اجترأن عليهم - فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن، فأطاف - أحاط - بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ « ولقد أطاف بآل بيت محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم » (١).

وتظهر الحكمة في عدم ضربهن من قوله ﷺ « يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد البعير، فلعله يضاجعها من آخر يومه » (٢). ذلك أن الضرب ينفر القلوب ويباعد بين انسجام الزوج مع زوجته، وهو غير مستغن عنها وعن التمتع بها، ذلك التمتع الذي لا يكمل إلا بالرضاء والقبول. فليبق لنفسه مكاناً يحتل به قلب زوجته، فلا يسرف في ضربها، أو يتعسف في مؤاخذتها.

والضرب لا يلجأ إليه إلا إذا تعين وسيلة للتأديب بعد إفلاس الوسائل الأخرى. وحينئذ يرخص فيه الشرع، على ما سيأتى بيانه عند الحديث عن تأديبها. والنبي ﷺ كان لا يلجأ إلى ضرب إحدى زوجاته إلا عند الضرورة، ومع ذلك كان خفيفاً ليناً كما أوصى، بل كان يكف غيره عن هذا الضرب رحمة بهن. أخرج الطبراني في الأوسط والخطيب في التاريخ عن عائشة أنه جرى بين رسول الله ﷺ وعائشة كلام، حتى أدخل بينهما أبا بكر حكماً، واستشهدا فقال رسول الله ﷺ « تكلمينه أو أتكلم »؟ فقالت: بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقاً. فلطمها أبو بكر حتى دمی فوها، وقال: يا عُدِّيَّة نفسها، أو يقول غير الحق؟ فاستجارت برسول الله ﷺ وقعدت خلف ظهره. فقال النبي ﷺ « لم ندعك لهذا، ولا أردنا منك هذا » (٣).

(١) رواه البخارى عن عبد الله بن زبعة.

(٢) مسلم، ج ١٧، ص ١٨٨ - رياض الصالحين، ١٤١.

(٣) كشف الغمة، ج ٢، ص ١١٦، ١١٧، وهى قصة طويلة طريفة، وسند الخطيب ضعيف، الإحياء، ج ٢، ص ٤٠.

هذا، وقد قال بعض العلماء: إن المرأة إذا تزوجت أكثر من رجل ودخلت الجنة، فإنها ستكون لأحسنهم خلقاً، وإن خيرت بينهم اختارته، واستأنسوا بحديث رواه الطبراني في الكبير، وهو عن أنس قال: قالت أم حبيبة لرسول الله ﷺ: أرأيت المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة، لأيهما هي تكون؟ قال «لأحسنهما خلقاً كان عندها في الدنيا، يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة»<sup>(١)</sup>.

وسياتى بعد ذلك رأى آخر فى هذه النقطة.

\* \* \*

---

(١) الإحياء، ج ٣، ص ٤٥.

## الفصل الثالث

### تعليمها

لست متحدثاً في هذا الفصل عن تعليم المرأة من حيث كونها امرأة، فقد سبق ذلك في الجزء الثاني من هذه الموسوعة، ولكنى سألمسه من حيث كونها زوجة تحت رعاية زوج وكل إليها إدارة المنزل وتدبير شئونه.

وهذا الحق الواجب لها يشير إليه قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦]. فالرجل ليس مأموراً فحسب أن يقف عند الحدود التي حددها الله لتكون له وقاية من النار، بل إن أهله من زوجة وولد مشتركون معه في ذلك. ويأمر الله نبيه أن يعلم أهله أمور الدين وأن يجتهد في ذلك ما أمكنه، وأن يصبر على ما يلاقيه في سبيل تعليمهم من تعب، حتى لو أخره ذلك عن كسب القوت، فإن تعليم الزوج لزوجته واجبها أقوى دعامة تركز عليها سعادة الأسرة. لأن الدعامة الروحية أقوى من الدعامة المادية في هذا المجال.

وما دام الزوج مشتغلاً بهذا الحق المقدس فإن الله سيفيض عليه وعلى أسرته الخير من كل جانب، فالعاقبة الحسنى لمن عرف الواجب على خير وجه. يقول الله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه: ١٣٢].

إلى جانب أن هذا داخل في عموم الأمر بالتعاون على البر والتقوى الذي قال الله فيه ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة: ٢].

ومهما يكن من شيء، فإن الزوجة تحت رعاية زوجها، وهو مسئول عنها

بنص قوله ﷺ في حديث المسئولية « .. والرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته .. » (١).

ولكن أى نوع من العلوم يلقتها، وأى المواد يختارها؟ يعلم كل عاقل أن المرأة إذا تهاونت في إصلاح ما بينها وبين الله فهي في التعاون في إصلاح أية علاقة لها مع غيره أولى، وإذا أصلحت علاقتها مع ربها فستصلح - إن صدقت - علاقتها مع زوجها وبيتها. وعلى هذا ينبغي أن تكون المواد المختارة لتعليمها هي حقوق الله وحقوق الزوج وحقوق الأسرة على العموم، إلى جانب الحقوق العامة الأخرى.

على الزوج أن يلقتها العقيدة الصحيحة في الله، مركزاً على ما يمس سلوكها ونشاطها في الأسرة بوجه خاص. منبهاً على الأمور الخطيرة التي تنزلق إليها النساء، فيعلمها مثلاً أن الذي بيده الأمر كله هو الله وحده، فلا تشرك معه أحداً فيما اختص به سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤] ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وينبهننا إلى أن الله وحده عالم الغيب والشهادة، فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول، حتى لا تلجأ إلى العرافين والدجالين في معرفة حمل أو مستقبل بنت أو ما شاكل ذلك. فإن الله سبحانه أكرم من أن يطلع على غيبه أمثال هؤلاء، وهو سبحانه كما قال ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ \* عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٨، ٩]. والرسول ﷺ يقول: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً» (٢). ويقول من أتى كاهناً فصدقه بما قال فقد كفر بما

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه مسلم «ج ١٤، ص ٢٢٧».

أنزل على محمد<sup>(١)</sup>، ويقول: «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد<sup>(٢)</sup>».

على الزوج أن ينبهها إلى أن التمام والخزرات والأحجبة التي تلجأ إليها خرافة لا تتفق مع العقيدة الإسلامية، فإن الله وحده بيده كل شيء، وقد علمنا الوسائل الصحيحة عند طلب خير أو دفع شر، وفي هدى النبي ﷺ غناء أى غناء عن تلك العظام والصفائح والصلبان. وفي الطب - بتقدمه - متسع لكل ذى شكاية قد تزيدها تلك الخزعبلات خطراً فوق خطرها. يقول النبي ﷺ «من علق تميمه فلا أتم الله له، ومن علق ودعة فلا أودع الله له»<sup>(٣)</sup>. وفي رواية «من علق فقد أشرك»<sup>(٤)</sup>، والتميمة خرزة كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات. ولا تسمى تميمه إذا علقت بعد البلاء لترفعه كما صح ذلك عن عائشة. ودخل عبد الله بن مسعود على امرأته وفي عنقها شيء معقود، فجذبه فقطعه، ثم قال: لقد أصبح آل عبد الله أغنياء أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الرقى والتمائم والتولة شرك» قالوا: يا أبا عبد الرحمن، هذه الرقى والتمائم قد عرفناها، فما التولة؟ قال: شيء تصنعه النساء يتحبين به إلى أزواجهن<sup>(٥)</sup>. ينبهها إلى أن الزار الذى تلجأ إليه النساء لإخراج الشياطين والأرواح الخبيثة مدرجة تنزلق به المرأة إلى الشرك بالله وتقديس الشياطين والذبح باسمها والاستجابة لوحياها، فإنه لا يدفع الأرواح الخبيثة إلا الأرواح القوية الطاهرة، ولا سبيل إلى إزالة الهواجس والوساوس التي تراكمت على النفوس نتيجة لاختلال الجهاز العصبى إلا تهدئة الأعصاب والعلاج النفسى الصحيح الذى عظمت مدرسته فى العصر الحديث.

(١) رواه البزار أبو يعلى بإسناد جيد موقوفاً على ابن مسعود.

(٢) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرطهما «الترغيب والترهيب»، ج٣، ص٢٥٦.

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد جيد عن عقبة بن عامر، والحاكم وصححه.

(٤) «الترغيب والترهيب»، ج٤، ص٩٦، ٩٨.

(٥) رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه - «الترغيب والترهيب»، ج٤، ص٩٧.

على الزوج أن يعلمها الصلاة والعبادات الأخرى، فإن المرأة تميل إلى التهاون فيها بحجة انشغالها بأعمال أخرى، كما يعلمها أحكام الطهارة بأنواعها وكل ما يتعلق بالنساء من العبادات ووسائلها، وما يعبر عنه حديثاً بفقهاء النساء.

عليه أن يعلمها الواجب عليها له لتؤديه، والحق الذي لها عليه لتعرفه وتطالب به إن قصر فيه. وكل ما يتبع في شؤون الأسرة مما يجلب لها الخير. وسترى ذلك كله مفصلاً في الباب الثاني من هذا الكتاب.

هذه الأمور الضرورية التي أوجب الإسلام عليك أن تعلمها لزوجتك تساعد على استقرار الحياة الزوجية، وتسهم إسهاماً كبيراً في إسعاد الأسرة، على أن الإسلام ندب إلى تعليمها أموراً أخرى من قراءة وكتابة وغسل وطهر وخدمة وتربية...

فإن هذه الأمور ضرورية، وبخاصة للبيت الحديث في المجتمع الجديد. وحسبك أن تعلم أن النبي ﷺ كان يحضر إلى منزله من يعلم نساءه الكتابة. ففي مسند أبي داود بسند صحيح عن الشفاء بنت عبد الله أنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا عند حفصة، فقال «ألا تعلمين هذه رقية النمل كما علمتها الكتابة؟»<sup>(١)</sup>.

فإن لم يكن الزوج عالماً بهذه المسائل سأل المختصين فيها ليعلمها لها، أو يحضر إلى المنزل من يعلمها، كما أحضر النبي ﷺ الشفاء لتعلم حفصة، فإن لم يستطع ذلك كان لها الخروج لتلقى العلم ولو بغير إذنه، وذلك مشروط بعدة شروط كلها مذكورة بالتفصيل في بحث الحجاب... «ص ٢٤٢». وانظر في ذلك ما نص عليه النووي في شرح مسلم<sup>(٢)</sup>.

وقد كانت المرأة في زمن الرسول ﷺ تخرج لتسأله عن الأحكام التي تهمها كما أشرت إليه في خطبة الكتاب. وروى مسلم<sup>(٣)</sup> أن أم سليم سألت

(١) ورواه أبو نعيم وابن منده «الزرقاني على المواهب»، ج ٧، ص ٥١.

(٢) ج ٦، ص ١٧٢، وما بعدها. (٣) ج ٣، ص ٢١٩.

النبي ﷺ عن الغسل من الاحتلام، فاستنكرت السيدة عائشة سؤالها، لأن ما تراه المرأة في المنام كما يرى الرجل هو في الغالب صورة للواقع، فالرؤيا ظل الحقيقة، لأن غالبها من عمل العقل الباطن الذي هو مستودع الرغبات والانفعالات القوية المكبوتة، فقالت لها: يا أم سليم فضحت النساء تربت يمينك!! فرد عليها النبي ﷺ بقوله «بل أنت تربت يمينك». وفي بحث الحجاب مزيد بيان لذلك «ص ٢١٨». ففيه أن النساء كنَّ حريصات على أن يكنَّ في مجالس خاصة بهن بعيداً عن الرجال<sup>(١)</sup>، وعند اجتماعهن مع الرجال في صلاة العيد، كما أذن لهن الرسول ﷺ، كن يحظين بنصيب وافر من الموعظة<sup>(٢)</sup>. وفيه غير ذلك كثير مما تهتم معرفته في هذا المجال.

\* \* \*

---

(١) ج ١٦، ص ١٨١.

(٢) رواه البخاري ومسلم - الزبيدي، ج ١، ص ١٧٨، شرح مسلم، ج ٦، ص ١٧٤.

## الفصل الرابع

### الغيرة عليها ومراقبة سلوكها

بعد أن علمها الزوج ما يجب عليها وما يجب لها، يجب عليه أن يراقب تنفيذ هذه التعليمات وما يجب أن تتحلى به من صفات بوجه عام. والذي يدفع إلى هذه المراقبة هو الشعور بخطورة دورها ووضعها كامرأة وكزوجة وكمرية وكمديرة. والإحساس بأهمية التوجيهات التي وجهها بها وضرر الإهمال فيها، وهذا الإحساس هو ما يعطى معنى الغيرة.

والغيرة على الحرمات بوجه عام أمر محمود شرعاً، وله آثاره الطيبة في صلاح الفرد والمجتمع، وهي تقوم على ركني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتشجيع الخير ومحاربة الشر، والنصوص العامة الواردة في ذلك كثيرة، لا داعي لذكرها هنا.

ومسئولية الزوج في هذه المراقبة كبيرة تزيد على مسئولته العامة كفرد في المجتمع الكبير. فهو في البيت يملك من وسائل تقويم السلوك ما لا يملكه خارج المنزل. لذلك كانت مسئولته مضاعفة، تقل الأعذار عند التهاون فيها. وهو المسئول المباشر كفرد يتعين عليه القيام قبل غيره بهذه المهمة، لا كرجل عادي يكفي أن يقوم غيره بهذا الواجب في المحيط الاجتماعي الواسع.

وقد حذر الإسلام من التهاون في هذا الواجب. ففي الحديث الشريف «ثلاثة حرم الله تبارك وتعالى عليهم الجنة، مدمن الخمر والعاق والديوث الذي يقر في أهله الخبيث»<sup>(١)</sup>. وفي رواية «ثلاثة لا يدخلون الجنة أبداً، الديوث

(١) رواه أحمد عن عبد الله بن عمر واللفظ له، والنسائي والبخاري والحاكم، وقال: صحيح

الإسناد.

والرجلة من النساء ومدمن الخمر»<sup>(١)</sup>. وفسر الديوث بالذى لا يبالي من دخل على أهله<sup>(٢)</sup>. ويعبر عنه أيضاً بلفظ «قنذع أو قنذوع» بالذال أو بالبدال. يقول وهب، مصوراً حال الرجل الذى لا يغار على أهله: الرجل إذا رأى على أهله سوءاً فلم يغر على ذلك بعث الله طائراً فيقف على طرف حاجبه الأعلى أربعين يوماً، فإن غار وأنكر طار، وإن لم يغر جاء يضربه بجناحه على عينه، فلو رأى على بطن أهله رجلاً لم ينكر ولم يغر على ذلك، فذلك القنذع الديوث الذى لم ينظر الله إليه<sup>(٣)</sup>.

يقول الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب<sup>(٤)</sup> بعد ذكر حديث الديوث: رواه ليس فيهم مجروح. وفى محاضرات الأدباء للأصفهاني<sup>(٥)</sup>: أن امرأة قالت لزوجها: يا ديوث يا مفلس، فقال فى برود: واحدة من الله «أى الإفلاس». وواحدة منك، فما ذنبى أنا؟ وكان لرجل امرأة تتكسب وتطعمه، فطلقها وتزوج عفيفة، فلم يجد ما كان يجده، فذكر ذلك لها، فجاء يوماً. فوجد طعاماً وشراباً. فقال: من أين هذا؟ قالت: زارنا فلان فأكل وشرب وجامع وحمل إلينا طعاماً وشراباً وحلواء. وهذا نصيبك منه. فقال: إذا تعاطيت مثل هذا فإياك وإخبارى بتفاصيل ما يجرى فإنى غيور.

ومثل هذه الفكاهات قد تكون من نسيج الخيال، وقد تكون فى وسط غير إسلامى، ومهما يكن من شىء فإنها تدل على أن الرجل الذى لا يغار على امرأته يتبلد حسه ولا يبالي ما تفعل، ومثل هذا الرجل موجود فى العصر الحديث بكثرة فى الأوساط التى يقال إنها راقية، فإن من مظاهر رقيهم عدم الغيرة على الزوجة، فلها أن تراقص غيره أمامه وبإذنه، ولها ما هو أكثر من ذلك.

ولفظ «الرجلة» ضبطها المنذرى فى كتابه «الترغيب والترهيب»<sup>(٦)</sup> بكسر الجيم ونص على ذلك، وضبطت فى بعض الكتب بضم الجيم كأنها تأنيث رجل.

(١) رواه الطبرانى عن عمار بن ياسر.  
(٢) الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ١٠٤.  
(٣) مفيد العلوم للخوارزمى، ص ٢١١.  
(٤) ج ٣، ص ٣٧.  
(٥) ج ٢، ص ١٤٠.  
(٦) ج ٣، ص ١٣٥.

هذا، ولا عذر للرجل في عدم إنكار المنكر إذا وقع وهو غائب لم يشاهده مادام يعلم به. ففي الحديث «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرها - وقال مرة: فأنكرها - كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها». وقد ذكر عن أبي هريرة أنه قال: كنا نسمع أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة ولا يعرفه فيقول له: مالك إلي، وما بيني وبينك معرفة؟ فيقول له: كنت تراني على الخطأ وعلى المنكر ولا تنهاني<sup>(١)</sup>، وإذا كان هذا في الأجنبي فكيف فيمن يكون الرجل قوماً عليها وراعياً لها؟

وقد رأينا أن النبي ﷺ مع حبه لنسائه وحبهن له كان شديد الرقابة عليهن، فيصلح من خطئهن ويقوم من اعوجاجهن، ويؤدب على التقصير مهما كانت منزلة الواحدة منهن عنده. ينتصف منها للحق ولو كان في ذلك إغضاب لها. فقد اقتص من عائشة عندما كسرت صحيفة إحدى ضررتها وكان بها طعام، وهو مذكور في بحث تعدد الزوجات، وتعليقاً على هذه الحادثة تحدث العلماء عن حكم مؤاخذه الغيرى، وأن النبي ﷺ عفا عن عائشة في مغاضبتها إياه وفي كل ما يتصل به هو، وذلك لأنه القائل «إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادى من أعلاه»<sup>(٢)</sup> وقد قال القاضي عياض: إن مالكا وغيره من علماء المدينة قالوا بسقوط الحد عنها إذا قذفت زوجها بالفاحشة على جهة الغيرة، فإن الغيرة فيهن غالباً، لفرط محبة الزوج، فيتجاوز عن هفوات المرأة اعتباراً لهذا الحب، إلا أن هذه الغيرة إذا كانت سبباً في ضرر يقع على الزوج فإنها تؤاخذ، ولذلك حكم النبي ﷺ على عائشة بالقصاص عند كسر صحيفة ضررتها، فأعطاهما صحفتها بدلها، ويراجع شرح النووي على صحيح مسلم<sup>(٣)</sup>.

(١) الترغيب والترهيب، ج٣، ص٩٥، وقال المنذرى: ذكره رزين ولم أره، وشرحه الزبيدي على الإحياء ولم يبين درجته.

(٢) أخرجه أبو يعلى بسند لا بأس به عن عائشة - المواهب، ج١، ص٢٩٦.

(٣) ج١٥، ص٢٠٣.

وعندما اعتل بعير صفية رضى الله عنها وهي فى سفر مع النبي ﷺ، وفى إبل زينب بنت جحش فضل، طلب منها بعيراً لها، فقالت: أنا أعطى اليهودية؟ فتركها النبي ﷺ ذا الحجة والمحرم وبعض صفر، ولا يأتيها حتى يموت منه، كما قالت زينب<sup>(١)</sup>. وورد عن عائشة أنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، تعنى قصيرة، فقال لها «قد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»<sup>(٢)</sup>.

وفى مبحث تعدد الزوجات أن النبي ﷺ لم يطع عائشة عند التخيير، فى إشارتها عليه بعدم إخبار نساءه بأنها اختارته، قائلاً «إن الله لم يبعثنى معنئاً ولا متعنئاً ولكن بعثنى معلماً ميسراً»<sup>(٣)</sup>.

(أ) على الرجل أن يراقب زوجته فى حقوق الله تعالى، فلا يقرها على ما أرشدها إليه مما هو مذكور فى الفصل السابق، ولا يقرها على ترك الصلاة والعبادات الأخرى، غير ملتفت إلى تعللها بكثرة الأعمال المنزلية ومطالب التربية للأولاد وما إلى ذلك، فهى إن فرطت فى حق الله فستفرط فى باقى الحقوق من باب أولى، فإن أقرها على هذا التهاون كان شريكاً لها فى الإثم، كما سبق بيانه، ومما يؤسف له أن كثيراً من الأزواج يفرطون فى أداء العبادات، فكيف يطالبون بها الزوجات والأولاد؟

إذا كان رب البيت بالطبل ضارياً فشيمة أهل البيت كلهم الرقص  
إن سلوك الرجل ينعكس على سلوك الزوجة والأولاد، كالظل الذى يحكى  
صاحبه استقامة وانحرافاً، وقد قال القائل:

متى يستقيم الظل والعود أعوج وهل ذهب صرف يساويه بهرج؟

(١) رواه أبو داود عن سمية عن عائشة وكذا ابن سعد فى الطبقات، الترغيب، ج ٣، ص ٢٠٤، وقال المنذرى: سمية لم تنسب.

(٢) رواه أبو داود والترمذى والبيهقى، وقال الترمذى: حسن صحيح- الترغيب، ج ٣، ص ٢٠٤.

(٣) رواه مسلم- ج ١٠، ص ٨١، ٩٤.

(ب) عليه أن يراقبها في إدارتها للمنزل ورعاية شئونه وتدبير موارده ومصارفه، وليكن يقظاً بصيراً بما يجرى حوله، فلا يترك لها الحبل على الغارب تتصرف كما تشاء في الأمور التي تمسه وتمس مصلحة البيت بوجه عام. ولا ينبغي أن يذهب به حسن الظن إلى درجة عدم محاسبتها على ما تفعل وتترك، فإن ذلك ليس من الكَيْس، كما لا ينبغي أن تذهب به الرقابة إلى حد التدخل في كل شيء مما يكون من اختصاصها بالذات، فإن ذلك يوقع في قلبها الشك ويمس شخصيتها، فتحس بأنها كمية مهملة، أو قاصر لا تستحق الاستقلال في أي تصرف.

لا ينبغي لك أيها الزوج أن تسيء الظن بكل تصرفاتها، مؤولاً لأعمالها بادئ ذي بدء تأويلاً فيه تهمة، فإن ذلك مدعاة إلى النفور، بعيد عن الحكمة واللباقة في سياسة البيوت.

أحذرك أن تكون كالحارث بن كَلْدَةَ الثقفى زوج الفارعة بنت همام، فقد ذكر المسعودى فى مروج الذهب أنه دخل عليها فى وقت السحر فوجدها تتخلل - تخرج فضلات الطعام من بين أسنانها - فطلقها، ولمأسأته السبب قال: دخلت عليك فى السحر فوجدتك تتخللين، فإن كنت بادرت الغذاء فأنت شرهة، وإن كنت بتّ والطعام بين أسنانك فأنت قدرة. فقالت: كل ذلك لم يكن، ولكنى تخللت من شظايا السواك، فتزوجها بعده يوسف بن الحكم الثقفى الذى أولدها الحجاج<sup>(١)</sup>. وقد ذكرها ابن عبد ربه عن المغيرة بن شعبه مع الفارعة حينما انفلتت من صلاة الصبح<sup>(٢)</sup>.

كما أحذرك من التهاون التام الذى يجعلك فى نظرها صفرأ على الشمال، تأكل وتشرب كما تأكل وتشرب الأنعام، قانعاً بذلك فى مقابل راحتك من هموم الإدارة والمسئولية المنزلية، لا أريدك كالذى وصفته زوجته الأعرابية<sup>(٣)</sup>،

(١) حياة الحيوان للدميمى، ج١، ص٢١١. (٢) العقد الفريد، ج٣، ص٥.

(٣) الإحياء، ج٢، ص٤١.

بقولها: كان ضحوكاً إذا ولج، سكيناً إذا خرج، أكلاً ما وجد، غير سائل عما فقد. فإن هذه صفات النوكى الحمقى، بل التزم الحد الوسط والتدخل المعتدل الذى تشعر فيه المرأة بوجودها وتحترم به شخصيتها، فى الوقت الذى تحس هى فيه بأنها مسئولة ومراقبة، ولو بطريق غير مباشر، فإن حرية العمل مع الإحساس بالمسئولية هما خير ضمان لاستقامة السلوك وحسن أداء الواجب.

(ج) راقبها فى أخلاقها وشرفها، فذلك أعز ما يحرص عليه الرجل الكريم، والغيرة فى هذا المجال هى التى تتبادر إلى الذهن عن إطلاقها، كأنه لا شىء غير العرض والشرف والخلق يستحق الغيرة، والمرأة فى هذا المجال يجب عليها ألا تدع فرصة للزوج ليؤاخذها على سلوك غير مستقيم، وبيان ذلك مفصل فى الباب الثانى.

وعلى الرجل فى هذا المجال أن يبذل كل جهده حتى يحتفظ للمرأة بشرفها، فإن فى ذلك شرفه هو ولهذا لا يجوز له أن يقذفها بسوء يشين عرضها، كما كانت تفعله الجاهلية مع زوجاتهم البريئات، ليفتدين منهم بما يمكن، وقد قضى الإسلام على ذلك، فحرم قذف المحصنات من النساء حتى لو كن زوجات، ووضع لهذا القذف عقوبة صارمة مادية وأدبية، دنيوية وأخروية، يشير إليها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ \* إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٤، ٥]. ففى هاتين الآيتين عدة عقوبات عند ظهور الكذب فى هذا الاتهام الذى لم تقم عليه بينه، وهى:

- ١- الجلد ثمانين جلدة.
- ٢- عدم قبول شهادتهم لأنهم عرفوا بالكذب.
- ٣- الحكم عليهم بالفسق الذى يذهب بقيمتهم الأدبية، وقد يقصد به اللعن والطرده من رحمة الله.

وقوله تعالى أيضاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ \* يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿النور: ٢٣- ٢٥﴾ .

ففى هذه الآيات عدة عقوبات :

١- اللعن فى الدنيا والآخرة، فهو فى الدنيا ساقط القيمة، وفى الآخرة مطرود من رحمة الله .

٢- العذاب العظيم، وتفصيله موجود فى الأحاديث النبوية، التى منها قوله ﷺ « اجتنبوا السبع الموبقات » وعد منها « قذف المحصنات الغافلات المؤمنات »<sup>(١)</sup> . وقوله « من ذكر امرأ بشيء ليس فيه ليعيبه به حبسه الله فى نار جهنم حتى يأتى بنفاد ما قال فيه »<sup>(٢)</sup> .

٣- عدم تمكنهم من الإفلات من المؤاخذة يوم القيامة، لأن الشهود متوافرة، وهى أعضاؤهم .

٤- التوفية الكاملة لعقوبتهم دون رحمة وتجاوز عنهم .

٥- ندمهم حين يعرفون الحقيقة، وهى أنهم مؤاخذون على جريمتهم ولات حين مندم .

أما من رمى زوجته بالفحشاء، ولم يستطع أن يأتى بالشهود الأربعة، كما نصت عليه الآية، فإن له مخرجاً من تبعة هذا القذف، وهو المعروف باللعان المذكور فى قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ \* وَالْخَامِسَةَ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ \* وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ \* وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [النور: ٦- ٩] وبعد ذلك يفرق بينهما إلى الأبد .

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

(٢) رواه الطبرانى بإسناد جيد « الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ١٩ .

هذا، وقد نزلت هذه الآيات على إثر حوادث حدثت، رواها البخارى  
ومسلم وغيرهما، وإليك ما لخصته من هذه الروايات :

فى شهر شعبان من السنة التاسعة للهجرة عندما انصرف رسول الله ﷺ من  
تبوك إلى المدينة حدث أن ظهرت حادثنا زنى، كان الزانى فيهما واحداً، وهو  
شريك بن السحماء البَلَوى، والسحماء السوداء، وأمه كانت كذلك، وأبوه هو  
عبدة بن الجعد بن العجلانى، وقد اتهم بالزنى بامرأة عويمر بن الحارث- أو ابن  
أشقر- بن زيد بن حارثة بن الجعد بن العجلانى، الذى شهد غزوة أحد مع  
النبي ﷺ، واسمها محولة بنت قيس، وكانت هى وزوجها وشريك، بنى عم  
عاصم.

كما اتهم شريك بالزنى بامرأة أخرى هى زوجة هلال بن أمية الواقفى، أحد  
الثلاثة الذين خلّفوا عن غزوة تبوك، وتاب الله عليهم، والآخران هما: كعب بن  
مالك ومرارة بن الربيع. واختلف فى أى الحادثتين كان أسبق، ولا داعى هنا  
للاهتمام بتعيين السابق منهما.

وكانت الآية التى تقضى بحد القاذف ثمانين جلدة عند عدم الشهود قد  
نزلت. وظن الصحابة أنها تشمل الأزواج وغيرهم، فقال سعد بن معاذ- وفى  
رواية مسلم: سعد بن عبادة-: يا رسول الله، إن وجدت على امرأتى رجلاً أمهله  
حتى آتى بأربعة؟ والله لأضربنه بالسيف غير مصقح- بفتح الفاء أى مائل- فقال  
النبي ﷺ « أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير منه والله أغير منى، من أجل  
غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شخص أغير من الله ».

وجاء فى بعض الروايات- بسند ضعيف- أن رجلاً من الأنصار قال، عند  
ذكر النبي ﷺ لغيرة سعد، إن سعدا غيور، ما تزوج ثيباً قط، ولا قدر رجل منا  
أن يتزوج امرأة طلقها. كما جاء فى آخر هذه الرواية أن رجلاً قال: علام يغار الله؟  
فقال النبي ﷺ « على رجل جاهد فى سبيل الله يخالف إلى أهله » أى يحل محله  
عند غيابه، والحديث فيه انقطاع، وبعض رواته ضعيف<sup>(١)</sup>.

(١) المطالب العالية، ج ٢، ص ٧٥.

فجاء هلال بن أمية وقذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء - وهو أخو البراء بن مالك لأمه - فقال له النبي ﷺ « البينة أوحده في ظهرك » قال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا رجلاً على امرأته يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يكرر « البينة أوحده في ظهرك » فقال هلال: والذي بعثك بالحق إنني لصادق، ولينزلن الله في أمرى ما يبىء ظهري من الحد، فنزلت الآية الأخرى الخاصة برمى الأزواج لزوجاتهم ولم يجدوا شهوداً، فجمع الرسول ﷺ بين هلال وزوجته في المسجد وكان ذلك ليلة الجمعة كما رواه مسلم، وتلاعنا، فتلكأت المرأة عند الشهادة الخامسة لما وعظت وقيل لها إنها موجبة، أى لغضب الله، ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم، فالتعنت، وفرق رسول الله ﷺ بينهما، وولدت غلاماً كأنه جمل أورق - فى لون بياضه سواد - على النعت المكروه، أى المشابه للزاني، ولم يستطع الرسول ﷺ أن يحدها حد الزنى بهذا التشابه، لأن حكم الله أكبر من ذلك وأحق بالاتباع، ثم كان هذا الغلام بعد ذلك أميراً بمصر، وهو لا يعرف له أباً<sup>(١)</sup>.

إن الغيرة على العرض ديدن الكرام من الرجال من قديم الزمان، فقد ذكر النبي ﷺ أن داود عليه السلام كانت فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلق الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع، قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن فى البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة، والله لنفتضحن؟ فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذى لا أهاب الملوك، ولا أمنع من الحجاب، قال داود: أنت إذاً والله ملك الموت، مرحباً بأمر الله، ثم مكث مكانه حتى قبضت روحه<sup>(٢)</sup>.

وقد مثل الصحابة والتابعون والسلف الصالح أداراً طيبة فى الغيرة على النساء، دلّت على قوة إيمان وشدة يقظة وحفاظ على العرض. ذكرت الآثار أن

(١) الموضوع ملخص من القرطبي، ج ١٢، ص ١٨٣، والزبيدي، ج ٣، ص ١٩٧، وصحيح

مسلم، ج ١٠، ص ١٣١.

(٢) رواه أحمد بإسناد جيد عن أبي هريرة - حياة الحيوان للدميري، ج ١، ص ٥٥٤.

سيدنا عمر بن الخطاب كان يغار على نساء النبي ﷺ أن يراهن أحد، تقديساً  
لحرمتهن، وإكراماً لأصلتهن به، وقد نزل بذلك الحجاب، على ما هو مفصل في  
الجزء الثاني من هذه الموسوعة.

قال أبو رافع: كان عمر رضى الله عنه كثيراً ما يقرأ سورة يوسف وسورة  
الأحزاب في الصباح. وكان إذا بلغ «يا نساء النبي» رفع بها صوته. فقليل له في  
ذلك، فقال: أذكرهن العهد (١).

وفى هذا المثل ضربة قاضية لأولئك الذين وضعتهم مراكزهم موضع الاحترام  
من الناس، ومع ذلك ماتت فيهم الغيرة، وخفت صوت الضمير، فسمحوا  
لنسائهم بمجالسة الأصدقاء وغير الأصدقاء، ومعاورة الخمر والنزول إلى حلبة  
الرقص، مستريحين لهذه الأوضاع التي تقضى بها المدنية الحديثة، وتنادى بها  
المناصب العالية. ألا قاتل الله كل ديوث!!

وقد عرف النبي ﷺ في عمر هذه الغيرة، ووقف منها موقف الاحترام حتى  
في عالم الأحلام، فقد روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال  
«بيننا أنا نائم رأيتنى فى الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، قلت: لمن هذا  
القصر؟ قالوا: لعمر، فذكرت غيرتك، فوليت مدبراً» فبكى عمر وقال: أعليك  
أغار يا رسول الله؟ (٢).

وقد تقدم ذكر غيره سعد بن عبادة أو ابن معاذ، وكان الحسين بن على  
يقول: أتدعون نساءكم يزاحمن العلوج فى الأسواق؟ قبح الله من لا يغار (٣)،  
وضرب معاذ بن جبل امرأته لأنها نظرت إلى الطريق من كوة فى بيتها، ولأنها  
أعطت غلامها- أى مملوكها- تفاحة أكلت منها (٤).

فأين من ذلك تلك المظاهر التي عفت على آثار الشرف، وكادت تمحو  
البقية الباقية من الغيرة، تعج بها حفلات أبيحت، بل نظمت وشجعت فيها

(١) القرطبي، ج ١٤، ص ١٧٥. (٢) رواه مسلم، ج ١٥، ص ١٦٣.

(٣، ٤) الإحياء، ج ٢، ص ٤٣.

المشاركة في احتساء الخمر من غوان فانتات مع ذئاب مفترسة ضارية، وسخت النفوس فيها بالقبلات الحارة والمخاصرة الفاجرة، وما يتبع ذلك عند انطفاء الأنوار، مما نعف القلم عن الخوض فيه، فهو لا يخفى على بصيرا!

كان روح بن زنباع يغار على زوجته هند بنت النعمان بن بشير أشد الغيرة فأشرفت يوماً تنظر إلى وفد جذام كانوا عنده، فزجرها، فقالت: والله إني لأبغض الحلال من جذام- قبيلة زوجها- فكيف تخافني على الحرام فيهم؟ وقالت له يوماً: عجباً منك، كيف يسودك قومك وفيك ثلاث خصال؟ أنت من جذام، وأنت غيور، وأنت جبان، فقال لها: أما جذام فإنني في أرومتها، وحسب الرجل أن يكون في أرومة قومه. أما الجبن فإنه مالى إلا نفس واحدة، فأنا أحوطها، فلو كانت لى نفس أخرى لجذت بها، وأما الغيرة فأمر لا أريد أن أشرك فيه. وحقيق بالغيرة من كانت عنده حمقاء مثلك، مخافة أن تأتيه بولد من غيره فتقذفه في حجره، فقالت:

وهل هند إلا مهرة عربية      سلية أفراس تجلّلها بغل  
فإن أنجبت مهراً عريقاً فبالخرى      وإن يك إقراف فما أنجب الفحل

رويت في القافية الأولى بلفظ نغل، وهو الخسيس من الحيوان، كما قاله الدميرى في حياة الحيوان، وقال في مختار الصحاح: هو الفاسد النسب<sup>(١)</sup>. وفي النجوم الزاهرة في الشطر الأخير: فمن قبل الفحل. ويكون في البيت اقواء<sup>(٢)</sup>. وقصتها ستأتى بتمامها في الباب الثانى.

ويعجبني في هذا المقام الموقف الرائع الذى مثله رجل قاضته زوجته إلى القاضى موسى بن إسحاق الخطمى بالرى ٢٨٦هـ، مدعية عليه خمسمائة درهم مهراً، فأنكر وأحضر شهوداً، فأمر القاضى باستدعائها لينظر إليها الشهود

(١) نور الإسلام «الأزهر» مجلد ٢، ص ٧٢٢، مفيد العلوم للخوارزمى، ص ١٨٦، وقال: إن المرأة من نيسابور، وقال القاضى: اكتبوه وضعوه فى باب الفتوة.  
(٢) العقد الفريد، ج ٣، ص ١٩٤.

لمعرفتها، فغضب الزوج وصاح: أشهد القاضى أن لها هذا المهر الذى تدعيه ولا تسفر عن وجهها، فأخبرت المرأة بذلك، فقالت: إني أشهد الله والقاضى أنى وهبت له هذا المهر، وأبرأته منه فى الدنيا والآخرة. فقال القاضى: يكتب هذا فى مكارم الأخلاق. ذكره الحافظ السمعانى فى الأنساب.

وبلغ من غيرة السابقين على نسائهم أنها امتدت إلى ما بعد الموت، فإنه يؤثر عن الحسن بن على أنه كان يغار على امرأته فاطمة بنت الحسين أن يتزوجها بعد موته عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، فعند احتضاره قال لبعض أهله: كأنى بعبد الله إذا سمع بموتى قد جاء يتهادى فى إزار له مورّد قد أسبله يقول: جئت أشهد ابن عمى، وليس يريد إلا النظر إلى فاطمة، فإذا جاء فلا تدخلوه. قال: فوالله ما هو إلا أن أغمضوه فجاء عبد الله على تلك الصفة التى وصفها، فمنع ساعة. فقال بعض القوم: لا يدخل، وقال بعضهم: مثله لا يرد. فدخل، فلما سرنا إلى القبر بكت فاطمة وصكت وجهها، فدعا عبد الله غلاماً له، وأمره أن يذهب إليها فيقول: إن ابن عمك يقرئك السلام ويقول: كفى عن وجهك فإن لنا به حاجة، فسكتت، ثم تزوجها بعد.

هذا، وإذا كان الدين يحثك على الغيرة ويمجدها، فإنه لا يجب منك أن تفرط فيها، بل ينبغى أن تكون معتدلاً، نزولاً على قول النبى ﷺ «إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل، وهى غيرة الرجل على أهله من غير ريبة»<sup>(١)</sup>.

والإفراط فى الغيرة يجر إلى أمور، كل منها قبيح، وإليك بعضها:

١- شدة الغيرة تغرى المرأة بمحاولة التخلص من القيود المفروضة، فإن شدة الضغط تولد الانفجار كما هو معروف. والشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده. يحدثنا التاريخ أن كثيراً من النساء تحايلن على المتعة الممنوعة من شدة الكبت بطرق دنيئة، والحوادث شاهد صدق على ذلك. وعلى الرغم من الإيمان

(١) رواه أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث جابر بن عتيك- الإحياء، ج ٢، ص ٤٢.

بهذه الحقيقة لا تزال عقول فى العصر الحاضر تتمسك بالغيرة الشديدة ادعاء بأنهم يقلدون الرسول وصحبه وكبار القوم من عظماء الإسلام كسلطين آل عثمان . وقد أشرنا إلى تاريخ الحريم وفهم الناس له خطأ، وما ترتب عليه من أمور غير كريمة، وذلك فى بحث الحجاب، ص ٢٦١ .

وما يزال يعيش قوم فى بعض البلاد الإسلامية بهذه العقلية، فهم يبنون بيوتهم دون نوافذ، خشية أن تمتد الأعين إلى الحريم، ويمنعون المرأة من زيارة أهلها ولو فى حلك الليل ودامس الظلام، ويمنعون زيارة الطبيب أو الطبيبة للمريضة، ويفضلون أن تموت غير مأسوف عليها ولا ينظر إليها أجنبى ولو إلى ما أحل الله النظر إليه فى هذه الظروف، ولا يجيزون لها أن تحج ولو كانت موسرة، ولا أن تتقاضى أمام المحاكم أو يكتب اسمها فى السجلات الرسمية عند الولادة والزواج والتحصين ضد الأمراض أو عند الموت أو غيره . إنهم لا يذكرون اسم المرأة ولو بالعنوان العام فى حضرة الرجال، والطفلة عندهم لا تخرج من البيت وهى دون الخامسة إلا إذا حلقت شعرها ولبست ملابس الأولاد الذكور . ولا يسمح لأخ بزيارة أخته بعد أن تتزوج، ولا لابن أن ينظر إلى زوجة أبيه، ولا تسمح نفوسهم بإدخال مأكولات على شكل خاص، كالباذنجان والخيار إلى البيوت، ولا أن تحلب المرأة الماشية، إلى غير ذلك من المظاهر التى تتنافى مع العقل السليم، ومع الدين الذى باسمه يتعاملون . إن هذه المراحل إذا انفجرت كانت أشد فتكاً من القنبلة، لأنها قوة تركزت وطال تركيزها بهذه العادات التى ما أنزل الله بها من سلطان .

٢- إن شدة الغيرة تجلب على المرأة سبب الاتهام بالسوء، فإن الناس سيقولون إن عاجلاً وإن آجلاً، طوعاً أو كرهاً: ما دعا الرجل إلى سلوك هذا المسلك معها إلا علمه بأنها مربية طيبة الانزلاق إلى المهاوى عند سنوح الفرصة، فيكون الرجل هو السبب فى اتهام الناس لزوجته بما يحرص بسلوكه معها على ألا يحوم حول حماها شبهة من قريب أو بعيد، يقول على كرم الله وجهه: لا تكثر الغيرة على أهلِكَ فترمى بالسوء من أجلك .

٣- إن شدة الغيرة تجعل الرجل سيء الظن بزوجته، متشككاً في تصرفاتها ولو كانت بريئة، وسوء الظن منهي عنه بقوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، ويقول النبي ﷺ «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا..»<sup>(١)</sup> ويأتى فى آخر هذا الفصل توضيح لحكم الظن.

٤- كما أنها تحمل على التجسس وتلمس خفايا المرأة وكشف عوراتها، والتجسس منهي عنه بالآية والحديث السابقين، وقد حذر منه النبي ﷺ تحذيراً عاماً بقوله «ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع عورته يفضحه ولو فى جوف رحله»<sup>(٢)</sup>، وعن جابر أن النبي ﷺ نهى عن تطلب عثرات النساء<sup>(٣)</sup>، وهو بمعنى الحديث الذى ينهى عن طروق الرجل أهله ليلاً.

٥- شدة الغيرة، بما تحمل صاحبها على التجسس، تدفع إلى مغافلة الزوجة فى أوقات لا يظن فيها اطلاع على ما استتر من أمورها، وقد نهى النبي ﷺ عن إحدى هذه الصور، وهى الطروق ليلاً للمسافر، أى دخوله بالليل إذا قدم من سفر. فقد روى مسلم<sup>(٤)</sup> عن جابر أن النبي ﷺ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً، لئلا يخونهم أو يطلب عثراتهم، وروى أحمد بسند جيد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال قبل دخول المدينة - وقد كانوا فى سفر - «لا تطرقوا أهلكم ليلاً» فخالفه رجلان، فسعيا إلى منازلهما، فرأى كل فى بيته ما يكره<sup>(٥)</sup>. وقال ﷺ «إذا قدم أحدكم ليلاً فلا يأتين أهله طروقاً، حتى تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة»<sup>(٦)</sup>. والمغيبة هى التى غاب عنها زوجها، والاستحداد حلق شعر العانة بالحديدة أى موسى، وذلك معروف عند الرجال.

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة.

(٢) رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه عن ابن عمر- الترغيب، ج ٣، ص ٩٨.

(٣) رواه الطبرانى- الإحياء، ج ٢، ص ٤٢. (٤) ج ١٣، ص ٤٢.

(٥) الإحياء، ج ٢، ص ٤٢.

(٦) رواه البخارى ومسلم عن جابر «الزبيدى»، ج ٣، ص ٢٥٧، مسلم، ج ١٣، ص ٧١.

٦- وقد تتمادى الغيرة بالرجل فيتفرس المولود ويقارن أعضائه وسحنته به أو بأمه، ويتشكك فيه إن كان به ما ليس بهما، وقد حلّ النبي ﷺ مشكلة من هذا النوع، فقد جاء إليه رجل من بنى فزارة - قيل: اسمه ضمضم بن قتادة وترجمته فى أسد الغابة - وقال: إن امرأتى قد ولدت غلاماً أسود، وفى رواية: وإنى أنكرته أى كرهته، فقال ﷺ «هل لك من إبل؟» قال: نعم، قال «فما ألوانها؟» قال: حُمْر، قال «هل فيها من أورك؟» أى أسود غير صافى السواد، قال: إن فيها لُورُفاً، قال «فأنتى أتاها ذلك؟» قال: عسى أن يكون نزعه عرق. قال «وهذا عسى أن يكون نزعه عرق»<sup>(١)</sup>. ويريد النبي ﷺ بهذا أن يحافظ على العرض مما يشينه من شبهة لا أصل لها، فإن العرض إذا خدش قل أن ترجع إليه سمعته الطيبة الأولى، إن الزجاجة كسرهما لا يشعب.

٧- وقد حملت شدة الغيرة بعضاً من الناس على مؤاخذه المرأة بالظنة، مؤاخذه هى القتل فى أبشع صوره، كما هو موجود فى بعض البلاد، ولو بحثت عن الحقيقة لوجدتها بريئة عفيفة، ولكن الحدة التى تكيف بها عقل الرجل أعمته عن التحقق والتثبت الذى أمر به الدين. وها هو ذا رسول الله ﷺ عندما سمع الشائعة حول السيدة عائشة مكث طويلاً يسأل ويتثبت من الخادم<sup>(٢)</sup> والضرائر والناس، ولم يصدر فى شأنها حكماً على الرغم مما قيل حتى نزلت براءتها فى القرآن الكريم، وأرشدنا الله إلى ما يجب اتباعه فى مثل هذه الشائعات بقوله ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ \* لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٢، ١٣]، ويقول ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]. فالواجب عند سماع الشائعة تقديم حسن الظن أولاً، واستبشاح هذا الخبر، ولأجل الاطمئنان لابد من وجود شهود أربعة على صدق ما يقال، ومن أشاع خبراً دون شهود فهو كاذب

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة، ج ١٠، ص ١٣٣. (٢) يطلق على الذكر والأنثى خادم.

عند الله، والواجب أيضاً العمل على عدم تناقل الشائعة والإمساك عن التحدث بها، منعاً لانتشارها، مع احترام من قيل عنه السوء والموازنة بين مقامه وما يشاع عنه .

٨- إن شدة الغيرة منعت كثيراً من الناس من السير في طريق الإصلاح، للتنعم بما أحل الله من طيبات، جاء وقت على بعض البلاد الإسلامية لم تسمح فيه بإقامة التوصيلات الكهربائية على الأعمدة حتى لا يشرف العمال على النساء في البيوت، وكذلك لم تسمح ببناء المآذن خشية أن يطلع المؤذن على ربات الخدور، وهو تشدد لامبرر له شرعاً، فلا بد من الحكمة حتى تسيّر الأمور في مسارها المعقول، فإن هذا التزم لا يكون إلا حيث يكون اليأس من عفة النساء، كما يقول بعضهم في مؤذن:

ليبتنى في المؤذنين حياتي      إنهم ينظرون من في السطوح  
فيشيرون أو تشير إليهم      كل عذراء ذات وجه مليح

ومن المشهورين قديماً بالغيرة عقيل بن عُلفة، قيل له: من خلقت في أهلك؟ قال: الحافظين، العرى والجوع، يعنى أنه يجيئهم ويعريهن فلا يخرجن (١).

فيا من جرفكم تيار المدنية، الغيرة الغيرة على نسائكم، فإنهن مفتاح كل شر إن أفلت من الرجال زمامهن، ويا من تعيشون في ظلام التقاليد القديمة التي ما أنزل الله بها من سلطان، رفقا بالقوارير، فإنهن بشر لا حيوانات. على أن الحيوان الأعجم قد أمرتم بإحسان معاملته، فكيف بمن قال الله فيهن ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد      كلا طرف في قصد الأمور ذميم

(١) عيون الاخبار، ج ٤، ص ٧٨.

يقول محمد بن عمر للخزيمي :

ما أحسن الغيرة فى حينها  
من لم يزل متهما عرسه  
يوشك أن يغريها بالذى  
حسبك من تحصينها وضعها  
لا يُطلَعَنَّ منك على ريبه  
فيتبع المقرون جبل القرين<sup>(١)</sup>

هذا، ومما يساعد الرجل على الاعتدال فى الغيرة أمور، منها: ألا يختار زوجته بارعة الجمال، وأن تكون ذات خلق ودين، وقد تقدم ذلك فى بحث اختيار الزوجة، كذلك عدم اختلاطها بالرجال بدون ضرورة، وقد جاء فى ذلك قول النبى ﷺ لفاطمة «أى شىء خير للمرأة»؟ فقالت: «ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل». فضمها إليه وقال «ذرية بعضها من بعض»<sup>(٢)</sup>. وقال على كرم الله وجهه: إياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى أفن، وعزمهن إلى وهن، اكفف أبصارهن بالحجاب خير لهن من الارتياح، وليس خروجهن بأضر من دخول من لا يوثق به عليهن، فإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل<sup>(٣)</sup>.

وأيضاً عدم إغراقها بالمتع وبخاصة الملابس التى تغرى بخروجها، وفى كشف الغمة<sup>(٤)</sup> توصية بذلك، كما تقدم فى بحث الحجاب قول عمر: أعروا النساء يلزمن الحجاب<sup>(٥)</sup>.

ومما يساعد أيضاً على الاعتدال فى الغيرة مراعاة هندسة البناء، حتى لا تمكن الناس من رؤية النساء داخل المنازل، وكذلك وضع الستر على النوافذ بحيث تحجب الرؤية، وقد كان الصحابة يسدون الكُوى والثقب فى الحيطان لئلا

(١) عيون الأخبار، ج ٤، ص ٧٩.

(٢) رواه البزار والدارقطنى من حديث على بسند ضعيف «الإحياء»، ج ٢، ص ٤٣.

(٣) المستطرف، ج ٢، ص ١٩٠، وقد سبق فى ص ٢٠ نسبتها إلى ابن المقفع.

(٤) ج ٢، ص ١٠٧. (٥) ص ١٧٠.

تطلع النساء إلى الرجال<sup>(١)</sup>، وإذا كان ذلك هو السبيل المتعارف عليه في القديم فلا بد من أسلوب مناسب في العصر الحديث .

### \* تكملة :

حول الحديث النبوي «إياكم والظن...» قال ابن مفلح في كتابه «الآداب الشرعية» ظاهره أن استمرار ظن السوء وتحقيقه لا يجوز. وأوله بعض العلماء على الحكم في الشرع بظن مجرد بلا دليل، وليس بمتجه، سوء الظن بالمسلم الذي ظاهره العدالة محظور، والظن المأمور به كشهادة العدل وتحرى القبلة وأرش الجنائيات، والظن المباح كمن شك في صلاته، إن شاء عمل بظنه وإن شاء عمل باليقين. وحديث «احترسوا من الناس بسوء الظن» المراد به الاحتراس بحفظ المال، مثل أن يقول: إن تركت بابي مفتوحاً خشيت السراق. انتهى كلام القاضى. والحديث رواه الطبرانى فى الأوسط وابن عدى عن أنس، وهو ضعيف.

وإذا أريد بسوء الظن الاحتراس واليقظة والتدبير فذلك شىء لا مانع منه، بل جاء مدحه، فقيل: بوحشة الشك ينال أنس اليقين. وقيل: عليك بسوء الظن، فإن أصاب فالحزم، وإن أخطأ فالسلامة. وقوله تعالى «إن بعض الظن إثم» دلالة على أن جلُّه صواب، وقال عبد الملك: فرق ما بين عمر وعثمان أن عمر أساء ظنه فأحكم أمره، وعثمان أحسن ظنه فأهمل أمره<sup>(٢)</sup>.

وجاء فى كتاب أدب الدنيا والدين للماوردى<sup>(٣)</sup>: وأما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل، فإن كان بالخالق كان شكاً يؤول إلى ضلال، وإن كان بالخلق كان استخانة يصير بها مختاناً وخواناً، لأن ظن الإنسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه، فإن وجد فيها خيراً ظنه فى غيره، وإن رأى فيها سوءاً اعتقده فى الناس، وقد قيل فى المثل: كل إناء ينضح بما فيه. فإن قيل: قد تقدم من قول الحكماء: إن الحزم سوء الظن قيل، تأويله قلة الاسترسال إليهم، لا اعتقاد السوء فيهم. اهـ.

(٢) محاضرات الادباء، ج ١، ص ١٢.

(١) الإحياء، ج ٢، ص ٤٣.

(٣) ص ١٨٢.

وقد أشار الحديث إلى أن سوء الظن مما يتعرض له كثير من الناس، إلا أنه يجب عليهم ألا يبنوا عليه حقائق، فإنها حينئذ تكون واهية لا أساس لها، كالنتائج التي ليست لها مقدمات، فقال ﷺ «ثلاث لا يسلم منهن أحد الطيرة والظن والحسد» قيل: فما المخرج يا رسول الله؟ قال «إذا تطيرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تبغ»<sup>(١)</sup>. وجاء بلفظ «ثلاث لازمات لأمتي، سوء الظن والحسد والطيرة، فإذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فاستغفر الله، وإذا تطيرت فامض»<sup>(٢)</sup>.

ومعنى «لا تحقق» لا تبين حقيقة على هذا الظن، ومعنى «لا ترجع» امض في طريقك ولا ترجع عن قصدك لمجرد أنك رأيت شيئاً تشاءمت به، على عادة العرب الذين كانوا عند خروجهم للعمل إذا رأوا طائراً جاء من جهة اليسار تشاءموا ورجعوا إلى بيوتهم، ومعنى «لا تبغ» لا تظلم ولا تشرع في عمل يؤدي من حسدته.

\* \* \*

(١) أخرجه عبد الرزاق بن معمر عن اسماعيل بن أمية مرفوعاً- نقثات صدر المكمد وقره عين المسعد، بشرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد، تأليف السفاريني، ج ٢، ص ١٠٤.

(٢) رواه أبو الشيخ والطبراني عن حارثة بن النعمان، وهو ضعيف، وروى عن الحسن مرسلًا- الجامع الصغير للسيوطي.

## الفصل الخامس

### تأديبها

ليس كل النساء يستجبن إلى أزواجهن في النصيح والتوجيه، والقيام بما أمرهن الله به نحو الأزواج، فإنهن في ذلك صنفان، صنف صالح وصنف غير صالح، ولكل منهما ما يناسبها من معاملة، فمن استجابت أكرمت، فالحسنى للذين أحسنوا، ومن عصت وجب تأديبها بما بينه الله تعالى في القرآن الكريم، ووضحه رسوله في الحديث الشريف، فإن تعذر الإصلاح تدخل أولياء الأمور في الموضوع. وانتقل العلاج من جهد فردى يقوم به الزوج، إلى جهد جماعى يتولاه الحكام والأمراء وأولياء الأمور بناء على ما يجب على المسلمين من تكافل وتعاون على الصالح العام.

قال تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنِ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا \* وَإِنِ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤، ٣٥].

وتأديب الزوج لزوجته هو أظهر ما تتبين فيه رجولته ومقدار احترام الزوجة والمجتمع لشخصيته. فإن وقف من تقصيرها موقف المسالم المتخاذل تحت تأثير الاعتراف لها بحق الحرية الذى فتن به العصريون، أو عدم الإحساس بمسئوليته نحوها، زاعما أنه لن يحاسب على تقصيرها- رتعت المرأة فى هذا المرتع الوخم، ومرنت على شرب كؤوس التمرد والاستهانة، وفقدت مع ذلك مقاييس الشرف والأخلاق.

إن مثلها في هذه الحالة مثل السيل الجارف، لا يجد أمامه عقبة تعوقه أو حاجزاً يصدّه. فهو ماضٍ في طريقه حتى يأتي على الحرث والنسل، أو مثل النار تشب في الهشيم وقد خلا لها الجو وأتاها الريح ونامت الأعين، فهي لا تنثنى عن ضرامها حتى تأتي على الأخضر واليابس من الشرف الذي هو كنز الإنسان الغالي وذخيرته الثمينة وعماد حياته الأدبية بل والمادية أيضاً.

لقد عرفت الزوجة ما عليها من واجبات، وعلمها زوجها ما خفى عليها من ذلك، وراقب تنفيذها لهذه الواجبات. فإن قصرت لزمّت مؤاخذتها على النحو التالي:

### أولاً - حقوق الله:

إن الحقوق المتمحضة لله كالعبادات واجب عليها أداؤها على كل حال، سواء أكانت مربوطة برباط الزوجية أم لا، وموقف الزوج من تقصيرها في هذه الحقوق كموقفه من أى منكر يقترفه من يدين بالإسلام، بل إن موقفه هنا كزوج أشد، وعلى هذا يسلك معها الخطة التي بيّنها الرسول ﷺ في قوله «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»<sup>(١)</sup>، فبأية وسيلة من هذه الوسائل أمكنه أن يغير المنكر وجب عليه أن يغيره، ومن المنكرات ما يستطاع باليد، كما لو رآها تعلق تميمه أو تجلس إلى كاهنة، أو تتناول طعاماً أو شرباً لم يحله الله، فلا يجوز أن يقف منها موقف المتفرج أو الراضى، مكتفياً بكلمه لينة يقولها، ليظهر بها أنه منكر غير موافق، أو مكتفياً بإنكاره بالقلب راضياً بأضعف الإيمان، لعامل من العوامل كضعف شخصيته أو خوف العواقب المترتبة على ذلك، كسوء خلقها وتطوره إلى كارثة مثلاً، وقد رأيت سابقاً أن عبد الله بن مسعود جذب التميمية التي كانت معلقة في عنق زوجته ونهرها بشدة.

ومن المنكرات ما يستعمل فيه القول كتقصيرها في الصلاة والصيام مثلاً، وكاعتقادها في خرافات وأباطيل لم تتعد نطاق الفكر إلى العمل. فهو في مثل

(١) رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى.

هذه الحالات يخوفها عاقبة التقصير والاعتقاد الباطل، مهدداً لها بما يستطيع من أنواع التهديد إن ظن أن في ذلك فائدة، كهجر وعدم استجابة لرغباتها الكمالية التي لم تفرضها عليه الواجبات الزوجية. قال الإمام الغزالي: وكذا إذا كانت تاركة للصلاة، فله حملها على الصلاة قهراً<sup>(١)</sup>. لكن رأى صاحب «الفروع» أن الزوج لا يملك حق تعزيرها على هذه الحقوق المتمحضة لله تعالى، فذلك من اختصاص الحاكم. وقد مر أن النبي ﷺ نصح زوجته التي عابت ضررتها صفية، وأمر بتعويض الصحيفة التي كسرتها عائشة، وجاء في معجم المغني لابن قدامة الحنبلي<sup>(٢)</sup> أن للزوج ضرب امرأته على ترك الفرائض، وإن لم تصل احتمال ألا يحل له الإقامة معها.

وإذا تغير المنكر باللسان فبها ونعمت، وإلا لم يبق إلا الإنكار بالقلب، وعلامة الصدق فيه أن يتغير سلوكه معها على نحو لا يؤثر في الحق الواجب عليه نحوها، وذلك كعدم المباشطة معها، وعدم إمتاعها بالكماليات. وهذا أمر يجب أن يسلكه الزوج معها ليبرهن على أن قلبه منكر لعصيانها. فإن الراضى بالمعصية شريك فيها، والمساعد عليها بالسكوت والإقرار كالمباشر لها، غير أن هذا المسلك لا يحتم عليه أن يفارقها بالطلاق، فهو صاحب الشأن في ذلك، لأن الرجل يمسك الزوجة الكتابية، على الرغم من عقيدتها الباطلة، وليست المسلمة العاصية بأسوأ منها، مهما بلغت الحال.

### ثانياً: الحقوق الزوجية:

الحقوق الزوجية ليست متمحضة للزوج، ففيها حق الله تعالى، وهذه الحقوق قد عرضت بعروض الزواج، وتزول بزواله، وستأتى مفصلة في الباب الثانى، والتقصير فى هذه الحقوق يسمى نشوزاً، وقد قال الفقهاء: إن عصيان الزوجة لزوجها فيما كلفت به من طاعة واستقرار فى البيت تترتب عليه آثار، من أشدها سقوط نفقتها، وسقوط حقها فى القسّم مع الزوجات اللاتى يشاركنها الحياة الزوجية.

(٢) ص ٧١٦.

(١) الإحياء، ج ٢، ص ٤٥.

وقد بيّن الله سبحانه في الآيتين السابقتين موقف الرجل من المرأة الناشز. التي تظهر علامات نشوزها بمثل إجابة زوجها بكلام خشن بدل الكلام اللين، والتباطؤ في تنفيذ رغبته، أو القيام بها متكرهه، فإن ظهرت هذه الأمارات وعظها ونصحها بما يجعلها تصلح من سلوكها، فإن تحقق له نشوزها وإصرارها على المعاملة الشاذة سلك معها الطرق التي بينتها الآية الكريمة، وهي: الوعظ والهجر والضرب.

وقد رأى بعض العلماء أنه لا يجوز استعمال الوسيلة التالية إلا إذا لم تفلح السابقة، لكن بعضهم أجاز له ما يشاء منها، سواء في ذلك العموم البدلي والشمولى، فله أن يختار أيها يصلح، وله أن يستعملها كلها في وقت واحد إن عرف أن ذلك هو الطريق النافع، فلكل امرأة ما يناسبها. وإليك تفصيل هذه الطرق:

#### \* الوعظ :

الوعظ هو تخويفها عاقبة العصيان في الدنيا بمثل سقوط حق النفقة والقسم، وارتباك الحياة الزوجية، وأثر ذلك عليها وعلى الأولاد وعلى المجتمع، وفي الآخرة بالعذاب الذي أعده الله للعصاة. كما يرغبها في الطاعة ببيان آثارها الدنيوية والأخروية، وسيأتى توضيح ذلك في الباب الثانى.

وقد نصح العلماء أن يلتزم الزوج حدّ العفة في القول والأدب في النصيح، والحكمة التي يصل بها إلى قلب المرأة، ولا يجعلها تصر على العناد والمكابرة. وإلى جانب الهدى الإسلامى العام فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. يشير إلى ذلك قوله ﷺ فى الحديث الذى سيأتى قريباً « ولا تقبح » أى لا تقل لها: قبحك الله، أو لا تقل لها قولاً قبيحاً. سواء أكان ذلك فى مقام عيبها أم فى مقام توجيهها.

ولا بأس من اللجوء إلى من يساعده على التأثير عليها ممن يثق فى إخلاصه وكفايته لمثل هذه المواقف، كما استعان النبى ﷺ بأبى بكر عند مقاولته لعائشة، وقد سبق هذا الحديث.

وإلى جانب هذا الأمر بالوعظ في الآية الكريمة جاء الأمر به في الأحاديث النبوية وفي فعله ﷺ وفعل أصحابه، وقد تقدم أمره للقيظ بن صبرة، أن يعظ امرأته البديهة، كما تقدم وعظه لعائشة عندما عابت صفية، وكذلك زجر عمر لزوجته التي تدخلت فيما ليس من شأنها.

ولا يقولن قائل؛ إن نصح النبي ﷺ لعائشة ليس في مخالفة منها له في الحقوق الزوجية، بل لمخالفة تتعلق بغيره، وهي صفية. ذلك لأن نصحتها في الأمور التي تتعلق به يكون من باب أولي. بل إن هذه الحادثة تتعلق به أيضاً، لأن توفير الهدوء النفسى للزوج واجترام شخصيته باحترام زوجاته، من حقوق الزوجية.

\* الهجر :

المراد بالهجر في المضاجع، الذى فُسِّرَ بأمور ثلاثة:

(أ) هجر الاتصال الجنسى حتى لو كان نائماً معها فى فراش واحد أو حجرة واحدة، وهذا تفسير ابن مسعود وسعيد بن جبيرة.

(ب) هجر فراشها، ولو كان معها فى حجرة واحدة.

(ج) هجر حجرتها، فلا يكون اتصال جنسى ولا نوم فى فراشها أيضاً.

وعلى التفسير الأول لا يكون الهجر مفيداً إذا كان نشوز المرأة بامتناعها عن تمكينه من نفسها، فذلك يتفق وهوها، وهو يساعدها بذلك على النشوز. أما إن كان نشوزها بغير ذلك فهو مفيد، لأن فيه إيلاماً، حيث يكون قريباً وممتنعاً عنها، والممنوع الغائب أقل وقعاً على النفس من الممنوع الحاضر.

أما التفسير الثانى، وهو هجر الفراش فقط مع الوجود فى حجرتها، فهو يفيد إذا كان النشوز بالامتناع عن المتعة، والتقصير فى الحقوق الأخرى، لأن بُعدَه عنها فى المضاجعة يومئ إلى احتقارها وامتهانها وتناسى وجودها والحط من شأنها.

والتفسير الثالث أشد إيلاماً، ففيه مع الامتناع عن المتعة نفور شديد ووحشة كبيرة، تحسها إذا خلا فراشها، وخلت حجرتها ممن يؤنسها. ولا يتحمل

ذلك إلا قلة نادرة من النساء اللاتي يكن في مرحلة من العمر يكثر منها فيها النشوز. أما المتقدمات في السن فلا يشعرن بهذه الوحشة، وهن مع ذلك في سنٍ يقل أو ينذر فيها النشوز. ومهما يكن من شيء فإن للزوج أن يتصرف في الهجر بما يراه مناسباً للمقام.

ودليل الهجر مع الآية قول النبي ﷺ «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً...»<sup>(١)</sup>. والعوانى جمع عانية، وهي الأسيرة. شبهت المرأة في دخولها تحت حكم زوجها بالأسير، والمراد بالفاحشة المبينة النشوز وسوء العشرة الذي يبين عدم طاعتها.

ومن الأدلة أيضاً على الهجر فعل النبي ﷺ، فقد هجر زوجاته في حادث التخيير كما سبق، وهجر زينب عندما عابت صافية، وروى ابن الجوزي أن النبي ﷺ أرسل إلى زينب بهدية، فردتها، فقالت التي هو في بيتها: لقد أقمأتك - احتقرتك - إذ ردت عليك هديتك، فقال ﷺ «أنتن أهون على الله أن تقمئنني» ثم غضب عليهن كلهن شهراً. ذكره ابن الجوزي في الوفاء بدون إسناد. وجاء في الصحيحين عن عمر: كان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً، من شدة موجدته عليهن، كما جاء في رواية من حديث جابر، فاعتزلهن شهراً بسبب غضبه عليهن ثابت<sup>(٢)</sup>.

وليس للهجر أجل معلوم كما تبين من هجر النبي ﷺ لزوجاته، والمدار فيه على القدر الذي يؤثر على المرأة حتى تطيع. والمراد به الهجر في المضجع فقط على النحو الذي سبق، وذلك لقصر النبي ﷺ إياه على البيت في حديث معاوية بن حيدة، الذي سيأتي بعد، وفيه «ولا تهجر إلا في البيت» وقوله تعالى ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ لا يفيد القصر.

(١) رواه الترمذى عن عمرو بن الأحوص، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) الإحياء، ج ٢، ص ٤٦.

أما الهجر في الكلام فممنوع فوق ثلاث ليال، لحديث البخارى ومسلم عن  
أبى أيوب فى ذلك، ولحديث أبى داود الذى فيه «فمن هجر فوق ثلاثة أيام  
فمات دخل النار» (١).

ولكن قال العلما: إن تحريم الهجر بالكلام فوق الثلاث، محله إن كان ذلك  
لحظ نفسه، أما إن كان لعصيانها لله ولإصلاح حالها فهو كهجر المبتدعين  
والفاسقين، يجوز إلى غير نهاية محدودة. ودليله هجر النبى ﷺ وهجر أصحابه  
لكعب بن مالك وصاحبيه المتخلفين عن غزوة تبوك بغير عذر، وكهجر الصحابة  
بعضهم لبعض. قال أبو داود بعد ذكر الحديث السابق: وإذا كانت الهجرة لله  
فليس من هذا فى شيء، فإن النبى ﷺ هجر بعض نسائه أربعين يوماً، وابن عمر  
هجر ابناً له إلى أن مات (٢).

هذا، والهجر عقوبة أدبية، وقد تكون مناسبة للزوج فى علو مكانته،  
وللزوجة فى دقة إحساسها وتألمها من هذه المعاملة، وأحوال الرجال والنساء  
تختلف فى ذلك. ويعجبني فى هذا أن كسرى أنوشروان غضب على بعض  
مرازبته - رؤساء الجيش - فقال: يُحطُّ عن مرتبته ولا ينقص من صلته، فإن الملوك  
تؤدب بالهجران ولا تؤدب بالحرمان (٣).

### \* الضرب :

الطريقة الثالثة فى التأديب هى الضرب، والضرب بوجه عام أحد الوسائل  
التأديبية للعصاة، وهو مبدأ أقره جميع العقلاء، وإن اختلفوا حول كميته  
وكيفيته، فلا ينبغى أن ينكر عليه إذا تعين وسيلة للتقويم والتهديب، وضرب  
المرأة الناشز هو آخر مراحل التأديب، ولا تستحقه إلا المرأة الشاذة التى لم يصلح  
معها الوعظ والهجر، فهو - كما يقال - آخر الدواء الكى، ومرضاها يطلق عليه  
علماء النفس اسم «الماسوشيزم».

(١) رواه النسائى عن أبى هريرة بإسناد على شرط البخارى ومسلم «الترغيب»، ج ٣،  
ص ١٨٩.

(٢) الترغيب، ج ٣، ص ١٩١. (٣) زهر الآداب للحصرى، ج ١، ص ٢١٠، طبعة الحلبى.

ودليل جوازه إلى جانب الآية الكريمة، قول النبي ﷺ وفعله، أما قوله فقد سبق في حديث عمرو بن الأحوص وحديث إياس بن عبد الله، فقد نهى النبي ﷺ عن ضرب النساء، تحقيقاً للمعاشرة بالمعروف، ولكنهن أسأن استعمال هذا الحق، فعصين أزواجهن حتى شكا الرجال ذلك إلى النبي ﷺ فرخص في ضربهن، غير أن الرجال أساءوا أيضاً استعمال هذه الرخصة، فشكاهم النساء إلى النبي ﷺ، فبين أن الذين يضربوهن ليسوا من خيار المسلمين. فكأنه يريد منهم عدم الالتجاء إليه إلا عند الضرورة.

وأما فعله ﷺ فيدل عليه حديث عائشة معه ليلة البقيع. وخلاصته: أنه عليه الصلاة والسلام خرج ليلاً خفية من حجرة عائشة، وذهب إلى البقيع. فذهبت وراءه، فرأته قد قام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات. قالت: ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهورل فهورلت، فأجضر فأحضرت - أى عدا فعدوت - فسبقته، فدخلت فدخل، فقال «عائش، مالك حشياً رابية»؟ قلت: لا شيء قال «لتخبريننى أو ليخبرنى اللطيف الخبير» قلت: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى، فأخبرته، فلهدنى فى صدرى لهدة أوجعتنى، ثم قال «أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله»<sup>(١)</sup>، وحشياً، مقصور، ومعناه أصابك الحشا، وهو الربو والتهيج الذى يعرض للمسرع فى مشه والمجد فى كلامه. ورابية أى مرتفعة البطن. ولهدنى أى دفعنى، أو ضربنى بجمع كفه فى صدرى، ومثله: لهدنى، أو لهزنى، أو لكزنى.

غير أن الضرب لم يكن من عاداته ﷺ، ففى الحديث «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد فى سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن يُنتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل»<sup>(٢)</sup>.

ويشترط لجواز الضرب ثلاثة شروط:

(١) رواه مسلم، ج ٧، ص ٤٢. (٢) رواه مسلم، ج ١٥، ص ٨٤.

١- أن يظن الزوج أنه يفلح في التقويم، كما قاله الجويني وغيره، بمعنى أن يكون متعينا للتأديب لا يفيد فيه غيره، فإن ظن عدم فائدته كان ممنوعاً، لأنه عقوبة مستغنى عنها، ويعد ظلماً، والظلم حرام بالنصوص الكثيرة.

٢- أن يكون غير مبرح، وفسر المبرح بأنه ما يعظم أمله عرفاً، أو ما يخشى منه تلف نفس أو عضو، أو ما يورث شيئاً فاحشاً من باب أولى، بمعنى أن يكون الضرب خفيفاً، لا يكسر عظماً ولا يشوه خلقاً، ويكون مفرقاً على الجسم لا مجتمعاً، يحصل بشيء خفيف كدرة ومنديل ملفوف، لا بسوط أو خشبة، فالمراد ليس الإيلام الجسدي، بل الإيلام الأدبي والتحقيق، كالحیوان الذي يساق بالضرب. والدليل على منع الضرب المبرح النص عليه في حديث عمرو بن الأحوص المتقدم «واضربوهن ضرباً غير مبرح» وحديث لقيط بن صبرة «ولا تضرب ظعنك ضربك لأمتك» وحديث عبد الله بن زمعة «يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد، فلعله يضاجعها من آخر يومه» وهو ما يفيد قوله «ولا تقبح» في حديث معاوية بن حيدة، على ما فهمه بعض الشراح.

ولو تعدى في ضربها فتلف عضو من أعضائها فعليه الضمان، كما ذكره القرطبي<sup>(١)</sup> ويكون حراماً لمخالفته الأحاديث.

٣- أن يكون الضرب في غير الوجه، بدليل النص عليه في حديث معاوية ابن حيدة المتقدم، حين سأل النبي ﷺ عن حق المرأة على الرجل، حيث قال «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت»<sup>(٢)</sup>. ذلك أن الوجه معرض للتشويه أكثر من غيره، لما فيه من الأعضاء والمناطق الحساسة الكريمة والهامة، فلو خالف وضرب الوجه كان حراماً لمخالفته لنص الحديث. ومثل الوجه المواضع الخطرة.

وهنا نتوجه إلى الناس بالنصح بعدم التطفل بسؤال الرجل عن سبب ضربه لزوجته، فربما كان ذلك أمراً يستحياً منه، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه،

(١) ج ٥، ص ١٧٢. (٢) رواه أبو داد بإسناد حسن - رياض الصالحين، ص ١٤٢.

قال ﷺ « لا يُسأل الرجل فيم ضرب امرأته »<sup>(١)</sup>، وعن الأشعث بن قيس قال: ضفت عمر فتناول امرأته فضربها، وقال: يا أشعث، احفظ عني ثلاثا حفظتهن عن رسول الله ﷺ « لا تسأل الرجل فيم ضرب امرأته، ولا تنم إلا على وتر... » ونسى الثالثة<sup>(٢)</sup>.

هذا، وقد قال القرطبي في تفسيره لآيتي التأديب من سورة النساء<sup>(٣)</sup>:  
اعلم أن الله عز وجل لم يأمر في شيء من كتابه بالضرب صراحاً إلا هنا وفي الحدود العظام، فساوى معصيتهن بأزواجهن بمعصية الكبائر وولى الأزواج ذلك دون الأئمة، وجعله لهم دون القضاة بغير شهود ولا بينات، ائتمناً من الله تعالى للأزواج على النساء. قال المهلب: إنما جوّز ضرب النساء من أجل امتناعهن على أزواجهن في المباضعة، واختلف في وجوب ضربها في الخدمة، والقياس يوجب أنه إذا جاز ضربها في المباضعة جاز ضربها في الخدمة الواجبة للزوج عليها بالمعروف. وقال ابن خويزمنداد: والنشوز يسقط النفقة وجميع الحقوق الزوجية، ويجوز معه أن يضربها الزوج ضرب الأدب غير المبرح، والوعظ والهجر حتى ترجع عن نشوزها، فإذا رجعت عادت حقوقها، وكذلك كل ما اقتضى الأدب فجائز للزوج تأديبها ويختلف الحال في أدب الرفيعة والدينئة، فأدب الرفيعة العذل، وأدب الدينئة السوط، وقد قال النبي ﷺ « رحم الله امرأً علق سوطه وأدب أهله » وقال « إن أباجهم لا يضع عصاه عن عاتقه، وقال بشار: الحر يُلحى والعصا للعبد. يلحى أى يلام. وقال ابن دريد: واللوم للحر رادع. والعبد لا يردعه إلا العصا. اهـ.

وعن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال « أنفق على عيالك من طَوْلِكَ، ولا

(١) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة - غذاء، ج ٢، ص ٢٣٢، وذكره القرطبي عن عمر، ج ٥، ص ١٧٣، رياض الصالحين، ص ٥١، رواه أبو داود عن عمر.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه « تفسير ابن كثير - واضر بوهن ».

(٣) ج ٥، ص ١٧٣، ١٧٤.

ترفع عنهم عصاك أدبا، وأخفهم في الله»<sup>(١)</sup>، وروى مثله عن ابن عمر، قال في مجمع الزوائد: وإسناده جيد، ثم قال الشوكاني: فيه أنه ينبغي لمن كان له عيال أن يخوفهم ويحذرهم الوقوع فيما لا يليق. ولا يكثر تأنيسهم ومداعبتهم، فيفضى ذلك إلى الاستخفاف به، ويكون سبباً لتركهم للآداب المستحسنة، وتخلقهم بالأخلاق السيئة<sup>(٢)</sup>.

وروى هذا الحديث بلفظ «علقوا السوط حيث يراه أهل البيت، فإنه أدب لهم» رواه الطبراني عن ابن عباس، وقد تقدم.

وليس المراد به - إن صح الحديث - الحث على الضرب والإرهاب، بل المراد حث الرجل على اليقظة وعدم التهاون في الخروج على الآداب.

ومن هذا العرض لموضوع الضرب يعرف أنه لا يرخص به إلا عند اللزوم، وما جاء من الذم له فالمراد به إذا كان لغير حاجة، كالأشياء التافهة، أو كان ضرباً لا تجتمع فيه الشروط المذكورة.

جاء في تقرير للباقورى وصلاح سالم عن جنوب السودان<sup>(٣)</sup>، أن ملك قبيلة الشلوك يقدسه الناس لدرجة العبادة، ويطلقون عليه اسم «مك» وله زوجات تبلغ الخمسين، ومن تقاليدهم ألا يجلس أحد ورأسه مرتفع عنده ولا يحاكم، وله وحده من بين الشلوك أن يضرب زوجته، فتتقدم منه وتركع على قدميه ليلهب ظهرها بالسياط.

هذا، وقد جاء في كتاب التشريع الجنائي لعبد القادر عودة<sup>(٤)</sup> ما ملخصه: أن المرأة تؤدب على المعاصى التي لا حد فيها، كمقابلة غير المحارم والخروج بغير إذنه وتبذير ماله، وله تعزيرها على ترك فرائض الله، كترك الصلاة، ولا تضرب لحوف النشوز قبل إظهاره، فهو - أى الضرب - لإظهار النشوز فعلاً.

(١) رواه أحمد عن معاذ مرفوعاً، وأخرج نحوه الطبرى فى الصغير والأوسط عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ «لا ترفع العصا عن أهلك وأخفهم فى الله عز وجل».

(٢) نيل الأوطار، ج ٦، ص ٢٢٤، ٢٢٥. (٣) آخر ساعة ٢١/١/١٩٥٣.

(٤) ج ١، ص ٥١٥، وما بعدها.

والتأديب بالضرب لأول عصيان قال فيه مالك وأبو حنيفة: إن الضرب لا يكون لأول معصية، بل يكون لتكرارها والإصرار عليها، فإذا عصت للمرة الأولى وعظها، وإن عادت كان له أن يهجرها، فإن عادت كان له أن يضربها. والدليل على ذلك هو ما تفيده الواو من الترتيب في قوله تعالى ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾. ويترتب على هذا الرأي أن الرجل لو خالف الترتيب فضرب أولاً يعاقب هو، وكذلك لو ضربها على المعصية الثالثة دون أن يسبق ذلك هجر ووعظ.

والرأي الثالث للشافعي وأحمد أنه من حقه ضربها، سواء تكررت المعصية أم لا، وسواء سبق ذلك وعظ وهجر أم لم يسبق، فالواو عندهم لمطلق الجمع لا للترتيب.

وحد الضرب ألا يكون مبرحاً: يؤلم ولا يكسر عظماً ولا يدمي لحماً، أو هو الذي لا يسوء الجسم ولا ينهر الدم، وأن يكون مما يعتبر مثله تأديباً، ويشترط ألا يكون على الوجه والمواضع الخطرة كالبطن وأن يكون بقصد التأديب، وألا يسرف فيه، وأن يكون مما يتعارف عليه في التأديب.

وهذا كله إذا كانت عقوبة لم تبلغ السلطات العامة، وإلا كانت السلطة هي صاحبة الاختصاص إذاً، فلا يجوز للرجل أن ينفرد هو بتأديب الزوجة عليها. وقالوا في جواز الضرب: يشترط ألا يغلب على ظنه أو يعتقد أن التأديب لا فائدة منه، وإلا كان عبثاً.

\* تنبيهه :

التأديب بوجه عام، وبالأساليب المذكورة بوجه خاص، لا يسمح به للزوج إلا إذا كان التقصير من جهة الزوجة فقط، بأن يكون موفياً لها جميع حقوقها المشروعة. فإن كان مقصراً فيها طوًلب هو أولاً بإصلاح نفسه. وهنا ننعي على أولئك الأزواج المقصرين في مطالب الزوجية، ثم يفرضون أنفسهم حكماً

مستبدين، إن قصرت الزوجة في بعض حقوقه عليها حاسبها الحساب العسير، وهذه وحشية لا تصلح معها الحياة الزوجية.

فإن كان مقصراً في حقوقها وجب إصلاحه. قال العلماء: لو آذاها بشتم بدون سبب، ونصحته فلم ينتصح كان لها أن تستعين على تقويمه ولو بالقاضى، وله أن ينهائه فقط، ولا يجوز أن يعزره، لأن التعزير يوجب الوحشة بينه وبين زوجته، فلو تكرر الشتم كان له أن يعزره، ولكن محل ذلك إذا طلبت هي تعزيره.

جاء في «الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع للخطيب»<sup>(١)</sup>: لو منع الزوج زوجته حقاً لها كقسم ونفقة ألزمه القاضى توفيته إذا طلبته، لعجزها عنه. فإن أساء خلقه وآذاها بضرب أو غيره بلا سبب نهاه عن ذلك ولا يعزره، فإن عاد إليه وطلبت تعزيره من القاضى عزره بما يليق لتعديه عليها.

وإنما لم يعزره في المرة الأولى، وإن كان القياس جوازه إذا طلبته، لأن إساءة الخلق تكثر بين الزوجين، والتعزير عليها يورث وحشة بينهما، فيقتصر أولاً على النهى، لعل الحال يلتئم بينهما، فإن عاد عزره. اهـ.

هذا، وإذا كان لم يؤذها، ولكن يكرها فقط لكرها أو لعقمها أو لمرضها مثلاً فلا شيء عليه، لكن يسن لها استعطافه بما يجب، كاسترضائه بترك بعض حقوقها له، أو بوسيلة أخرى ترى أنها تلين قلبه، ولباقة المرأة لها دخل كبير في ذلك. وفي مثل هذه الحالة نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

وروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها، فى سبب نزولها، أنها قالت: الرجل تكون عنده المرأة وليس بمستكثر منها، يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شأنى فى حل. وكانت هذه المرأة هى سودة بنت زمعة أم المؤمنين رضى الله عنها، أو خولة بنت محمد بن مسلمة زوجة رافع بن خديج، روى الترمذى عن

(١) ج ٢، ص ١٤٥.

ابن عباس قال : خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ ، فقالت : لا تطلقني وأمسكني ، واجعل يومى منك لعائشة . فنزلت الآية .

وروى مالك عن ابن شهاب عن رافع بن خديج أنه تزوج بنت محمد بن مسلمة الأنصارية ، فكانت عنده حتى كبرت ، فتزوج عليها شابة ، فأثر الشابة عليها ، أى بالحب والميل ، لا بالنفقة والقسم ، فناشدته الطلاق ، فطلقها واحدة ، ثم راجعها مرتين ، وهو على حاله فى محبة الشابة ، فقال لها أخيراً : إن شئت استقررت على ما ترين ، وإن شئت فارقتك ، قالت : بل أستقر على الأثرة ، فأمسكها على ذلك ، ولم ير رافع إثماً عليه حين قرت عنده على الأثرة . رواه معمر عن الزهري بلفظه ومعناه ، وزاد : فذلك الصلح الذى بلغنا أنه نزل فيه ﴿ وَإِنَّ امْرَأَةً خَافَتْ... ﴾ (١)

إن الزوجة لا تملك أن تؤدب الزوج ، فالقوامه له عليها ، لا لها عليه . ويشهد لذلك سبب نزول قوله تعالى ﴿ الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ وقد تقدم ذلك فى بحث الحجاب ، « ص ٨٨ » .

وملخص القصة أن سعد بن الربيع ، أحد نقباء الأنصار ، نشزت امرأته حبيبة بنت زيد ، فلطمها ، فانطلق أبوها إلى النبي ﷺ ، وقال له : قد لطم كريمة . فقال النبي ﷺ « لتقتص من زوجها » فانصرفت مع أبيها لتقتص منه ، فقال النبي ﷺ « ارجعوا ، هذا جبريل أتانى » ، فأنزل الله ﴿ الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ... ﴾ فقال النبي ﷺ « أردنا أمراً ، وأراد الله أمراً ، والذى أراد الله خير » . وقيل : نزلت فى جميلة بنت أبى وفى زوجها ثابت بن قيس بن شماس ، وقيل ، فى عميرة بنت محمد بن مسلمة وفى زوجها سعد بن الربيع ، وكانت له زوجتان .

وهذا حكم سليم ، فلو أعطيت المرأة حق ضرب زوجها لم يبق له احترام عندها ، وكيف تعيش مع رجل مهين ، وأى امرأة متحضرة لا تطالب أبداً بهذا الحق .

(١) تفسير القرطبي ، ج ٥ ، ص ٤٠٤ .

هذا فى حكم التقصير الذى يعرف من أحدهما، أما إذا قال كل منهما: إن صاحبه متعدد عليه، فقد قال الخطيب فى الإقناع<sup>(١)</sup>.

وإن قال كل من الزوجين: إن صاحبه متعدد عليه تعرف القاضى الحال الواقع بينهما بثقة يخبرهما، ويكون الثقة جارا لهما، فإن عدم أسكنهما بجنب ثقة، ليتعرف حالهما، ثم ينهى إليه ما يعرفه، فإذا تبين للقاضى حالهما منع الظالم منهما من عوده لظلمه، فإن اشتهر الشقاق بينهما بعث القاضى حكماً من أهله وحكماً من أهلها. اهـ.

قال تعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٥].

والحكمان لهما صفة الوكالة فى التطبيق وقبول العوض من جهته، والاختلاع من جهتها كما قال بعض العلماء، وقال البعض الآخر: لا تعطى لهما هذه الصفة، فهما حكمان لا وكيلان. والخلاف فى ذلك ومناقشته مبسوط فى كتب الفقه - انظر كتاب « زاد المعاد » لابن القيم.

وتوجه إلى الحكمين بالنصح بالإخلاص لله فى هذه المهمة، وبذل ما فى وسعهما لتقريب الشقة وإزالة أسباب الخلاف، والله يعينهما على مهمتهما ما دأما بهذه الروح الخالصة والنية الحسنة « إن يريدوا إصلاحاً يوفى الله بينهما » وقد أوفد عمر رضى الله عنه حكماً فى مثل هذه الحالة فرجع بدون جدوى، فعلاه بالدارة وأمره أن يرجع ويحسن نيته، تالياً عليه هذه الآية، فوفقه الله فى مهمته<sup>(٢)</sup>.

وهذا محمول على أن ضمير « يريدوا » راجع إلى الحكمين، وعليه فضمير « بينهما » يجوز عودته إليهما، أى يوفى الله الحكمين فى مهمتهما، أو إلى الزوجين، أى يوفى الله فى حياتهما المستقبلية بعد هذا النزاع، وحمل بعض العلماء الضمير الأول على الزوجين، وعليه فيجوز حمل الضمير الثانى على الحكمين أو على الزوجين. وكل حسن، وتحتمله الآية. ويؤيده الواقع، وسيعالج هذا الموضوع أيضاً فى بحث الطلاق.

\* \* \*

(٢) الإحياء، ج ٢، ص ٤٥.

(١) ج ٢، ص ١٤٥.

## الفصل السادس

### المحافظة على مالها

بينت في بحث الحجاب مدى احترام الإسلام لإنسانية المرأة بمثل إعطائها حق التملك والتصرف الحر فيما تملكه، مثلها في ذلك مثل الرجل « ص ٣٩٠ » كما أشرت إلى الوضع المهين الذي كانت عليه في الشرائع الأخرى، وذكرت أن التشريعات الحديثة لم تعطها هذا الحق، إلا منذ فترة وجيزة، واستشهدت على ذلك بالمادة ٢١٧ من القانون الفرنسي، وتقدم في هذا الكتاب ما نقلته عن مجلة الأمل<sup>(١)</sup>.

لقد كانت المرأة في الجاهلية ليست أهلاً للتملك ولا للميراث، بل كانت هي نفسها تورث، طمعاً فيما قد يكون زوجها خلفه من مال، أو طمعاً في افتداء نفسها من وليها بما يطلب من مال، فقد ذكر المفسرون في سبب نزول قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ [النساء: ١٩] - كما سبق أن أشرت إليه في بحث الحجاب - « ص ٣٩١ » أن الرجل كان يرث زوجة قريبه إن توفى عنها، وذلك بإلقاء ثوب عليها أو على خبائها، فيصير أحق بها، إن شاء تزوجها بغير صداق، لأن مورثه أصدقها من قبل، وإن شاء زوجها من غيره وأخذ المهر كله، أو عضلها لتفتدى بما ورثته أو تموت هي حتى يرثها، وذلك كله إذا لم تسرع هي باللحاق بأهلها قبل إلقاء الثوب عليها، وإلا كانت أحق بنفسها، واستمر ذلك حتى توفى

(١) تراجع مجلة الأزهر، عدد شوال ١٣٧١هـ، كتاب مركز المرأة وقانون حمورابي، ص ٨٩، وما بعدها.

أبو قيس بن الأسلت الأنصارى وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له حصن، وقيل: قيس، فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها، ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها، يضارها بذلك لتفتدى بما ورثت، فأتت كبيشة رسول الله ﷺ وقصت عليه هذا الخبر، فنزلت الآية المذكورة.

وقد أوجب الإسلام على الزوج أن يحافظ على مال زوجته، وحرّم عليه أن تمتد إليه يده مهما كان مصدر تملكها له وهو مستهدف بهذا الحق غرضين كريمين:

(أ) تقرير مبدأ الحرية لها في التملك والتصرف، ووقف الأطماع والحيل الأثيمة التي كان الزوج يحوكها ليستولى على ثروتها، كما كانت تفعله الجاهلية، وعلى الأخص إذا كانت المرأة يتيمة، على ما هو مبين في الجزء الرابع من هذه الموسوعة، من حرصه على زواجها ليستولى على مالها، أو عدم دفع صداقها، وفي ذلك نزل قوله تعالى ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ [النساء: ١٢٧].

وكان من مظاهر هذه الحيل «العضل» وهو إمساك المرأة على هون، لتفتدى نفسها منه، فإن أبت طلقها رجعيًا، حتى إذا أوشكت عدتها على الانتهاء راجعها ثم طلقها، وهكذا، وقد نهى الله عنه بقوله ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبُغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا ﴾ [البقرة: ٢٣١]. والمراد ببلوغ الأجل قرب انتهاء العدة، والمراد بالاعتداء الاستيلاء على أموالهن عند الافتداء، وبقوله في آية أخرى سبق ذكرها ﴿ وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ ﴾ [النساء: ١٩]. وقد نسخ مضمون الاستثناء، فإن العضل منهي عنه في كل الأحوال. وبقوله ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

[٢٢٩]، أى لا حرج على المرأة عند الخلع أن تدفع إليه شيئاً مما أخذته منه، بمحض اختيارها، ولا حرج عليه فى قبول ذلك ، كما اختلعت جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول ، من زوجها ثابت بن قيس ، بالحديقة التى أصدقها إياها ، فردتها عليه، لأنها كرهت الإقامة معه خشية أن تقع فيما يقتضى الكفر بالله أو الكفران لعشرته، وقد أذن النبي ﷺ لها فى ذلك، بهذه الآية الكريمة، كما هو موضح فى بحث الطلاق<sup>(١)</sup>.

وعندما حرم الإسلام على الزوج التعدى على ما لها، نبه بنوع خاص على المهر الذى هو مظنة الطمع، لأنه هو الذى دفعه، فقد يجول بخاطر بعضهم أن المرأة استتمعت بالزواج كما استمتع الرجل، فأى معنى لهذا الصداق، وبأى وجه استحقته؟ فيحتال على استرداده كله أو استرداد بعضه، أو إسقاط ما ثبت فى ذمته، ولم ينس أن الإسلام جعل الصداق نحلة منه، تطيباً لنفسها التى أذلتها بافتراشه لها، وقد كانت الحريصة كل الحرص على ألا تمتد إلى حمى بضعها أية ماسة حتى بالقولة البسيطة، بَلَّهَ الْيَدِ وَغَيْرَهَا، قال تعالى ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتَانًا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا \* وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢٠، ٢١]. والافضاء هو الجماع أو الخلوة المفضية إليه، والميثاق الغليظ هو ما أخذه الله على الرجال من الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان، وقد أسند أخذه إلى النساء مجازاً، لعلاقة السببية، وقال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ [النساء: ٤]، وتحريم التعدى عليه مأخوذ بطريق المفهوم، فمنطوق الآية أن أخذه جائز عند طيب أنفسهن، ومفهومها أنه لا يجوز عند عدم طيب أنفسهن، وذلك هو التعدى.

وإذا علم أن اغتصاب شىء من المهر حرام، فغيره من باب أولى، ويقول

(١) الزبيدى، ج ٣، ص ٢٦٣.

الرسول ﷺ «أبما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها، خدعها فمات ولم يؤد إليها حقها، لقي الله يوم القيامة وهو زان» (١).

(ب) والغرض الثاني من تحريم مال الزوجة على الزوج، رفع قيمته وتكميل رجولته وتحقيق قوامته عليها، فإن الله قد جعله سيداً، والإنسان عبد عند الإحسان، إن امتدت يده إلى مالها منت عليه، وحاولت أن تعوض ما أخذه منها في تدلل وشطط، وتقدم عليه، وإملاء للرغبات ومعارضة آرائه، وغريزة الإعجاب بما فيها من انفعال الزهو طبع عليها كل إنسان، فكيف إذا وجد ما يقويها ويبرزها في أعظم صورة؟

والرجل، بعنوان الرجولة، وبوصف أنه زوج، يجب عليه أن يحافظ على هذه المنحة التي منحها الله له، ولا يكون سبباً في نزع هذا الشرف منه أو تشويه جماله، وقد رأينا أن الخلق العربي الذي صقلته تعاليم الإسلام السامية يأبى على صاحبه أن يكون أسير زوجته في هذه الناحية المادية، فإن بعض الصحابة كان في حالة فقر شديد يستحق معها أن يأخذ من الزكاة، وكانت زوجته ذات ثراء وجبت فيه الزكاة، والرجل مع ذلك عف النفس لم يحتل أبداً، ولم يطمع يوماً أن يلوث يده ونفسه بشيء من مال الزوجة، ففيه تلويث لرجولته ومروءته وكرامته، وفيه مخالفة لأمر الله له بالتعفف عن مالها، وقد أرادت الزوجة أن تعطيه من الزكاة بعد استفتاء رسول الله ﷺ، وعرضت عليه أن يذهب هو إليه ليسأله عن حكم صدقة الزوجة على زوجها، فأبى كل الإباء أن يسعى في طريق فيه نفع له، خوفاً على كرامته العربية التي زادها الإسلام قوة، وقال لها: اذهبي أنت إلى رسول الله ﷺ واسأليه.

ذلك هو عبد الله بن مسعود مع زوجته زينب، وإليك هذه القصة:

(١) رواه الطبراني بسند رجاله ثقات عن ميمون الكردي عن أبيه - الترغيب، ج ٢، ص ٢٣٥، ج ٣، ص ٧.

روى البخارى ومسلم عن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضى الله  
 عنهما قالت: قال رسول الله ﷺ « تصدقن يا معشر النساء ولومن حليكن »  
 قالت: فرجعت إلى عبد الله بن مسعود فقلت له: إنك رجل خفيف ذات اليد،  
 وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة، فأتته فاسأله، فإن كان ذلك يجزىء عنى،  
 وإلا صرفتها إلى غيركم، فقال عبد الله: بل ائتيه أنت، فانطلقت فإذا امرأة من  
 الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتى حاجتها، وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت  
 عليه المهابة، فخرج علينا بلال، فقلنا له: ائت رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين  
 بالباب تسألانك: أتجزىء الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام فى  
 حجورهما؟ ولا تخبره من نحن، فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله، فقال  
 رسول الله ﷺ « من هما؟ » قال: امرأة من الأنصار وزينب، فقال رسول الله ﷺ  
 « أى الزينب هى؟ » قال: امرأة عبد الله بن مسعود. فقال رسول الله ﷺ « لهما  
 أجران، أجر القرابة وأجر الصدقة »<sup>(١)</sup>.

هذه التربية الإسلامية وضع أساسها رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها، فإنه  
 كان تاجراً فى مال خديجة عندما اشتد الحال على ذويه، ولكن تلك التجارة لم  
 تكن استغلالاً فيه منة، بل كان على وجه القراض أو المضاربة، وهى العمل فى  
 مال الغير على نسبة معينة من الربح، وفيه تظهر الجدارة والذكاء والأمانة، وكان  
 الرسول عليه الصلاة والسلام فى ذلك وفى غيره خير مثال.

وسياتى فى بحث الطلاق بيان الحالة التى يجوز للرجل فيها أن يأخذ من  
 مال زوجته وهى حالة الخلع!

\* \* \*

(١) رياض الصالحين، ص ١٥٦.

## الفصل السابع

### تسليتها

هذا الحق للزوجة، كما قدمنا، تعويض لها عن غربتها، وإيناس لها بعد بُعدها عن أبويها وذويها، وتهيئة لنفسها أن تألف العش الجديد الذي لم تعرفه من قبل، وهذا أمر لازم لها بشدة في الأيام الأولى لزواجها حتى تتكيف مع الجو الجديد، وهنا تظهر شخصية الرجل المرحه وتسفر عن وجهها أخلاقه الكامنة في نفسه.

ولهذا الإيناس مظاهر كثيرة، تجدد منه أشياء فوق ما هو موجود في العهود السابقة، فلكل زمان ما يناسبه، ولكل بيئة ما يتفق معها، غير أن هناك بعض المظاهر التي تكاد توجد في كل بيئة وعصر، منها:

#### ١- المزاح والملاطفة:

وهو أمر مهم يجذب قلب المرأة نحو الرجل، ويزيد من شوقها إليه وأنسها به، وهو سنة مأثورة عن النبي ﷺ، إلى جانب ما تشهد به الطبيعة ويؤكداه الواقع.

وهذه الملاطفة قد تكون بالقول وقد تكون بالفعل، وقد تحدث الإمام الغزالي في كتابه الإحياء<sup>(١)</sup> كما تحدثت عنه كتب الأدب القديمة، ونقلت منه طرفاً كثيرة، وكذلك الكتب والمؤلفات الحديثة<sup>(٢)</sup>.

(١) ج ٣، ص ١١٠.

(٢) العقد الفريد، ج ١، ص ٢٠٥، ٢٠٦، ج ٢، ص ١٠٤، زهر الآداب للحصري على هامش العقد، ج ١، ص ١٦٥ - ١٧٨، ج ٢، ص ٧٧ - ١٧٥، مجلة الهلال، عدد ١٤ من السنة الرابعة، مجلة السينما، مجلد ٤ عدد ١٠، معرض الإسلام، ج ٢، ص ٣٤.

(أ) ثبت عن عائشة رضی الله عنها أنها كانت إذا تَعَرَّقَتْ عَرَقًا، أى أخذت بفمها اللحم الموجود على العظم، أخذته النبي ﷺ فوضع فمه على موضع فمها، كما رواه مسلم<sup>(١)</sup>، كما ثبت عنها أنها كانت إذا شربت من الإناء أخذته فوضع فمه على موضع فمها وشرب<sup>(٢)</sup>.

(ب) وثبت أنه كان يتكئ في حجرها وهي حائض<sup>(٣)</sup>، كما كان يقبلها وهو صائم، كما رواه البخارى ومسلم<sup>(٤)</sup>. وروى أنه كان يمص فمها وهو صائم، كما رواه أبو داود عن مصدع بن يحيى عن عائشة. وقد اختلف في مصدع والاحتجاج به، وقد تفرد بعبارته « يمص لسانها » محمد بن دينار أحد رواة. وجاء في زاد المعاد لابن القيم<sup>(٥)</sup>، روى أبو داود في سننه أنه ﷺ كان يقبل عائشة ويمص لسانها، ويذكر عن جابر بن عبد الله أنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن المواقعة قبل الملاعبة.

وقد تعلق الظاهرية بحديث أبي داود وجعلوا تقبيل المرأة سنة للصائم، وأنه من القرب. لكن الجمهور كرهها، وحرمها الشافعي، لأنها مظنة الإنزال أو الجماع. وردوا على الظاهرية بما صرحت به عائشة في رواية البخارى ومسلم بلفظ « وكان أملككم لأربه ». والأرب روى بفتح الهمزة والراء، وروى بكسر الهمزة، ومعناه الحاجة، وقيل معناه عند كسر الهمزة الفرج وهو الذكر، والمراد من ذلك كله أن النبي ﷺ كان أضبط الناس لشهوته.

(ج) سُئِلَتْ عائشة رضی الله عنها: كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته؟ فقالت: كان ألين الناس بساما ضحاكا، كما رواه ابن سعد وغيره<sup>(٦)</sup>.

(د) عندما تزوج جابر ثيبا قال له النبي ﷺ « هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك » كما رواه البخارى ومسلم، وقد سبق ذكره في بحث اختيار الزوجين.

(١) ج ٣، ص ٢١٠، ٢١١، وتفسير ابن كثير، ص ٣٧٩ والمواهب اللدنية، ج ١، ص ٢٩٦.

(٢) المرجع السابق. (٣) رواه مسلم، ج ٣، ص ٢١١.

(٤) مسلم، ج ٧، ص ٢١٨ والمواهب ج ١، ص ٢٩٦. (٥) ج ٣، ص ١٤٧.

(٦) الزرقانى على المواهب، ج ٤، ص ٢٦٢.

(هـ) عن عائشة قالت : خرجت مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن، فقال للناس تقدموا، فتقدموا، ثم قال « تعالي حتى أسابقك » فسابقته فسبقته، فسكت عني حتى حملت اللحم وبدنت وسمنت، خرجت معه في بعض أسفاره فقال للناس « تقدموا » ثم قال « تعالي أسابقك » فسبقني، فجعل يضحك ويقول « هذه بتلك » رواه أحمد واللفظ له، وروى بعضه أبو داود والنسائي وابن ماجه بسند صحيح (١).

(و) ذكر ابن القيم في زاد المعاد (٢) أنه ﷺ كان يتكئ في حجر عائشة ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها، وربما كانت حائضاً، وذكر أنهما تدافعا في بعض المرات عند خروجهما من المنزل، وأن عائشة كانت إذا هويت شيئاً لا ضرر فيه وافقها عليه.

فلعل هذه النصوص وما يماثلها تخفف من ترمت أولئك الذين حسبوا أن الحياة كلها جد، وأن الأخلاق التي يظهر بها أمام المجتمع هي التي تعامل بها المرأة. فهذا هوذا رسول الله ﷺ وتلك سيرته مع أزواجه، وها هوذا زيد بن ثابت الذي كان من أفكه الناس إذا خلا بأهله، وأزمتهم إذا كان في القوم (٣) وحسبك قول النبي ﷺ « إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله ». رواه الترمذى والحاكم وصححه عن عائشة. وقال الترمذى: حديث حسن. وروى قريباً منه ابن حبان في صحيحه، والترمذى عن أبي هريرة، وقال: حسن صحيح (٤)، وقوله أيضاً « ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتُل جواز متكبر » رواه البخارى ومسلم من حديث جارية بن وهب الخزاعي (٥). وفي رواية أبي داود « لا يدخل الجنة الجواز ولا الجعظرى » (٦). وفسر الجواز بالجموع المنوع، وقيل: الضخم المحتال في مشيته، وقيل: القصير البطين، كما فسر العتل بالغلظ الجافى، والجعظرى فسر بأنه الشديد على أهله المتكبر في نفسه.

(١) المرجع السابق، ص ٢٦٩.  
 (٢) أسد الغابة - ترجمته.  
 (٣) الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٨.  
 (٤) الترغيب، ج ٣، ص ٢٢٣.  
 (٥) رياض الصالحين، ص ١٣٢.  
 (٦) الترغيب، ج ٣، ص ٢٢٣.

إن الرجل القوي الشجاع، على الرغم من شجاعته وقوته، تنفر منه المرأة إن لم يغير من طبعه، ويلبس لها ثوباً آخر غير ما يلبسه في ساحة القتال ومع الرجال، وقد تقدم في بحث الحجاب قول معن بن زائدة:

نحن قوم تذيينا الحدقَ النُّجْلُ      على أننا نذيب الحديداً  
وترانا عند الكريهة أحرارا      وفي السلم للغواني عبيداً

ذكر الأبيشيهي في كتابه «المستطرف من كل فن مستظرف»<sup>(١)</sup> أن رجلاً من بني سعد مرت به جارية اسمها «سكة» وهي لأمية بن خالد بن عبد الله بن أسد، ذات ظرف وجمال، وكان شجاعاً فارساً، فلما رآها قال: طوبى لمن كان له امرأة مثلك!! ثم أتبعها رسولاً يسألها: ألك زوج، ويذكره لها، وكان جميلاً. فقالت للرسول: وما حرفته؟ فأبلغه الرسول ذلك، فقال: ارجع إليها وقل لها:

وسائلة: ما حرفتى، قلت حرفتى      مقارعة الأبطال فى كل شارق  
وضربى طلا الأبطال بالسيف معلماً      إذا زحف الصفان تحت الخوافق  
إذا القوم نادونى: نزال، رأيتنى      أمام رجيل الخيل أحمى حقائقى  
أصبر نفسى حين لا حرّاً صابر      على ألم البيض الرقاق البوارق

فلحقها الرسول وأنشدها ما قال، فقالت له: ارجع إليه وقل له: أنت أسد فاطلب لك لبؤة، أو إني ظبية أحتاج إلى غزل، فليست من نسائك، وأنشدته تقول:

ألا إنما أبغى جواداً بماله      كريماً محيياً كثير الصدائق  
فتى همه مذ كان خود خريدة      يعانقها فى الليل فوق النمارق

وجاء فى كتاب «أعلام النساء» لعمر كحالة: أن الجارية كانت لأمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وأن الذى خطبها هو ثمامة العوفى، ولما سألت ابن أخيه الذى خطبها عن حرفته قال له عمه: قل لها.. [الآبيات فيها بعض خلاف بين المصدرين].

(١) ج ٢، ص ١٨٧.

وقد مر عدم قبول المرأة لخالد بن صفوان، على الرغم من حسبه وغناه .  
 إن تلك الممازحة والملاطفة للزوجة ليست من اللهو العابث الذي يضيع به  
 وقت الزوج سدى، فحسبه هذا الضمان الإلهي الذي بينه الرسول ﷺ في قوله  
 « كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه لفرسه، وملاعبته  
 لامراته، فإنهن من الحق » رواه أحمد عن عقبه بن عامر، وذكره البغوي في  
 مصابيح السنّة، وأصحاب السنن الأربعة، قال العراقي: وفيه اضطراب<sup>(١)</sup> وفي  
 رواية عن عطاء بن رباح « كل شيء ليس من ذكر الله عز وجل فهو لهو أو سهو،  
 إلا أربع خصال، مشى الرجل بين الغرضين، وتأديبه لفرسه، وملاعبته أهله  
 وتعليمه السباحة » رواه الطبراني بإسناد جيد<sup>(٢)</sup>. وروى أن النبي ﷺ قال « إن  
 الرجل إذا نظر إلى امرأته ونظرت إليه نظر الله إليهما نظرة رحمة، فإذا أخذ بكفها  
 تساقطت ذنوبهما من خلال أصابعهما »<sup>(٣)</sup>.

هذا، وإذا كان الدين يحثك على ملاطفة أهلك فإنه ينبغي ألا يجرك هذا  
 إلى الإفراط فيه، فاستبق لنفسك مهابة في نظرها واحتراماً لشخصيتك بقدر، ولا  
 يفلت منك الزمام فتكبوبك الفرس الجموح، وتقدمت كلمة الشافعي فيمن إذا  
 أكرمتهم أهانوك .

## ٢- المبيت معها :

إن النوم مع الزوجة في بيت واحد أو فراش واحد أمر يختلف باختلاف  
 الناس في شعورهم الخاص، أو في نظرتهم إلى الزواج، أو في اتباع العرف السائد  
 في البيئة أو العصر، غير أنه لا يُختلف في أن مضاجعة الزوجة أو القرب من  
 جانبها، خصوصاً في الأيام الأولى للزواج. أمر يدعو إليه الطبع، وتأنس به  
 النفس، وهو أدعى لذهاب وحشتها، وأشدّ جذباً لقلبها. وبعد مدة من مبدأ

(١) الإحياء، ج ٢، ص ٢٥٢ . (٢) الترغيب، ج ٢، ص ١٠١ .

(٣) رواه ميسرة بن علي في مشيخته والرافعي في تاريخه عن أبي سعيد، وهو ضعيف كما  
 قال الالباني على الجامع الصغير .

الزواج قد يقرر كل منهما ما يراه، مساعداً على دوام وفاقهما وانسجامهما، وكثير من العصريين يرى أن اختصاص كل منهما بفرش يحافظ على دوام الشعور الطيب بينهما. وذلك لأن النوم مظنة لإظهار أمور أو وقوع أحداث اضطرارية لا يحب أحدهما أن يطلع عليها الآخر، أو تصدر منه، أو لأن دوام المضاجعة قد يورث الملل، ويجعلها مألوفة ليست لها جاذبيتها كما كانت في الأيام الأولى، وهذه الفكرة ليست حديثة بل قديمة.

ذكر ابن قتيبة في عيون الأخبار<sup>(١)</sup> وابن الجوزي في «آداب النساء»<sup>(٢)</sup> أنه روى عن عامر بن الظرب، وكان من حكماء العرب، أنه قال لزوجته: مرى ابنتك أن تكثر من استعمال الماء، فإنه أطيب الطيب، وألا تكثر من مضاجعة زوجها، فإن الجسد إذا ملّ ملّ القلب، ولتخبيء سواتها منه. ويعلق ابن الجوزي على ذلك بقوله: وهذا عين الصواب. فإن الفرج مستقبح الصورة من الزوجين، والاطلاع على بعض العيوب يقدر في المحبة، فلهذا ينبغي لهما جميعاً الحذر من ذلك، ولهذا نرى الأكابر ينامون منفردين، لعلمهم أن النوم يتجدد فيه مالا يصلح.

ولكن ما رأيك فيما ورد أن النبي ﷺ كان ينام مع زوجاته؟ ذكره صاحب المواهب اللدنية<sup>(٣)</sup>، وقد علق عليه النووي بقوله: وهو ظاهر فعله الذي واطب عليه، مع مواظبته على قيام الليل، فينام مع إحداهن، ثم إذا أراد القيام بوظيفته قام وتركها، فيجمع بين وظيفته وأداء حقها من عشرتها بالمعروف. وقد علم من هذا أن اجتماع الزوج مع زوجته في فراش واحد يراعى فيه مقتضى الحال، فإن كان ذلك في وقت يحتاجان فيه إلى الألفة كان خيراً، ولكن لا يلزم منه الجماع. وهذا يختلف باختلاف الناس والأحوال.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا اغتسل من الجنابة يجيء فيستدفيء بي، فأضمه إليّ، وربما كنت لم أغتسل بعد، فإذا دفئ قممت

(٢) غذاء الألباب، ج ١، ص ٨٠.

(١) ج ٤، ص ٧٦.

(٣) ج ١، ص ٢٩٥.

فاغتسلت، رواه أبو داود . وفي صحيح مسلم في كتاب الحيض ما يدل على نومه ﷺ مع زوجاته حتى في وقت الحيض في لحاف واحد، وروى أبو داود عن عائشة: كنت أنا ورسول الله ﷺ نبيت في الشعار الواحد وإني حائض طامث، فإن أصابه منى شيء غسل مكانه لم يعدّه (١).

### ٣- عدم السهر خارج المنزل :

لا ينبغي أن يكثر الزوج من السهر خارج المنزل أو البعد عنه، وكذلك عدم تناول الطعام دونها، إلا للحاجة، فإننا نعلم أثر ذلك في نفسية الزوجة، وليس من حسن العشرة أن يتركها تتلظى بنار الوحشة والانتظار، وهي أحوج ما تكون إلى من يؤنسها في هذا الوقت الذي يركن فيه كل حبيب إلى حبيبه، والأنس الذي يقصده من السهر مع رفقاءه هو بعينه ما يشعر به قلبها، وتميل إليه نفسها، فليكن كل منهما مؤنس لصاحبه، يسمر معه في براءة ومنتعة حلال، فالسهر في البيت معها يوفر عليه ماله وصحته، ويوثق العروة التي تربط بين قلبيهما، ويشيع في الأسرة جو الألفة والثقة، والاجتماع على الطعام مظنة البركة والرحمة، يجعل الطعام أهناً وأمراً، وهو في الوقت نفسه أوفر، ولا معنى لغذاء البدن إن لم يكن هناك غذاء للروح، الذي يسهل سبيله بالاجتماع بين القلوب الحبيبة والنفوس المؤتلفة .

يقول ﷺ فيما يرويه مسلم عن جابر « طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية » (٢) . وفي بحث منزلة المرأة في غير الإسلام مظاهر تدل على احتقار المرأة وعدم تناول الطعام مع زوجها، وهو نابع من عدم اعتبارهم لأهليتها في مثل هذا التكريم .

في صحيح مسلم بشرح النووي أن جاراً فارسياً للنبي ﷺ كان طيب المرق، فصنع له طعاماً ودعاه لياكله، فعرض عليه النبي ﷺ دعوة عائشة معه، فرفض الرجل عدة مرات، ورفض النبي ﷺ بالتالي الإجابة بدونها، فدعاها وذهب

(١) تفسير ابن كثير، ص ٣٧٩ . (٢) ج ١١، ص ٢٢ .

معاً إليه . قال العلماء: إن النبي ﷺ أراد أن تكون عائشة معه لتشاركه الطعام لإحساسه بجوعها، وكان الرجل يريد توفيره للنبي ﷺ وحده، لأنه قليل لا يكفى غيره<sup>(١)</sup>.

#### ٤- التزاور:

التزاور ذو شقين، الأول السماح للغير بزيارتها في بيتها، والثاني السماح لها بزيارة الغير في بيته، ولا شك أن التزاور بوجه عام يزيد من قوة الرابطة الاجتماعية، وهو مطلوب للشرع، جاء الحث عليه في نصوص كثيرة من أقواها، أن النبي ﷺ قال «إن رجلاً زار أخاً له في قرية، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لى في هذه القرية قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا، غير أنى أحبته في الله، قال: فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحبته فيه»<sup>(٢)</sup>، والمدرجة هى الطريق ومعنى «تربُّها» تقوم بها وتسعى فى صلاحها. وقال أيضاً «من عاد مريضاً أو زار أخاً له فى الله ناداه مناد بأن طبت وطاب ممشاك، وتبوات من الجنة منزلاً»<sup>(٣)</sup>. وقال أيضاً «قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتى للمتحابين فى، وللمتجالسين فى، وللمتزاورين فى، وللمتبادلين فى»<sup>(٤)</sup>.

وهذه الزيارة مسنونة للرجال والنساء، ولا شك أن التزاور بين المرأة وغيرها، وبخاصة مع بنات جنسها، يدخل الأنس على نفسها، وسماح الزوج به من المعاشرة بالمعروف.

وفى الشق الأول من التزاور يأتى الحديث الذى رواه مسلم عن عائشة<sup>(٥)</sup> وفيه: وكانت تأتىنى صواحبى، فكن ينقمعن- يختفين- من رسول الله ﷺ،

(١) ج ١٣، ص ٢١٠. (٢) رواه مسلم عن أبى هريرة.

(٣) رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه، و ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة.

(٤) رواه مالك بإسناد صحيح وابن حبان عن معاذ بن جبل.

(٥) ج ١٥، ص ٢٠٤.

فكان رسول الله ﷺ يُسَرِّبُهُنَّ إِلَى - يرسلهن - ، وسيأتى حديث الجاريتين المغنيتين عندها .

وفى الشق الثانى يأتى إِيذَنَهُ ﷺ لِأَزْوَاجِهِ بِزِيَارَةِ أَهْلِهِنَّ وَكَانَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ عَلَى ذَلِكَ ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ .

غير أنى أنبه إلى وجوب المحافظة على حدود الشرع فى ذلك، من جهة العورات والخلوات والكلام وما إلى ذلك مما سبق تفصيله فى بحث الحجاب، كما أنبه على أن يكون الوسط الذى يزور وسطاً يغلب عليه الخير والأمن، فإن زيارة الأشرار كميكروب المرض يعدى بسرعة، والطبع سراق، والتقليد غريزة فى النفس، والاستهواء له قوته، ومجال الجاذبية فى عدوى الأخلاق واسع .

والمعروف أن مجالس النساء يكثر فيها الحديث عن الشئون الزوجية لمعرفة الأسرار، وعن الأمور المنزلية وما يجرى منها مع من فيها، وكثيراً ما يقصد به النقد والتجريح، أو الإغراء، وقلَّ أن يقصد منه استفادة خبرة، أو تجربة تصلح بها الحياة الزوجية، وكم من مشكلات حدثت أو تعقدت بسبب هذه الزيارات، وحسبك دليلاً على ذلك - بعد دليل الواقع - حديث أم زرع، الذى وصفت فيه كل امرأة زوجها بما تتشوف النساء لمعرفة، ولطرافة هذا الحديث أنقله لك من صحيح مسلم<sup>(١)</sup> .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : جلس إحدى عشرة امرأة، فتعاهدن وتعاقدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً .

قالت الأولى : زوجى لحم جمل غث، على رأس جبل، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل . والمراد أنه قليل الخير لعدة وجوه، منها كونه كلحم الجمل لا كالضأن، وأنه مع ذلك غث مهزول ردىء، وأنه صعب التناول لا يوصل إليه إلا بمشقة شديدة . وقيل : إن معناه أنه يترفع ويتكبر، ويسمو بنفسه فوق موضعه كثيراً، أى أنه يجمع إلى قلة خيره تكبره وسوء خلقه . ومعنى : لا سمين فينتقل،

(١) ج ١٥، ص ٢١٢ .

تنقله الناس إلى بيوتهم ليأكلوه، بل يرغبون عنه لرداءته . وفى رواوية : فينتقى،  
أى يستخرج نقيّه، وهو المخ .

وقالت الثانية: زوجى لا أث خبره، إني أخاف ألا أذره، إن أذكره أذكر  
عُجْرَه وبُجْرَه . والمراد أن خبره طويل لا يستطاع حصره، أو تخشى ذكر عيوبه  
فيطلقها، أو تخشى أن يطلقها فتتركه، وأرادت بالعجر والبجر عيوبه الباطنة  
وأسواره الكامنة . وأصل العجر أن ينعقد العصب أو العروق حتى تراها ناتئة من  
الجسد . والبجر نحوها، إلا أنها فى البطن خاصة .

وقالت الثالثة: زوجى العَشْتَقُ، إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلّق . والمعنى  
أنه ليس فيه إلا طوله الذى لا فائدة فيه، فإن ذكرتُ عيوبه طلقنى، وإن سكتُ  
علّقنى، أى تركنى لا عزباء ولا مزوجة .

وقالت الرابعة: زوجى كَلَيْلُ تَهَامَةَ، لا حر ولا قر، ولا مخافة ولا سامة . وهى  
تمدحه بأنه ليس فيه أذى كليل تهامة، لا حر مفرط، ولا برد مفرط، ولا أخاف  
غائلةً لكرم أخلاقه، ولا يسأمنى ويميل صحبتى .

وقالت الخامسة: زوجى إن دخل فهد، وإن خرج أسد، ولا يسأل عما  
عهد . تمدحه بكثرة النوم فى منزله، لا يهتم بما ذهب من متاعه وما بقى، فهو  
كالفهد فى كثرة نومه، وعند خروجه كالأسد شجاعة، فهو بين الناس أو عند  
الحرب كالأسد .

وقالت السادسة: زوجى إن أكل لف، وإن شرب اشتف، وإن اضطجع  
التف، ولا يولج الكف ليعلم البث، اللف فى الطعام الإكثار منه، مع التخليط من  
صنوفه . والاشتفاف فى الشرب استيعاب جميع ما فى الإناء، مأخوذ من الشُّفَافَة،  
وهى ما بقى فى الإناء من الشراب . ولا يولج الكف ليعلم البث، قيل: مدح بأنه  
لا يتحسس العيب الذى كان بجسدها لمروءته، لأن البث هو الحزن . وقيل ذم له  
بأنه يلتف فى ثيابه عند النوم، ولا يضاجعها ليعلم ما عندها من حب، فالبث هو  
محبته الدنوّ منه .

وقالت السابعة: زوجى غياياء أو عياياء طباقاء، كل داء له داء، شَجَّكَ أو قَلَّكَ، أو جمع كلاً لك والغياياء أو العياياء هو الذى لا يلقح، أو العين الذى تعييه مباحضة النساء وقيل: الغياياء مأخوذ من الظلمة، والمراد ثقل روحه، وقيل: من الغي، أى كثرة الشر أو الخيبة؛ وأما طباقاء فمعناه المطبقة عليه أموره حمقا، ومعنى شَجَّكَ جرح رأسك، وفَلَّكَ كسرك وضربك. ومعنى كل داء له داء، اجتمعت فيه أدواء الناس.

وقالت الثامنة: زوجى الريح ريح زرنب، والمسُّ مسُّ أرنب، أى طيب الريح، وقيل: كناية عن حسن الخلق ولين الجانب.

وقالت التاسعة: زوجى رفيع العماد طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد. تمدحه برفعة شأنه كعماد البيت، أو كرمه لمعرفة الناس كبيته العالى، وطويل القامة لطول حمائل سيفه، وهو كريم لكثرة رماد ناره التى يطبخ بها للضيوف، أو توقد لهداية الضيفان، والناد المنتدى ومجلس القوم. وقرب البيت منه دليل الكرم.

وقالت العاشرة: زوجى مالك وما مالك؟ مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، إذا سمعت صوت المزهر أيقن أنهم هوالك. والمعنى أن إبله كثير بركة بفنائهم لإكرام الضيوف بنحرها ولبنها، والضرب بالعود وبالشراب، فإذا سمعت الإبل ضرب المزهر أيقن أنهم سيدبحن للضيفان.

وقالت الحادية عشرة: زوجى أبو زرع فما أبو زرع؟ أناس من حلى أذنى، وملا من شحم عضدى، وبجحنى فبجحت إلى نفسى، وجدنى فى أهل غنيمة بشق، فجعلنى فى أهل سهيل وأطيظ ودائس ومُنَقَّ، فعنده أقول فلا أقبَّح، وأرقد فأتصبح، وأشرب فأتقح، أم أبى زرع فما أم أبى زرع؟ عكومها رداح، وبيتها فساح، ابن أبى زرع فما ابن أبى زرع؟ مضجعه كمسل شطبة، ويشبعه ذراع الجفرة. بنت أبى زرع فما بنت أبى زرع؟ طوع أبيها وطوع أمها، وملء كسائها وغبظ جارتها. جارية أبى زرع فما جارية أبى زرع؟ لا تبث حديثنا تبثيثاً،

ولا تنقث ميرتنا تنقيشاً، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً. قالت: خرج أبو زرع والأوطاب تُمخض، فلقى امرأة معها ولدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمانتين، فطلقني ونكحها، فنكحت بعده رجلاً سرياً، ركب شرباً، وأخذ خطياً، وأراح عليّ نعماً ثرياً، وأعطاني من كل رائحة زوجاً، قال: كلى أم زرع، وميرى أهلك، فلو جمعت كل شيء أعطاني ما بلغ أصغر آنية أبي زرع.

قالت عائشة: قال لي رسول الله ﷺ «كنت لك كأبي زرع لأم زرع» كان هؤلاء النسوة من خثعم من قبائل اليمن، اجتمعن في قرية هناك، وجاءت أسماءهن في كتاب «المبهمات» للخطيب البغدادي من طريق غريب جداً، وليس هناك كبير فائدة في معرفتهن، ومع ذلك فقد قيل: إن اسم الثانية عمرة بنت عمر، والثالثة حنى بنت نعب، والرابعة مهدد بنت أبي مرزومة، والخامسة كبشة، والسادسة هند، والسابعة حنى بنت علقمة، والثامنة بنت أوس بن عبد، والعاشر كبشة بنت الأرقم، والحادية عشرة أم زرع بنت أكهل بن ساعد<sup>(١)</sup>.

ومعنى أناس حرك، مأخوذ من النّوس وهو الحركة من كل شيء متدل. والقرط في الأذن يعطى هذه الحركة، وقولها: وملاً من شحم عضدى، كناية عن السمنة من طيب الأكل. ومعنى بجحني فرّحني أو عظّمني. وهذا يشعر بأنها عظيمة في نفسها. والغنيمة تصغير غنم، والشق أى الجبل، وهو كناية عن قلة غنمهم، أو معنى الشق شظف العيش، والصهيل صوت الخيل، والأطيظ صوت الإبل، ودائس مأخوذ من دوس الزرع فى البيدر، ومعنى مُنقّ مأخوذ من تنقية الحب من القشر، والمراد بذلك أنها كانت فى وسط قوم فقراء فجعلها بين قوم أغنياء لهم خيول وإبل ومزارع، ومعنى أتصبح أنام الصبح فلا أستيقظ مبكرة، لأن الخدم سيكفوننى العمل، ومعنى أتقنح أرتوى جداً.

والعكوم أوعية الطعام والأمتعة، ورداح معناها عظيمة، ومنه المرأة الرداع

(١) بلوغ الأدب، للألوسى، ج ٢، ص ٤٣، شرح الزبيدي، ج ٣، ص ٢٤٤، شرح النووى على صحيح مسلم، ج ١٥، ص ٢١٢.

عظيمة الأكفأل، ومعنى فسأح واسع، والمسئل بمعنى المسلول المأخوذ من غيره، ومعنى شطبة ما شطب من جريد النخل وهو السعفة، والمراد مهفهف خفيف اللحم، وهو مدح. ومعنى تنقث تفسد. فهى أمانة لا تفسد الطعام، والتعشيش الكناسة، فهى نظيفة لا تترك القمامة فى البيت، والشرى الفرس الفائق السريع، والخطى رمح منسوب إلى قرية الخط بساحل البحر عند عمان والبحرين. والرائحة ما يروح من النعم والعبيد.

وفى تأثير الزيارات سبق قول عمر بن الخطاب فى نساء قريش، حيث كانوا يغلبونهن فلما هاجروا من مكة إلى المدينة تعلم نساؤهم من نساء أهلها اللائى يغلبن أزواجهن، وكان من أثر هذا مراجعتهن لأزواجهن فيما يريدون.

## ٥- اللهو:

من مظاهر إيناس الزوجة وتسليتها تمكينها من التمتع باللهو البرى حتى تنشط للقيام بمهام بيتها وينشرح صدرها، وهذا أمر يقره كل عقل، لأنه من اللوازم للبشر، والإسلام لا يعارضه، بل ينظمه، وسيأتى الدليل على ذلك.

ولعلك فى شوق إلى معرفة حكم الشرع فى وسائل الترفيه الآتية: المذيع، التلفاز، الخياله والمسرح، الألعاب، الحفلات، لعب الورق والشطرنج، التنزه، الموسيقى، الرقص.

## (أ) المذيع أو الراديو<sup>(١)</sup>:

تسلية ثقافية شاعت بين الناس فى جميع الأوساط، وما ينقله لنا هذا الجهاز هو بضاعة متنوعة، ولكل واحد ذوقه فى الاختيار والاستمتاع، وليس

---

(١) ماركونى (١٨٧٤ - ١٩٣٧م) مخترع اللاسلكى، سجل اختراعه فى المجلترا فى يونيه ١٨٩٦م، حيث توصل إلى نقل إشارات إلى مسافة ٢ كم، ثم زادت الى ٥٥ كم سنة ١٨٩٧، وفى ١٢/١٢/١٩٠١م أمكن الاتصال عبر المحيط الأطلسى بوساطة اللاسلكى، وكان ماركونى أول من قدر إمكان استعمال الراديو فى الاتصالات - «كتاب كيف نعيش اليوم» وعرفت أول إذاعة فى العالم العربى بإنشاء محطة بالقاهرة سنة ١٩٣٤م.

هناك شك في فائدة استماع القرآن والأحاديث الدينية والثقافية بوجه عام، ما دام الغرض سليماً، والقصد كريماً في إذاعتها واستماعها، وما دام الأثر طيباً.

والموسيقى الخالصة التي لا يصحبها غناء كثرت فيها الأقوال تحليلاً وتحريماً، وتفصيل ذلك يطول، ويمكن الرجوع إليه في كتاب السماع من إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، وفي كتاب إغاثة اللفهان لابن القيم، وكتاب كف الرعاع لابن حجر الهيتمي، وغذاء الألباب للسفاريني وغيرها من الكتب، وقد لخصت ذلك في فتوى جمعت مع عدة فتاوى لي في كتاب «الإسلام ومشكلات الحياة».

وأشير هنا إلى ما رجحته من هذه الآراء - تبعاً للإمام الغزالي - وهو أنها خلال في حد ذاتها، لأنها أصوات صناعية حسنة كالأصوات الطبيعية للبلابل والعصافير، أو الأغصان والأوراق عند حفيف الريح. والمنهى عنه ما صاحبه محرم، كأن تكون طابعاً لمجالس الخمر وما إليها، كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة للزنى، وكل حرام له حريمه ينسحب عليه حكمه، فما دامت الموسيقى ليست لاستكمال مجلس محرم فلا بأس بها، ما لم يُلْه الاستماع إليها أو عزفها عن واجب فتحرم، أو تصير ديدناً فتكره، ضناً بالوقت الذهبي أن يصرف في غير عمل إيجابي مفيد.

والغناء شيء محبب إلى النفس طبعاً، والعالم كله يغني، حتى الطيور، وما أحلى غناء بعضها، وهو من ضمن متع أهل الجنة، فقد صح أن نساء الجنة سيغنين لأزواجهن، كما رواه الطبراني عن عبد الله بن عمر بسند قال فيه الألباني على الجامع الصغير، إنه صحيح. ونصه: «إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط، وإن مما يغنين: نحن الخيرات الحسان، أزواج قوم كرام، ينظرون بقرة أعيان. وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا يمتنه، نحن الآمنات فلا يخفنه، نحن المقيمات فلا يظعنّه»<sup>(١)</sup>.

والغناء لا تحبه النفس إلا إذا كان يؤدي بلحن ذي إيقاع خاص وصوت صاف رقيق ذي نبرات محببة، وهذا الصوت هبة من الله سبحانه لا تنال بالكسب، ولذا كان المشهورون بجودة الغناء قليلين، أو من الندرة بمكان.

(١) الترغيب، ج ٤، ص ٢٠٠.

ولما كان من متع النفس جاءت الشرائع توصى بحسن استغلاله، وخلاصة حكم الإسلام فيه - كما نشرته مستقى من المراجع المذكورة- أن ينظر إلى موضوعه والأسلوب الذى يؤدى به والجو الذى يقال فيه والأثر الذى يترتب عليه. فإن خلت كلماته عن محرم كفحش أو طعن فى مقدس مثلاً، وكان الأداء باللحن والصوت مؤدباً، ولم يصاحبه محرم من كشف ما أمر الله بستره أو تناول لمنهى عنه، وليس له تأثير سيئ على السامعين، ولم يله عن واجب ولم يتخذ ديدناً فلا حرمة فى أدائه والاستماع إليه.

وقد وضحت كل ذلك بالأمثلة فى الفتاوى التى أذعتها ونشرتها بأكثر من وسيلة، وتعرضت للشبهات التى تدرع بها من حرموه على الإطلاق، فأجبت عنها بما ذكره الغزالي الذى بحث الموضوع كفقية أصولى صوفى فيلسوف، فيرجع إليه فى كتابه «الإحياء». وذكرت أن صوت المرأة فى حد ذاته ليس بعورة، والحرمة فيه عارضة، ويراجع ذلك فى بحث الحجاب «ص ١٦٢».

هذا هو الحكم فى أداء الأغاني والاستماع إليها، أما إذاعتها فأرى من الحكمة ديناً وخلقاً ووطنية أن تمنع ما أختل فيه شرط من الشروط السابقة، فضرره أكبر من نفعه وهو مفصل فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة عن منهج الإسلام فى تربية الأولاد.

قال النووى فى شرح صحيح مسلم<sup>(١)</sup>: واختلف العلماء فى الغناء، فأباحه جماعة من أهل الحجاز، وهو رواية عن مالك، وحرمه أبو حنيفة وأهل العراق، ومذهب الشيعة كراهته، وهو المشهور من مذهب مالك. واحتج المجوزون بهذا الحديث- حديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان عند عائشة والنبي سامع- وأجاب الآخرون بأن هذا الغناء إنما كان فى الشجاعة والقتل والحدق فى القتال ونحو ذلك مما لا مفسدة فيه، بخلاف الغناء المشتمل على ما يهيج النفوس على الشر، ويحملها على البطالة والقبیح. وذكر أن القاضى «عياض» قال: إنهما ليستا

(١) ج ٦، ص ١٨٢.

بمغنيتين، أى ليستا ممن يتغنين بعادة المغنيات من التشويق والهوى والتعريض بالفواحش والتشبيب بأهل الجمال، وما يحرك النفوس ويبعث الهوى والغزل، كما قيل: الغنا فيه الزنى.

### (ب) الخيالة والمسرح:

المكان الذى يعرض فيه الموضوع إن كان العرض حياً فهو المسرح، وإن كان مصوراً فهو السينما، أو الخيالة. فإذا تمحض الحضور لجنس واحد، كما فى بعض الدور التى يخصص فيها وقت للرجال وآخر للنساء، فينظر إلى موضوع الفيلم أو المسرحية ويعطى حكم الغناء فى مادته وأسلوبه وأثره، أما أن كان الحضور مع اختلاط للرجال والنساء، فإن كان مع سفور وكشف لما أمر الله بستره حرم، وإن كان مع احتشام كامل وتحفظ بما ذكرناه فى بحث الحجاب، ينظر إن ذهبت الزوجة بدون إذن زوجها حرم، وإن كان بإذنه وهو معها أو معها محرم كأخيها وابنها فلا حرمة، وكذلك مع الرفقة المأمونة، كما تقدم تفصيله فى الجزء الخاص بالحجاب.

والملاحظ. الآن أن دور اللهو لا تحترم هذه الآداب، واتخذت ذريعة لاصطياد الفرائس والعبث وقتل الوقت، والحلال بين والحرام بين، وقد قلل من الإقبال عليها انتشار أجهزة التلفاز، ودخولها كل البيوت أو أكثرها، وصار أكثر رواد هذه الدور من الطبقات التى لا ترعى حرمة.

### (ج) الحفلات:

الحفلات اجتماعات لأية مناسبة، والحكم عليها هو الحكم على ما يجرى فيها، فإن كان فيها محرم كخمر ورقص مكشوف مثير حرم الحضور، سواء شارك الإنسان فى هذه الأمور أم لم يشارك، لأن فيه إقراراً للمنكر وتشجيعاً له، وقد تقدم فى الجزء الأول من هذه الموسوعة حكم الوليمة وإجابة الدعوة إليها وما قد يكون هناك من محرم. وإن لم يكن فى هذه الحفلات محرم فى الموضع والشكل فلا بأس من حضورها، مع مراعاة ما تقدم من تحفظات فى أنواع الترفيه السابقة.

## (د) لعب الورق والسيجة والنرد والشطرنج والدمينو وغيرها<sup>(١)</sup>:

أوفى كلام فى هذه الأمور موجود فى كتاب «الزواجر» لابن حجر الهيثمى، وكتاب نيل الأوطار للشوكانى، وحياة الحيوان الكبرى للدميرى «عقرب» وفى تفسير القرطبي آية ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ من سورة يونس: ٣٢ وهناك شبه اتفاق على أن ممارسة هذه الألعاب محرمة إن كان فيها قمار،

(١) المراد بالورق ما يسمى بالكوتشينة، ويقول عنها «مستر ماسون»: يخشى أن يكون أصل اختراعها غير معروف كبقية أنواع التسلية، فقد نسبت مرة للصين، وأخرى للبراهمة فى الهند، وأخرى لمصر، وأخرى للعرب، لكن الشواهد فى الصين تدل على أنها كانت معروفة عندهم منذ ٩٠٠ سنة. غير أن الهند تزعم أنها كانت معروفة عندها منذ بدء التاريخ. وهناك فى متاحفهم أوراق تدل على ذلك. وزعم بعضهم أنها عرفت فى أوروبا فى القرن الثالث عشر. غير أن كتاب ذلك العصر لم يشير إلىها، وقد وجدت مؤلفات فى خزانة «شارل السادس» ملك فرنسا سنة ١٣٩٢م، تدل على أن أوروبا إذ ذاك، والرسم الذى على «الكوتشينة» كانت ثابتة لم تتغير، غير أن عدد الأوراق كان قديماً يزيد على ٥٢ ورقة المعروفة اليوم «برنامج: لكل سؤال جواب فى إذاعة لندن ١٩٥١/٩/٣٠».

ويقول «سعيد عبد الغنى» أهرام ١٥/٣/١٩٦٩م: إن أوراق اللعب ظهرت فى أسبانيا سنة ١٦٠٠م، وفى إنجلترا سنة ١٨٠٠م، وفى ألمانيا وفرنسا سنة ١٣٢٩م، وذلك حين كلف الملك «شارل السادس» أحد مشاهير الفن إذ ذاك «جاكريمين جريجوفير» بأن يرسم أوراقاً فاخرة للعب، ليتسامر بها مع مدعويه، وظهرت أوراق اللعب فى الصين سنة ١١٢٠م، أيام الإمبراطور «سون هو».

وكانت الأوراق الهندية مكونة من ١٢٠ ورقة مستديرة والصينية من ٣٠ واليابانية من ٣٤ ولم تكن من بين الأوراق صورة «الملكة» لأن التقاليد إذ ذاك كانت تمنع رسم صورة امرأة. وأوراق اللعب الأوروبية كانت تتكون من ٧٨ ورقة، بينها صورة فتاة أطلقوا عليها اسم «الملكة» ثم اختصرت إلى ٥٢ ورقة واستمرت على ذلك منذ ٥٠٠ عام، وكان رسم الأوراق يتم باليد، فلما انتشرت صعب الرسم، ففكروا فى الرسم على ألواح خشبية وطبعها على الورق. ثم استخدمت هذه الطريقة الخشبية فى طبع الصور المقدسة ثم الكتب، وظهر بها أول كتاب فى أوروبا سنة ١٤٢٠م، ثم جاء التفكير فى تجزئة الحروف الخشبية، ثم جمعها عند اللزوم لطبع أى كتاب، وكانت الفكرة لزوجة «يوهان جوتنبرج» مخترع الطباعة فى ألمانيا.

ويقول سعيد عبد الغنى فى المصدر السابق: إن «السيجة» لعبة مصرية قديمة، والفراغة هم مصدرها، والدومينو ظهرت فى الصين فى تاريخ قريب من ظهور الكوتشينة، وكانت الدومينو منتشرة بين الاسكيمو، يراهنون فيها على زوجاتهم، وكان عدد القطع فى تلك الفترة عام ١١٢٠م يتراوح بين ٦٠، ١٨٤ قطعة، بينما كان عددها فى الصين ٣٢ قطعة.

أو صاحبها محرم كشراب خمر أو سفور أو خلوة، أو ترتب عليها ضياع واجب، أو ضرر أياً كان هذا الضرر.

والنرد المعروف بالطاولة<sup>(١)</sup> ورد فيه قول النبي ﷺ «من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في دم خنزير»، ورواه مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه، وقال النووي في التعليق عليه: قال العلماء: النردشير هو النرد، فالنرد عجمي معرب، و«شير» معناه حلو. وهذا الحديث حجة للشافعي والجمهور في تحريم اللعب بالنرد. وقال أبو إسحاق المروزي من أصحابنا: يكره ولا يحرم<sup>(٢)</sup>.

وجاء فيه أيضاً حديث «من لعب بنرد أو نردشير فقد عصى الله ورسوله» رواه مالك عن أبي موسى الأشعري، واللفظ له، وأبو داود وابن ماجه والحاكم والبيهقي، ولم يقولوا: أو نردشير، وقال الحاكم: صحيح على شرطهما، أي الشيخين البخاري ومسلم<sup>(٣)</sup>.

وجاء في الترغيب والترهيب<sup>(٤)</sup>: قال الحافظ: ذهب جمهور العلماء إلى أن اللعب بالنرد حرام، ونقل بعض مشايخنا الاجماع على تحريمه.

أما الشطرنج<sup>(٥)</sup> فقد قال النووي فيه: وأما الشطرنج فمذهبنا أنه مكروه وليس بحرام، وهو مروى عن جماعة من التابعين. وقال مالك وأحمد: حرام،

---

(١) جاء في المصدر السابق أنه لعبة قديمة جداً، فقد وجدت طاولة مع الزهر وأحجارها في حفريات بابل، وعرفها الاغريق والرومان، ثم انتشرت في أوروبا في القرن العاشر.

(٢) ج ١٥، ص ١٥. (٣) تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٣٣٨. (٤) ج ٤، ص ٤.

(٥) قيل: اخترعه حكيم هندي ليعظ الملك وحاشيته بالحسنى عن اللهو، وطلب مخترعه من الملك مكافأة أن يوضع في المربع الأول حبة قمح ثم تضاعف في الثاني ويضاعف المضاعف في الثالث، وهكذا، فعجز عن ذلك بعد استهزاء، لأن الخبراء وجدوا أن الناتج كوم قمح مكعب طول ضلعه ٦٠ ميلاً، ويزعم الإفريخ أن اليونان هم الذين وصفوه في حروب طروادة وهو تعصب منهم. وجاء في تفسير القرطبي «ج ٨، ص ٣٣٩»: أن امرأة كان لها ابن ملك أصيب في حرب دون أصحابه، فقالت: كيف يكون هذا؟ أرونيه عياناً، فعمل لها الشطرنج، فلما رآته تسلت بذلك. اهد. انظر كتاب كف الرعاع لابن حجر الهيتمي، ففيه كلام كثير عن أصله. وحكمه.

ويقول سعيد عبدالغنى «أهرام ١٥/٣/١٩٦٩»: إن أحد ملوك الهند القدامى طلب من حكمائه لعبة تشغل أمه عن حزنها على أخ له مات من الهم بعد أن اغتصب العرش منه، فابتكروا الشطرنج، ثم انتقل منهم إلى فارس، ومنها إلى الأندلس، ثم إلى أوروبا.

وقال مالك: هو شر من النرد وألهى عن الخير، وقاسوه على النرد، وأصحابنا يمنعون القياس، ويقولون: هو دونه<sup>(١)</sup>.

وقال المحافظ- بعد ذكر حكم النرد-: واختلفوا فى اللعب بالشطرنج، فذهب بعضهم إلى إباحته، لأنه يستعان به فى أمور الحرب، ومنهم سعيد بن جبير والشعبى، ولكن بشروط ثلاثة، عدم القمار، وعدم الإلهاء عن وقت صلاة، وحفظ اللسان حال اللعب عن الفحش، وكرهه الشافعى تنزيهاً. وذهب جماعات من العلماء إلى تحريمه كالنرد. وقد ورد فى الشطرنج أحاديث لا أعلم لشيء منها إسناداً صحيحاً ولا حسناً. اهـ<sup>(٢)</sup>.

هذا، ومن نظرف الباحثين فى النرد والشطرنج قول بعض المتكلمين- علماء التوحيد والكلام- النرد مجبر والشطرنج معتزلى، فالأول مجبر بحظه، والثانى مختار بفعله<sup>(٣)</sup>.

#### (هـ) التلفاز<sup>(٤)</sup>:

التلفاز «التليفزيون» أى الرؤية من بعد، جهاز حديث يزيد على المذياع

(١) مسلم، ج ١٥، ص ١٥. (٢) الترغيب والترهيب، ج ٤، ص ٤.

(٣) مختارات الادباء للأصفهاني، ج ١، ص ٤٤٨.

(٤) أول مخترع له هو جون لوجى بيرد «١٨٨٨ - ١٩٤٦م» وكان أول تفكير فيه سنة ١٨١٧م، حين اكتشف «برزليوس» عنصر «السلينيوم» وهو العنصر الأساسى فى اكتشاف التليفزيون، ثم جاء بعده «جوزيف ماى» الذى اكتشف أن من خصائص عنصر السلينيوم تحويل القوة الكهربائية، وبهذا يمكن نقل الصور بواسطة التيار الكهربائى، هذه هى المرحلة الأولى، أما الثانية فقد بدأت سنة ١٨٨٤م مع اختراع اسطوانة «نيكوف» التى يمكنها تقسيم الجسم إلى عناصر تكون فى مجموعها صورة، كما يمكن تحويل كل عنصر بواسطة إشارة كهربائية تنقله عبر الأثير. وفى سنة ١٩٢٦م توصل جون لوجى بيرد إلى وضع أول تصميم عملى للتليفزيون. وفى سنة ١٩٢٩م اتفقت هيئة الإذاعة البريطانية مع بيرد على إجراء تجارب إرسال، ثم توقفت لظروف الحرب العالمية الثانية، ثم استؤنفت بعدها «القبس - عبد العزيز صفر ٢٩/٢/١٩٧٥» وكان أول بث فى القاهرة فى ٢١ يوليو ١٩٦٠م، توفى «بيرد» فى ١٤ يونية ١٩٤٦م «أهرام ١٩٨٦/٦/١٢».

«الراديو» أنه ينقل الصوت والصورة معاً، بل ينقل الصورة متحركة مما يزيد في أثرها، وهنا يثار سؤال عن النظر إلى النساء الراقصات أو الممثلات أو غيرهن ممن يبدن زينتهن ويكشفن ما أمر الله بستره .

وقد تحدث الفقهاء عن حكم النظر إلى المرأة في المرأة، أي صورتها المنعكسة فيها، هل يعطى حكم النظر إليها أولاً، ووضحه الكمال بن الهمام، ونقله الشيخ طه حبيب في فتوى له نشرت بمجلة نور الإسلام «الأزهر» عام ١٩٣٢م في المجلد الثالث ص ٤٩٢ . ثم قال ما نصه :

والذى تسكن إليه النفس ويطمئن له القلب هو أن النظر إلى المرأة الأجنبية إنما كان محرماً بسبب أنه داع وذريعة إلى الوقوع فيما هو أشد منه حرمة، وهو الوقوع فى المعصية الكبرى، وعليه فالنظر إلى المرأة الأجنبية المعينة بواسطة المرأة بقصد الشهوة غير جائز، لأنه ذريعة إلى محرم، وكل ما كان كذلك فهو حرام، سواء أكان ذلك مباشرة أو بواسطة المرأة . اهـ .

وبهذا يعلم أن النظر إلى كل ما يفتن ويدعو إلى السوء حرام، وقد يختلف الناس فى ذلك .

### ( و ) التنزه :

المراد بالتنزه الخروج من البيت لمشاهدة الطبيعة والتمتع بالهواء الطلق والمناظر الجميلة، وقد يكون لزمن قصير يطلق عليه عرفاً اسم « فسحة » أو لزمن طويل فيطلق عليه عرفاً اسم « رحلة » .

ولاشك أن التنزه فيه متعة تبعث على النشاط وتذهب بالملل والسأم . وليس هناك ما يمنع ذلك شرعاً فى أصله، وإنما يعرض له الحكم بحسب النية والهدف، وبحسب الإجراءات والممارسات التى تتم به، فما دام القصد حسناً فالعمل حسن، فالأعمال بالنيات، وما دامت حدود الشرع قد التزمت فلا ضرر فيه . و من حدود الشرع ستر ما أمر الله بستره، والتزام الحجاب بكل مقوماته على النحو الذى تقدم ذكره فى البحث الخاص به، وكذلك عدم التقصير فى واجب له

أو للزوج أو للبيت أو للمجتمع، فإن القاعدة أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح.

### (ز) الرقص :

الرقص حركات اختيارية لأعضاء الجسم قد تنظمها نغمات موسيقية، وهو يدخل بعض النشاط على الجسم والنفس. وقد تكون له تعبيرات تختلف باختلاف الشعوب. وهو في أصله لا يوجد نص يمنعه، لكن يعرض له المنع، إذا خالطه ممنوع أو ترتب عليه ممنوع، ومن الممنوع كشف ما أمر الله بستره عن أعين الأجانب، واللهو به على شكل يؤدي إلى التقصير في واجب أو مهم. وأخطر أنواعه ما كان جماعياً مختلطاً لا تلتزم فيه حدود الشرع والأدب.

هذا في ممارسته، أما مشاهدته فلا مانع منها أيضاً ما لم يكن فيه محرم كاطلاع على عورة أو إلهاء عن واجب مهم. أو تأثير سيء أياً كان نوع هذا التأثير، فمن القواعد التشريعية « لا ضرر ولا ضرار ».

### (ح) الرسم والتصوير :

من وسائل تسلية المرأة في بيتها ممارسة الرسم بالقلم أو الفرشاة مثلاً، وكذلك التصوير بالآلة المعروفة، ولا بأس بذلك إذا كان موضوعه المناظر الطبيعية الصامتة كالأشجار والورود والبيوت مثلاً. وكذلك إذا كان موضوعه حياً كالإنسان والطير والحيوان، مادام ذلك نقشاً غير مجسم على ما اعتمده العلماء، ولا يقصد به تعظيم يؤدي إلى فتنة في الدين، على ألا تكون المناظر الإنسانية عارية أو مغرية لمن ينظر إليها وكذلك من يرسمها ويصورها. وبشرط ألا يلهي ذلك عن واجب أو مهم، أو يصحبها ممنوع، وفي هذا الموضوع بحث طويل نشرته في كتابي «الإسلام ومشكلات الحياة» وهو مجموع فتاوى نشرتها في المجالات الإسلامية المشهورة.

### ٣- تكملة :

من الشواهد التي تشهد بجواز التمتع بالحلال البريء ما ورد عن عائشة

رضى الله عنها، قالت: دخل عليّ أبو بكر رضى الله عنه، وعندى جاريتان من جوارى الأنصارى تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم «بُعَاث». قالت: وليستا بمغنيتين، فقال أبو بكر: أئبزمور الشيطان فى بيت رسول الله؟ وذلك فى يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ «يا أبا بكر، إن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا»، وفى رواية: إنهما تغنيان وتضربان - أى بألة موسيقية كالدف - ورسول الله، ﷺ، مُسَجِي بثوبه، وكان ذلك فى أيام منى، وفى رواية: فلما غفل غمزتهما، فخرجتا<sup>(١)</sup>. وفى بعض الروايات: وحول وجهه.

والجاريتان قيل: إن اسمهما حمامة وزينب، وهما لعبد الله بن سلام، وقيل: إن إحداهما لحسان<sup>(٢)</sup>. وبُعَاث اسم حصن للأوس، وقيل: موضع فى ديار بنى قريظة، وكان موضع الوقعة بين الأوس والخزرج، بسبب قتل أوس حليفاً للخزرج، ودامت الحرب بينهما مائة وعشرين سنة، آخرها يوم بعَاث قبل الهجرة بثلاث سنوات على المعتمد، وقيل: بخمس سنوات، وانتصر فيه الأوس برياسة حضير والد أسيد<sup>(٣)</sup>.

وقد أجاز الرسول، ﷺ، هذا الغناء لأن له مناسبة طيبة، وهى العيد مظهر الفرح والسرور، فيجوز فى كل مناسبة فى هذا النوع، كلقاء الإخوان وقدم الحاج والختان والميلاد وغيرها. ويلاحظ أنه غناء خال من الفحش والخنا ومما لا ضرر فيه على الخلق والدين. ولذلك منع النبى ﷺ الجارية التى كانت تُغنى غداة بنى بالربيع بنت معوذ، عندما قالت: وفينا نبى يعلم ما فى غد. «راجع الجزء الأول من موسوعة الأسرة، ص ٤٩٢».

يقول الشيخ أحمد حسن الباقورى<sup>(٤)</sup>: إن تحويل وجه النبى ﷺ عن الجاريتين لم يكن من أجل كراهيته للغناء، فإن تحويل الوجه لا يمنع الصوت من

(١) رواه مسلم، ج ٦، ص ١٨٢ - ١٨٤.

(٢) الزرقانى على المواهب اللدنية، ج ٨، ص ٢٤٦.

(٤) الأخبار ١١/٢٩/١٩٧٠.

أن ينال سمعه الشريف، ويعلل التحويل بعدم إرادة النظر إلى الأجنبية، وإن كان النووى يعلله بالإعراض عن اللهو، وحتى لا تستحيى الجاريتان<sup>(١)</sup>. ويقول الباقرى: لا يراد من مزمارة الشيطان وصف الغناء بذلك إنما يراد به إثارة الفتنة بيوم بعث، ولكن النبى، ﷺ، نبه إلى عدم خوف الفتنة، لأن ذلك كان فى منى. اهـ.

كما يشهد لجواز إمتاع المرأة بمشاهدة المسرحيات والألعاب البريئة على النحو الذى وصفناه ما ورد عن عائشة أيضاً<sup>(٢)</sup>، قالت: رأيت رسول الله ﷺ يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون، وأنا جارية، فأقدروا قدر الجارية العربية - المحبة للعب - الحديث السن. وفى رواية: فإما سألت رسول الله ﷺ وإما قال «تستهيّن نظرين»؟ فقلت: نعم، فأقامنى وراءه، خدى على خده، وهو يقول «دونكم يا بنى أرفدة» - لقب للحبشة - حتى إذا مللت قال «حسبك»؟ قلت: نعم. قال «فاذهبى».

وجاء فى الجامع الصغير للسيوطى قوله «خذوا يا بنى أرفدة، حتى تعلم اليهود والنصارى أن فى ديننا فسحة»، رواه أبو عبيدة فى الغريب، والخرائطى فى اعتلال القلوب عن الشعبى مرسلًا، وهو ضعيف، وجاء فى رواية أحمد عن عائشة أن هذا القول كان تعليقاً على الغناء حين قال لأبى بكر وهو ينهى الجوارى عن الغناء «دعهن يا أبا بكر فإنها أيام عيد، لتعلم اليهود أن فى ديننا فسحة، وإنى أرسلت بالحنيفية السمحة»<sup>(٣)</sup>، وقال الحافظ فى الفتح: وروى ابن السراج من طريق أبى الزناد عن عروة عن عائشة أنه ﷺ قال يومئذ: «لتعلم يهود المدينة أن فى ديننا فسحة، إنى بعثت بحنيفية سمحة»<sup>(٤)</sup>.

وروى الترمذى والنسائى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ جالساً، فسمعنا

(١) مسلم، ج ٨، ص ١٨٣. (٢) مسلم، ج ٦، ص ١٨٤، ١٨٥.

(٣) الإسلام، مجلد ٤، عدد ٢٣، بقلم عبدالرحمن خليفة.

(٤) فقد السنة، ج ١، ص ٣٢٤.

لغطاً وصوت صبيان، فقام رسول الله ﷺ، فإذا حبشية تزفن - تلعب وترقص - والصبيان حولها، فقال «يا عائشة، تعالى فانظري» فجئت فوضعت لحيي على منكب رسول الله ﷺ، فجعلت أنظر إليها ما بين المنكب إلى رأسه، فقال لي «أما شبت؟» قالت: فجعلت أقول: لا، لأنظر منزلتي عنده إذ طلع عمر، قالت: فإرفض الناس عنها. فقال رسول الله ﷺ «إني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فروا من عمر» قالت: فرجعت<sup>(١)</sup>. وجاء مثله عن البغوى فى مناقب عمر.

وفى هذه الواقعة جاء فى السنن الكبرى للنسائى أنها قالت له: لا تعجل لا تعجل. وجاء فى هذا الحديث قوله لها «يا حميراء» وسنده صحيح<sup>(٢)</sup>.

ولفظ «دونكم» يفيد الاغراء والاستزادة، وكان لعب الحبشة بإلقاء الحراب وتلقيها، كما ورد فى رواية أبى سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب<sup>(٣)</sup>. وجاء فى المطالب العالية لابن حجر<sup>(٤)</sup> أن عائشة كانت تتفرج على «الدركلة» وهى ضرب من لعب الصبيان، وقيل: هو الرقص.

ما أروع هذه المواقف التى فيها تقرير لسماحة الإسلام وتجاوبه مع الفطرة فى اعتدال، وفى قول النبى ﷺ لها «تشتهين تنظرين» وقولها «فاقدروا قدر الجارية العربية» بيان للعطف الذى يجب أن يكون عند الزوج نحو زوجته، وبخاصة إذا كانت فى ظروف مثل ظروف السيدة عائشة رضى الله عنها.

ومنّ من الناس يفهم هذه الميول فى المرأة فى هذه السن وفى هذه الحال، كما يفهم النبى ﷺ الذى قال لعائشة يوماً «ما هذا؟» قالت: بناتى. قال «وما هذا الذى أرى فى وسطهن؟» قالت: فرس، قال «ما هذا الذى عليه؟» قالت: جناحان. قال «فرس له جناحان؟» قالت: أو ما سمعت أنه كان لسليمان ابن داود خيل لها أجنحة؟ قالت: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه<sup>(٥)</sup>.

(١) آكام المرجان للشلبلى، ص ٢١٣. (٢) العراقى على الإحياء.

(٣) صفوة التصوف للمقدسى. (٤) ج ٤، ص ١٢٨.

(٥) رواه أبو داود بإسناد صحيح عن عائشة، وذكر جزء منه فى غذاء الألباب، ج ٢، ص ١٧٩.

رواية عن أحمد.

والبنات صور وتمثيل من قماش ونحوه تعمل للأطفال للعب بها، ولا بأس  
بها تمريناً على مستقبل البنات الذي ينتظرهن بالزواج، وهو مستثنى من حرمة  
التمثيل. يقول النووي بعد ذكر حديث عائشة أنها كانت تلعب بالبنات عند  
رسول الله ﷺ، قال القاضي: فيه جواز اللعب بهن. قال: وهن مخصوصات من  
الصور المنهى عنها، لهذا الحديث، ولما فيه من تدريب النساء في صغرهن لأمر  
أنفسهن وبيوتهن وأولادهن. قال: وقد أجاز العلماء بيعهن وشراءهن. وروى عن  
مالك كراهة شرائهن. وهذا محمول على كراهة الاكتساب بها، وتنزيه ذوى  
المروءات عن تولى بيع ذلك، لا كراهة اللعب. قال: ومذهب جمهور العلماء  
جواز اللعب بهن. وقالت طائفة: هو منسوخ بالنهى عن الصور. هذا كلام  
القاضي (١).

\* \* \*

---

(١) صحيح مسلم، ج ١٥، ص ٢٠٤.

## الفصل الثامن

### إعفافها

تقتضى المعاشرة بالمعروف أن يعف الزوج زوجته بالاتصال الجنسي، فإن من المقاصد الأساسية للزواج، إلى جانب الإنجاب والتعاون على الاستقرار النفسى ومباشرة النشاط العام، تخصيص الفرج وتسكين الشهوة، وإعفاف النفس عن التطلع إلى المتعة المحرمة.

ولما كانت المرأة مخلوقاً بشرياً كالرجل، ركبت فيها الشهوة كما ركبت فيه<sup>(١)</sup>. وكانت هي مثله فى الحاجة إلى الإعفاف وتلبية نداء الغريزة، وقد تكون هي فى بعض الأحيان أشد حاجة إلى ذلك، إذا توافرت لها الراحة الجسمية والنفسية فى المنزل، وكان الرجل فى الوقت نفسه مشغولاً مرهقاً بهموم الحياة الثقيلة وتبعاتها الجسيمة، التى لا تدعه يهنأ براحة جسمية أو فكرية فى كثير من الأحيان حتى يفكر فى الاتصال الجنسي. وقد تقدم فى بحث الحجاب بيان مدى ميل كل من الرجل والمرأة إلى الآخر، فيرجع إليه.

وقد جاء فى مجلة الدكتور<sup>(٢)</sup> أن مرد شوق المرأة إلى الرجل إفراز المادة الجنسية التى تكون فى فترة معينة من الشهر، عند إفراز البويضة، وهى مرة واحدة فى الشهر، يفرزها كل من المبيضين بالتناوب، وفى هذه الفترة يشتد ميل المرأة

---

(١) جاء فى كشف الغمة، ج٢، ص ١٠٢: قيل لما أهبط الله آدم من الجنة وأهبط معه حواء لم يكن بينهما جماع فى الجنة، فكان كل واحد ينام وحده، حتى أتى جبريل إلى آدم وأمره أن يأتيها وعلمه كيفية ذلك، فلما حدث ما أمره به سألته كيف وجدت امرأتك؟ قال: صالحة إن شاء الله. وروى هذا على أنه حديث عن على مرفوعاً إلى النبى ﷺ، ولا أعرف سنده.

(٢) عدد ٤٩ فى يونيه ١٩٥١م.

إلى الرجل، ثم يفتر بعد ذلك، أما الرجل فيأفرازته كثيرة، ولذلك يكون مستعداً  
وبرغبة في كثير من الأحيان . اهـ.

وكيف نوفق بين هذا وبين ما روى « فضلت المرأة على الرجل بتسعة  
وتسعين جزءاً من اللذة، ولكن الله تعالى ألقى عليها الحياء ». ( كشف الغمة،  
ج ٢، ص ١٠٢ )، ولا أعرف له سنداً.

ومهما يكن من شيء فإن المرأة تميل إلى الرجل كما يميل هو إليها، وإن كان  
الحياء يمنعها أن تطلبه وتصرح به، كالحديث الذي رواه الديلمي « الحياء عشرة  
أجزاء، تسعة في النساء وواحد في الرجال » وقد تقدم في بحث الحجاب . اللهم  
إلا في حالات نادرة لها عوامل قوية، ومما أثر في ذلك :

١- روت عائشة أن امرأة رفاعة القرظي جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : كنت  
عند رفاعة فطلقني فَبَتَّ طلاقاً، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، وإن  
ما معه مثل هُدْبَةِ الثوب . فقال « أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقني  
عسيلته ويذوق عسيلتك » رواه الجماعة<sup>(١)</sup> . وامرأة رفاعة اسمها تميمية أو أميمة  
أو سهيمية، والزبير بفتح الزاي . وهُدْبَةُ الثوب طرقة الذي لم ينسج، مأخوذ من  
هدب العين، وهو شعر الحفن، والمراد تشبيه ذكره بالهدبة في الاسترخاء وعدم  
الانتشار<sup>(٢)</sup> .

وجاء في بعض الكتب أن أبا بكر رضى الله عنه كان جالساً وهذه المرأة  
تشكو للنبي ﷺ حالها مع الزوج الجديد، وأن خالد بن سعيد بن العاص كان  
جالساً على باب الحجرة لم يؤذن له، فطلق خالد يتأذى ويقول : ألا تزجر هذه  
عما تجاهر به الرسول؟<sup>(٣)</sup> .

٢- روى أبو داود من حديث عكرمة عن ابن عباس قال : طلق عبد يزيد -

( ١ ) نيل الأوطار للشوكاني، ج ٦، ص ٢٦٨ .

( ٢ ) المصدر السابق، والزبيدي ج ٣، ص ٢٦٠ .

( ٣ ) محاضرات الأدباء للأصبهاني، ج ٢، ص ١٣٣ .

أبو ركانة وإخوته - أم ركانة، ونكح امرأة من مزينة، فجاءت النبي ﷺ فقالت: ما يغني عنى إلا كما تغني هذه الشعرة - لشعرة أخذتها من رأسها - ففرق بينى وبينه.

إن المزنية لم تشك من أبي ركانة جَبًّا أو عَنَّة، فقد أنتج من زوجته السابقة ذرية، ولكنها تشكو منه ضعفاً لا يستجيب لنداء شهوتها القوية في أيام زواجها الأولى على الخصوص، ولذلك أخذت النبي ﷺ حمية، خشية أن تكون دعواها على أبي ركانة قاذحة في نسبة أولاده إليه، فأراد أن يتحقق من غرضها في الشكوى ويحدد موضوعها، فدعا بركانة وإخوته، ثم قال لجلسائه «ألا ترون أن فلاناً يشبه منه كذا وكذا من عبد يزيد، وفلاناً من كذا وكذا»؟ قالوا: نعم يا رسول الله، فعلم أن المرأة ما شككت منه إلا ضعفه فقط، ومثلها في شبقها تكون مصدرهم وتعب لزوجها، الذى لن ترضى عنه حتى تُرضى شهوتها، فاستحسن النبي ﷺ أن يفرق بينهما<sup>(١)</sup>. فقال لعبد يزيد «طلقها» ففعل، ثم قال «راجع امرأتك أم ركانة وإخوته...».

٣- ورد في الصحيح أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أنكحني أبى امرأة ذات حسب، وكان يتعاهد كَنْتَه - امرأة ولده - فيسألها عن بعلها، فتقول له: نعم الرجل من رجل، لم يبطأ لنا فراشا، ولم يفتش لنا كنفنا منذ أتيناها - لم يكشف سترأ، عبرت به عن عدم الجماع - فلما طال ذلك عليه ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال «القنى به» فلقيته به، فقال «كيف تصوم»؟ قلت: كل يوم - قال «وكيف تختم»؟ قلت: كل ليلة - يقصد بالختم قراءة القرآن - وفي رواية «ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل»؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال «فلا تفعل، صم، وأفطر، ونم وقم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً»<sup>(٢)</sup>.

٤- أخرج البخارى عن وهب بن عبد الله قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبى الدراء، فزار سلمان أبا الدراء، فرأى أم الدراء - اسمها خيرة - مبتذلة -

(٢) رياض الصالحين، ص ٨٥، ٨٦.

(١) زاد المعاد، ج ٤، ص ٣٠.

غير معتنية بهندامها - فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما، فقال له: كل، فإني صائم. قال: ما أنا بأكل حتى تأكل. فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال له: نم، فنام. ثم ذهب يقوم فقال له: نم، فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصليا جميعا. فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال عليه الصلاة والسلام «صدق سلمان»<sup>(١)</sup>.

٥- عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت امرأة عثمان بن مظعون تخضب وتطيب، ثم تركت ذلك فدخلت علي يوماً فقلت: أمشهد - زوجك حاضر - أم مغيب - زوجك غائب؟ فقالت: مشهد كمغيب، قلت لها: مالك؟ قالت: عثمان لا يريد الدنيا ولا يريد النساء. قالت عائشة: فدخل علي رسول الله ﷺ، فأخبرته بذلك، فلقي عثمان فقال «يا عثمان تؤمن بما تؤمن به؟» قال: نعم يا رسول الله. قال «ما لك بنا»<sup>(٢)</sup>. فجعل إعفاف الزوجة من الأمور التي تؤمن بأنها حق لها، ويجب الاقتداء بالرسول فيه وفي غيره.

٦- أخرج عبد الرزاق في مصنفه عن قتادة والشعبي، وذكر الزبير بن بكار عن محمد بن معن الغفاري أن امرأة أتت إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل، وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله عز وجل، فقال لها: نعم الزوج زوجك، فجعلت تكرر عليه القول وهو يكرر عليها الجواب، فقال له كعب الأسدي<sup>(٣)</sup> يا أمير المؤمنين، هذه المرأة تشكو

(١) المصدر السابق، ص ٨٣.

(٢) رواه أحمد عن عائشة بسند رجاله ثقات «نيل الأوطار»، ج ٦، ص ٣٤٣ - طبعة بيروت وفي رواية: يا عثمان، إن الرهبانية لم تكتب علينا، أفما لك في أسوة؟ فوالله إن أخشاكم لله وأحفظكم لحدوده وأنا (أحمد في مسنده ٢٢٦/٦ - صفة الصفوة لابن الجوزي، ص ٤٥٢).

(٣) في أسد الغابة: كعب بن سور الأزدي - مجلد ٤، ص ٤٧٩، وفي المغني مع الشرح الكبير (ج ٨، ص ١٤٠) رواها عمر بن شبة في كتاب قبضة البصرة من وجوه، إحداهن عن الشعبي.

زوجها في مباحثته إياها عن فراشه . فقال عمر: كما فهمت كلامها فاقض بينهما، فقال كعب: عليّ بزوجهما، فأتى به فقال له: إن امرأتك هذه تشكوك، قال: أفى طعام أم شراب؟ قال: لا، فقالت المرأة:

يا أيها القاضي الحكيم رَشِدُهُ      أَلْهَى خَلِيلِي عَنْ فِرَاشِي مَسْجِدُهُ  
زَهْدُهُ فِي مَضْجَعِي تَعَبُّدُهُ      فَاقْضِ الْقَضَا كَعْبُ، وَلَا تَرُدَّهُ  
نَهَارُهُ وَلَيْلُهُ مَا يَرْقُدُهُ      فَلَسْتُ فِي أَمْرِ النِّسَاءِ أَحْمَدُهُ  
فقال زوجها:

زهدني في فرشها وفي الحجل      أنى امرؤ أذهلنى ما قد نزل  
في سورة النحل وفي السبع الطول      وفي كتاب الله تخويف جلال  
فقال كعب:

إن لها عليك حقاً يا رجل      تصيبها في أربع لمن عقل  
فأعطها ذاك ودع عنك العلل .

ثم قال: إن الله عز وجل قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام ولياليهن، تعبد فيهن ريك . فقال عمر: والله ما أدري من أى أمريك أعجب؟ أمن فهمك أمرهما، أم من حكمك بينهما؟ اذهب فقد وليتك قضاء البصرة<sup>(١)</sup>.

والحجل جمع حجلة، وهى بيت يزين للعروس بالثياب والأسرة والستور «غرفة النوم» .

٧- جاءت امرأة من طيبىء، من بنى سبيس، يقال لها: أم يعلى، إلى علىّ ومعها زوجها، وشكت له أنه لا يأتيها وهى تريد الحمل منه، فقال الرجل: ما ترى عليها من نعمة؟ قال - وهى فى هيئة حسنة - فقال له: لا، ولا من السحر حيث

(١) تفسير القرطبي، ج ٥، ص ١٩، المستطرف ج ١، ص ٤٨، السيوطي فى تاريخه، ص ٩٦ .

يتحرك الشيخ . قال : ولا من السحر، قال : هلكت وأهلكت، وأقبل عليها، فقال لها : اصبرى حتى يفرج الله<sup>(١)</sup> .

٨- يروى كهَمَسَ الهلالى عن عمر، أن امرأة جاءت تشكو له أن زوجها قد كثر شره وقلَّ خيرُه، فقال لها : من زوجك؟ قالت : أبو سلمة . قال : إن ذلك لرجل له صحبة، وإنه لرجل صدق، واستشهد على ذلك برأى جالس عنده . ثم أمره أن يستدعيه، فقعدت المرأة خلف عمر قبل أن يحضر زوجها، فلما حضر وسأله عمر : ماذا تقول هذه الحالسة خلفى؟ قال : ومن هذه؟ قال : امرأتك .. تزعم أنك قد قلَّ خيرك وكثر شرك . قال : بثسما قالت، إنها لمن صالح نسائها، أكثرهن كسوة وأكثرهن رفاهية بيت، ولكن فحلَّها بكىء - الشاة أو الناقة التى قلَّ لبنها - يريد أن زوجها لا يستطيع الجماع . فقال عمر للمرأة : ما تقولين؟ قالت : صدق . فقام إليها عمر بالدرة، فتناولها بها، ثم قال : أى عدوة نفسها، أكلت ماله، وأفنيت شبابه، ثم أتيت تخبرين بما ليس فيه، فقالت : يا أمير المؤمنين، لا تعجل، فوالله لا أجلس هذا المجلس أبداً . ثم أمر لها بثلاثة أثواب وقال لها : خذى هذا بما صنعت بك، وإياك أن تشكى هذا الشيخ . قال : فكأنى أنظر إليها قامت ومعها الثياب، ثم قال لزوجها : لا يحملنك ما رأيتنى صنعت بها أن تسيء إليها، فقال : ما كنت لأفعل فانصرفا . ذكره فى المطالب العالية بإسناد لا بأس به<sup>(٢)</sup> .

٩- شكت امرأة زوجها إلى عمر - فقالت : ما معه ما مع الرجال . قال عمر : اسمع ما تقول، قال : يا أمير المؤمنين معى ما يمسك العاتق، ويحنك التائق . قال : ومن يعلم ذلك؟ قال : عشيرتى، فسألهم، فقالوا : وكذَّ له، فقال : انطلق بامرأتك . قاتلك الله، ما تريدن إلا أن يكون معه مثل العَيْر - الحمار - وفى رواية : يا أمير المؤمنين، أمّا ما يكفى العاتق ويفتق التائق فمعى، وأمّا مثل العير فليس معى . قال : انطلق، فإن هذا أمر أحب إلى إحداهن من الجنة<sup>(٣)</sup> .

(١) المطالب العالية، ج ٢، ص ٣٨ وسكت البوصيرى عن تخريجه . (٢) ج ٢، ص ٣٨ .

(٣) منفيد العلوم للخوارزمى، ص ٢١١ .

إن الإسلام ينبه على خطأ بعض الزهاد الذين يظنون أن بعدهم عن النساء هو من تمام الزهد، وأن إتيانهن يضيع وقتاً هو أحوج إليه في العبادة، وكيف يضيعون حقاً للمرأة إن لم يكن شرعياً فهو حق طبيعي كحقها في الحياة؟ وكيف تكون العبادة مع التفصير في أوامر الدين؟ قال حنظلة بن الربيع الأسدي - أحد كتاب رسول الله ﷺ - : لقيني أبو بكر رضى الله عنه، فقال: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأننا رأى عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، فقلت: نافق حنظلة يارَسُولَ اللَّهِ، فقال رسول الله ﷺ «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأننا رأى العين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا - عاجنا ولا عينا - الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، فقال رسول الله ﷺ «والذى نفسى بيده أن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة «ثلاث مرات» رواه مسلم<sup>(١)</sup>.

وعن أنس قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأصلى الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال «أنتم الذين قلتُم كذا وكذا؟» أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني<sup>(٢)</sup>.

إن الإسلام قد ارتفع بهذا الحق للزوجة إلى درجة عالية، فجعله من القربات، شأنه في ذلك شأن العبادات من ذكر وتصدق وغيرهما، فعن أبي ذر أن

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(١) رياض الصالحين، ص ٨٦.

ناسا قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكر صدقة. وفي بضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» رواه مسلم<sup>(١)</sup>.

والبضع هو الفرج أو الجماع، والمباح يكون طاعة بالنية، لو نوى بالمباشرة قضاء حقها ومعاشرتها بالمعروف، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه أو إعفافها، كما ذكره النووي، وقد سبق حديث «كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه لفرسه، وملاعبته لامرأته».

إن التقصير في هذا الحق - وهو إعفاف الزوجة - له أضرار جسيمة، فهو يورث كراهتها لزوجها، وعدم إخلاصها في أداء واجبها نحوه، واستشرافها للذة التي قد تطلبها من غيره، والتفكير في الخلاص منه، وفيه ضرر عليه أيضاً بعدم أمنه عليها عند غيابه، فالغريزة الجنسية أقوى الغرائز في سلوك الإنسان أو من أقواها، والويل لمن لم يتنبه إليها، ولأهمية هذا الحق رأى بعض العلماء استعانة الرجل بالأدوية والمقويات الحلال التي تزيد من قدرته على الوفاء بهذا الحق، كما ذكره القرطبي في تفسيره<sup>(٢)</sup> وشرع للمرأة عند التقصير في هذا الحق أن تطلب فسخ النكاح إذا تبين أن بالزوج جباً أو عنة، كما جعل من السنة أن يكون هناك تكافؤ بين الزوجين في السن حتى يوجد بينهما انسجام.

ولكن إلى أي حد يجب على الزوج أن يعطى زوجته هذا الحق؟

جمهور الفقهاء قالوا: إن إعفاف الزوجة بالمباشرة الجنسية واجب، وقال الشافعي في المشهور عنه: أنه غير واجب، لأنه حق له كسائر الحقوق فلا يجب

(٢) ج ٣، ص ١٢٤.

(١) ج ٧، ص ٩١.

عليه . وإذا كانت المباشرة واجبة فما مدى هذا الوجوب، قيل : تجب المباشرة مرة واحدة، وهي التي يتحقق بها الإحصان، وقيل : في كل أربع ليال مرة، وقيل : في كل طهر مرة، وقيل : في كل أربعة أشهر مرة.

وإليك بعض النقول في ذلك :

قال ابن تيمية في كتابه «السياسة الشرعية»<sup>(١)</sup> : ووطؤها واجب عليه عند أكثر العلماء، وقد قيل : إنه لا يجب، اكتفاء بالباعث الطبيعي . والصواب أنه واجب كما دل عليه الكتاب والسنة والأصول، وقد قال النبي ﷺ لعبد الله ابن عمرو رضی الله عنه، لما رآه يكثر الصوم والصلاة «إن لزوجك عليك حقا» . ثم قيل : يجب عليه ووطؤها كل أربعة أشهر مرة، وقيل : يجب ووطؤها بالمعروف على قدر قوته وحاجتها، كما تجب النفقة بالمعروف كذلك . وهذا أشبه .

وجاء في «المغنى لابن قدامة مع الشرح الكبير»<sup>(٢)</sup> أن الوطء واجب على الرجل إذا لم يكن به عذر، وبه قال مالك . وعلى قول القاضى : لا يجب إلا أن يتركه للإضرار، وقال الشافعى : لا يجب عليه، لأنه حق له، فلا يجب عليه كسائر حقوقه . فعلى الأول لا يحق أن يتركه أربعة أشهر، فإن أصر على تركه وطالبت المرأة فرّق القاضى بينهما، وظاهر قول الحنابلة أنه لا يفرق بينهما لترك الوطء، وهو قول أكثر الفقهاء .

وجاء في تفسير القرطبي<sup>(٣)</sup> لقوله تعالى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قوله : ثم عليه أن يتوخى أوقات حاجتها إلى الرجال ليعفها ويغنيها عن التطلع إلى غيره . . . . . وإن رأى الرجل من نفسه عجزاً عن إقامة حقها في مضجعها أخذ من الأدوية التي تزيد في باهه وتقوى شهوته حتى يعفها .

والقول الذى لا يلزم الزوج بمباشرة زوجته لا يقف أمام قول الجمهور بوجوب ذلك . أما عدد المرات وتحديد الفترات فالأوفق أن يترك ذلك للزوج

(١) ص ١٧٧ طبعة الشعب . (٢) ج ٨، ص ١٤١، معجم المغنى طبعة الكويت، ص ٧١٥ .

(٣) ج ٣، ص ١٢٤ .

والزوجة، من حيث وجود الداعى إليه وعدم المنع منه. فقد امتنع النبي ﷺ عن قربان نسائه شهراً كما تقدم فى الهجر عند التأديب. وقد تشدد إليه رغبة بعض الأزواج إلى الحد الذى تتأذى منه المرأة، كما حكى الخوارزمي (١) أن امرأة شكت إلى عبد الله بن الزبير كثرة جماع زوجها لها، فأمره بالحد من ذلك، فقال له الرجل: أتمنعنى عما أحله الله لى؟ قال: نعم إذا أسرفت.

وبهذه المناسبة أخرج الترمذى حديثاً عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: إني إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوة فحرمت علي اللحم، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧].

وينبغي ألا تزيد الفترة على أربعة أشهر، وهى المدة التى ضربها الإسلام لنمولى من امرأته، أى الذى يحلف ألا يقربها، قال تعالى ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧]. فإنه يطالبه بعد هذه المدة بأحد أمرين، الأول الفىء أى الرجوع عن يمينه وذلك بالوطء، والثانى التطليق. بل جعل أبوحنيفة الأشهر الأربعة أجلاً لوقوع الطلاق، تطلق المرأة بمجرد انقضائها إن لم يطأها الزوج، وقد كان أجل الإيلاء فى الجاهلية سنة وستين كما ذكره ابن عباس ورواه عنه البيهقى (٢).

ومما يؤيد ذلك تلك القصة التى حدثت فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ذكرها القرطبى فى تفسيره (٣) وكذلك ابن كثير فى التفسير (٤) وابن الجوزى فى سيرة عمر (٥) والسيوطى فى تاريخ الخلفاء (٦):

(١) مفيد العلوم ص ٢١١. (٢) بلوغ المرام، ص ٢٣٠.

(٣) ج ٣، ص ١٠٨.

(٤) ج ١، ص ٣٩٤، نقلاً عن موطأ مالك وغيره عن عبد الله بن دينار.

(٥) ص ٥٩. (٦) ص ٩٦.

وهي أن عمر رضى الله عنه خرج ذات ليلة يطوف المدينة، وكان يفعل ذلك كثيراً إذ مر بامرأة من نساء العرب، مغلقاً عليها بابها وهي تقول:

تطاول هذا الليل تسرى كواكبه وأرقتى أن لا خليل الأعبه  
الأعبه طوراً وطورا كأنما بدا قمراً فى ظلمة الليل حاجبه  
يسرُّ به من كان يلهو بقربه لطيف الحشا لا تجتويه أقاربه  
فوالله لولا الله تخشى عواقبه لينقض من هذا السرير جوانبه  
ولكننى أخشى رقيباً موكلاً بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبه  
مخافة ربي والحياء يصدنى وأكرم بعلى أن تنال مراكبه

وفى رواية ابن جريج التى أخرجها عبد الرزاق فى مصنفه أنه قال لها: ومالك؟ قالت: أغزيت زوجى منذ أشهر وقد اشتقت إليه، قال: أردت سوءاً؟ قالت: معاذ الله!! قال: فاملكى عليك نفسك، فإنما هو البريد إليه، وقد سأل بنته حفصه عن المدة التى يمكن المرأة أن تمكثها بدون الرجل، فقالت: ثلاثة وإلا فأربعة أشهر، وروى أنه بعث إليها من تؤنسها حتى يحضر زوجها، كما أعطاهما كسوة ونفقة، وأمر ألا يغيب الجند عن أهله أكثر من أربعة أشهر.

وذكر هذه القصة أيضاً أبو الوليد فى شرحه على الموطأ المسمى بالمنتقى، كما ذكرها ابن قدامة فى المغنى مع الشرح الكبير «ج ٨، ص ١٤٠»، وجاء فيها أن حفصة قالت لعمر: خمسة أشهر ستة أشهر.

(١) هذا الطواف يسمى بالعسس والشرطة، وكان يقصد به تتبع أهل الريب، وأول من عس بالليل عبد الله بن مسعود، أمره أبو بكر أن يعس فى المدينة، خرج أبو داود عن الأعمش بن زيد قال: أتى عبد الله بن مسعود فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن أن يظهر لنا شيء نأخذه به. وذكر الثعلبى عن زيد بن وهب أنه قال: قيل لابن مسعود: هل لك فى الوليد بن عتبة تقطر لحيته خمراً؟ فقال: إنا قد نهينا عن التجسس، فإن ظهر لنا شيء نأخذه به. وكان عمر يتولى فى خلافته العسس بنفسه ومعه مولاة أسلم، وكان ربما استصحب معه عبد الرحمن بن عوف «خطط المقرئى، ج ١، ص ٣٦٢».

ونقل صاحب كتاب «أعلام النساء» عمر كحالة، أن امرأة يزيد بن سنان أنفذ عبد الملك بن مروان زوجها في بعث، فسمعها ليلاً تقول:

تطاول هذا الليل والعين تدمع      وأرقنى حزنى فقلبي موجع  
فبت أقاسى الليل أرعى نجومه      وبات فؤادى عانيا يتضرع  
إذا غاب منها كوكب فى مغيبه      لحت بعينى آخرا حين يطلع  
إذا ما تذكرت الذى كان بيننا      وجدت فؤادى للهوى يتقطع  
وكل حبيب ذاكر لحبيبه      يُرجى لقاه كل يوم ويطمع  
فذا العرش فرج ما ترى من صابتي      فأنت الذى ترعى أمورى وتسمع

فأمر عبد الملك ألا يزيد البعث على ستة أشهر.

هذا، وهناك حالات لا يحق للمرأة أن تطالب فيها بهذا الحق، بل قد يمتنع على الرجل أن يقربها فيها، وذلك كما فى الحالات الآتية:

١- أن يكون بأحدهما مرض معد يكون الجماع وسيلة لنقل عدواه، فإن الطب والشرع يمنعان من المعاشرة فى هذه الحالة، قال تعالى ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وقال ﷺ «لا ضرر ولا ضرار» رواه الدارقطنى بسند حسن<sup>(١)</sup>.

٢- أن تكون المرأة حائضاً أو نفساء، فلا حق لها فى الوطء، بل يحرم على الرجل أن يباشرها. ووطء الحائض محرم فى الشرائع السماوية. فعند اليهود- كما سبق ذكره- حرام «انظر سفر اللاويين، الإصحاح: ١٥» فكله أو أكثره حديث عن نجاسة الحائض، وكل ما يتصل به ووجوب الغسل منه. والمسيحيون- على الرغم من كون إنجيلهم لا ينقض هذا الحكم بل يقره، وعلى الرغم من أن جميع أحكام التوراة يجب العمل بها عندهم، لأن عيسى عليه السلام صرح بأنه ما جاء لينقض الناموس الاسرائيلى، بل جاء ليكمله، كما جاء فى إنجيل متى، الإصحاح الخامس: ١٧، ١٨- على الرغم من ذلك لا يرون فى وطاء الحائض إثماً.

(١) الأذكار للنووى، ص ٤٠٧.

وهو محرم بإجماع المسلمين، ومن اعتقد حله كان كافراً، لأنه أحل ما أجمع على تحريمه، قال تعالي ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فقد أمر الله باعتزال النساء، أى عدم جماعهن فى الحيض، والمحيض هو مكان الحيض أى الفرج، أو وقت الحيض أى مدة وجوده، ووقت ذلك الاعتزال بتطهر المرأة منه، وكذلك نهانا عن قربانهن فى هذه المدة، والقربان أعم من الجماع، وهو بصور بثلاث صور، لكل منها حكمها:

(أ) أن يباشرها بالجماع فى الفرج، وهو- كما قدمنا- حرام بإجماع الفقهاء، وجاءت بذلك نصوص القرآن والسنة. أما القرآن فقد مرت الآية به، وأما السنة فقد روى أصحاب السنن الأربعة وأحمد عن أبى هريرة قوله صلى الله عليه « من أتى حائضاً أو امرأة فى دبرها أو كاهناً فصدقة فقد كفر بما أنزل على محمد »<sup>(١)</sup>.

قال النووى<sup>(٢)</sup>: قال أصحابنا: ولو اعتقد مسلم حلَّ جماع الحائض فى فرجها صار كافراً مرتداً، ولو فعله إنسان غير معتقد حله فإن كان ناسياً، أو جاهلاً لوجود الحيض، أو جاهلاً بتحريمه، أو مكرها فلا إثم عليه ولا كفارة. وإن وطئها عامداً عالماً بالحيض والتحريم مختاراً فقد ارتكب معصية كبيرة، نص الشافعى على أنها كبيرة وتجب عليه التوبة.

وفى وجوب الكفارة قولان للشافعى، أصحهما، وهو الجديد وقول مالك وأبى حنيفة وأحمد فى إحدى الروايتين عنه وجماهير السلف، أنه لا كفارة عليه. والقول الثانى وهو الضعيف أنه يجب عليه الكفارة، وروى عن بعض السلف.

(١) زاد المعاد، ج٣، ص١٤٨، نيل الأوطار، ج٦، ص٢١٢، تفسير ابن كثير، ج١، ص٣٨٦، وضعفه.

(٢) صحيح مسلم، ج٣، ص٢٠٤.

واختلف في مقدارها، فقليل: دينار أو نصفه، وقيل: دينار في أول الدم ونصف في آخره، على اختلافهم في الحال المقتضية له. روى أبو داود والحاكم وصححه أن النبي ﷺ قال «إذا واقع الرجل أهله وهي حائض إن كان دماً أحمر فليتصدق بدينار، وإن كان أصفر فليتصدق بنصف دينار» اهـ.

وجاء قريب منه في شرح مسلم للنووي<sup>(١)</sup>. والحديث رواه عن ابن عباس أحمد وأهل السنن - كما جاء في تفسير ابن كثير «ص ٣٧٩» ولم يصح رفعه عند القائلين بعدم الكفارة، والصحيح أنه موقوف، وعليه كثير من المحدثين. وتوضيح ذلك في الجامع الكبير للسيوطي<sup>(٢)</sup>.

(ب) أن يباشرها فيما فوق السرة وتحت الركبة بالذكر أو القبلة أو اللمس أو غير ذلك. وهو حلال باتفاق العلماء ونقل بعضهم الإجماع عليه.

(ج) أن يباشرها فيما بين السرة والركبة في غير القبل والدبر، وفي ذلك ثلاثة أوجه لأصحاب الشافعي، أصحها عند جماهيرهم أنه حرام، وعليه مالك وأبو حنيفة، وقيل: يكره ذلك كراهة تنزيه، وعليه أحمد، وهو المختار والأقوى من جهة الدليل، لحديث «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»<sup>(٣)</sup>. وقيل: إن كان المباشر يضبط نفسه عن الفرج ضعفاً أو ورعاً جاز، وإلا فلا، وهو حسن. ففي صحيح مسلم<sup>(٤)</sup> عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت إحدنا إذا كانت حائضاً أمرها رسول الله ﷺ أن تأتزر في فور حيضتها - أي معظمها ووقت كثرتها - ثم يباشرها، قالت: وأيكم يملك إربه كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه؟ والإرب - بكسر الهمزة - العضو وهو الفرج. ويفتح الهمزة والراء الحاجة وهي الجماع. وفي رواية ميمونة: كان رسول الله ﷺ يباشر نساءه فوق الإزار وهن حائض.

والمباشرة بغير الوطاء، مع الخلاف في ذلك، فيها مندوحة لمن اشتد شبقه وخاف

(١) ج ٣، ص ٢٠٥.

(٢) ج ١، ص ٣٠٧، طبعة مجمع البحوث.

(٣) رواه مسلم عن أنس، ج ٣، ص ٢١١.

(٤) ج ٣، ص ٢٠٣.

على نفسه من حبس الماء . وقد قال ابن القيم فى « بدائع الفوائد »<sup>(١)</sup> لا يجوز قولاً واحداً أن يجامع الحائض، بل يلجأ إلى إفراغ مائه باستمنائه بيده أو بيد زوجته أو بمباشرتها فيما دون الفرج لا غير . اهـ . ومثل هذا يقال فيمن غاب عن زوجته مدة طويلة، فلما حضر وجدها حائضاً أو نفساء .

هذا، ووقت تحريم المباشرة الجنسية هو مدة الحيض، وبعد انقطاع الدم إلى أن تغتسل الحائض، وهو مذهب الشافعى ومالك وأحمد وجمهور السلف والخلف، بدليل الآية، ففيها أن غاية الاعتزال والمنع من القربان هو التطهر، وقال أبو حنيفة: إذا انقطع الدم لأكثر الحيض وهو عشرة أيام حلّ وطؤها فى الحال . وإلا فلا بد من الاغتسال، أو مضى وقت صلاة بعد الانقطاع، قاله الكرخى، ونقله عنه الجمل فى حاشيته على تفسير الجلالين .

أما الاضطجاع مع الحائض فى ثوب واحد فجائز، لحديث مسلم عن ميمونة: كان رسول الله ﷺ يضطجع معى وأنا حائض، وبينى وبينه ثوب . وجاء مثله عن أم سلمة، وقد تقدم ذلك<sup>(٢)</sup> . وذلك بشرط أن يكون بينهما حائل يمنع تلاصق البشريتين فيما بين السرة والركبة على رأى من يحرمه، أو يمنع الفرج فقط على رأى من لا يحرم إلا الوطء . وأما مخالطة الحائض فى أكل وشرب وغيرهما فجائز لا كراهة فيه كما سبق توضيحه فى الفصل الأول .

وقد ورد أن النبى ﷺ نام على فخذ عائشة وهو مكشوف، فى سنن أبى داود عن عمارة بن غراب أن عمه له حدثه أنها سألت عائشة قالت: إحدانا تحيض وليس لها ولزوجها فراش إلا فراش واحد، قالت: أخبرك بما صنع رسول الله ﷺ، دخل فمضى إلى مسجده - قال أبو داود: تعنى مسجد بيتها - فما انصرف حتى غلبتنى عينى، وأوجعه البرد، فقال « ادنى منى » فقلت: إنى حائض، فقال « وإن، اكشفي عن فخذيك » فكشفت فخذى، فوضع خده وصدره على فخذى، وحنيت عليه حتى دفىء ونام ﷺ . ذكره ابن كثير فى تفسيره<sup>(٣)</sup>، وذكره البخارى فى كتابه « الأدب المفرد » .

(١) ج ٢، ص ٩٦ . (٢) صحيح مسلم، ج ٣، ص ٢٠٦ . (٣) ج ١، ص ٣٧٨ .

وحكمة تحريم قربان الحائض هي، كما ذكرها القرآن الكريم، أن المحيض أذى، وقد أمر الله الرجال بمراعاة ذلك، ولم يوجه الخطاب صراحة للنساء، إما لأنهن داخلات في عموم الخطاب كما في أساليب أخرى، حيث يوجه الخطاب للرجال ويكون الحكم عاماً لهم وللنساء، وإما لأن الرجل لا يشعر بالآلام المرأة الحائض، فهو يريد لها وهي منصرفه عنه، مشغولة بالآلامها، وقل أن تفكر في القربان في هذه الفترة.

والأذى شرحه الأطباء<sup>(١)</sup>، فذكروا أنه يكون للمرأة ويكون للرجل. ففي المرأة: التهاب المهبل، نمو نتوءات على جدرانها وهي مؤلمة، التهاب الجهاز التناسلي وهو يسبب العقم، والتهاب المهبل يسبب التهاب الغشاء المخاطي للمثانة، حيث تشعر المريضة بميل إلى التبول مع قلة ما ينزل منه، الجماع يحمل الميكروبات إلى داخل المهبل، وربما يسبب امتناع الحيض، وكذلك يسبب الحيض اضطراب الأعصاب.

وفي الرجل يسبب الجماع في الحيض: الالتهاب في أعضاء التناسل، وامتداد الجراثيم إلى داخل القناة البولية، وقد تصيب المثانة والحالبين، وربما يمتد الالتهاب إلى البروستاتا والخصية، وتوضيح ذلك كله يرجع فيه إلى المختصين. هذا، وقد جاء في كتاب «آكام المرجان في غرائب الأحكام وأحكام الجان» للمحدث الشبلي المتوفى سنة ٧٦٩هـ ص ٧٧ عن ابن عباس أن الله عز وجل ورسوله ﷺ نهيا أن يأتي الرجل امرأته وهي حائض، فإذا أتاها سبقه إليها الشيطان فحملت فجاءت بالخنث. كما ذكره الطرطوسي في كتابه «تحريم الفواحش»

٣- ومن الأحوال التي لا يحق للمرأة فيها أن تطالب بالجماع أن يكون أحدهما في صيام واجب، فيحرم على كل منهما أن يطلبه، كما تحرم الإجابة

---

(١) الدكتور عبد العزيز اسماعيل «مجلة الأزهر، مجلد ٦، ص ٤٧٦»، الدكتور محمد وصفي «مجلة الإسلام، مجلد ٣، عدد ٢٥، ٢٦» الدكتور حامد الغوابي «الفقه الميسر».

إليه . أما الصوم النفل فلا يمنعها من طلبه إن كانت صائمة لكن ليس على الرجل إجابتها لو كان صائماً، فهو أمر متروك لاختياره، إن شاء أجاز وبطل صومه، لأن إبطال صوم التطوع لا حرمة فيه، وكذلك الجماع لا كفارة فيه أيضاً، وإن شاء امتنع حفاظاً على صومه، أما إذا طلبه هو منها وكانت صائمة صوم تطوع، لزمها إجابته، فهي واجبة وصومها مندوب، والواجب يقدم على المندوب، كما سيجىء في الباب الثاني من هذا الكتاب .

٤- كذلك لو كانت مُحَرَمَةٌ بحج أو عمرة، ليس لها الحق في الوطء، بل يحرم أن تمكن زوجها منها، وكذلك إن كان هو محرماً فلا حق له في مطالبتها به، ويحرم عليه إجابتها لو طلبت، كما يحرم عليه الوطء ابتداءً دون مطالبة منها، لأن الجماع يفسد الإحرام كما هو معلوم .

٥- إذا كانت الزوجة مرضعاً، فإن وطأها يسمى الغيل، أو وطء الغيلة وكانت العرب تمتنع عنه، لتأثيره السيء على صحة المرأة وصحة الرضيع، ولذلك كانوا يطلبون لأولادهم مرضع غير أمهاتهم، وأقره النبي ﷺ أولاً، ثم رجع عنه، عندما علم أن فارس والروم لا يضرهم ذلك .

وقد وضحت هذا كله في الجزء الرابع من هذه الموسوعة، وله توضيح أيضاً في كتاب « زاد المعاد »<sup>(١)</sup>، وكتاب « مفتاح دار السعادة »<sup>(٢)</sup> كلاهما لابن القيم . والنهي عن وطء الغيلة للتنزيه للتحريم، وذلك لعدم استغناء الرجل عنه مدة إرضاع الطفل التي قد تمتد حولين، ولأن الضرر منه على المرأة والولد غير متيقن، فلا مانع من ثبوت حق المرأة فيه مدة قيامها بالإرضاع .

\* تنبيه هام :

موضع إعفاف المرأة بالوطء، هو القبل أى الفرج، لأنه محل الحرث والنسل الذى هو أهم مقاصد النكاح، ولأنه موضع اللذة الطبيعية للمرأة، أما الوطء فى

(٢) ج ٢، ص ٢٨٥ .

(١) ج ٤، ص ١٨ .

الدبر فلا يحصل به إحصان ولا إعفاف. وقد ورد النهى عنه في عدة أحاديث،  
منها:

١- قوله ﷺ « لا ينظر الله عز وجل إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في دبرها »  
رواه الترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه عن ابن عباس. قال ابن حجر فى  
« بلوغ المرام »: هذا الحديث أعل بالوقف. وروى مثله أحمد وابن ماجه كما فى  
زاد المعاد<sup>(١)</sup> ونييل الأوطار<sup>(٢)</sup> وتفسير ابن كثير<sup>(٣)</sup>.

٢- وقوله « إن الله لا يستحى من الحق - ثلاث مرات - لا تأتوا النساء فى  
أدبارهن » وفى بعض الروايات التعبير بالحشوش والمحاش، جمع محشة وهى الدبر،  
بدلاً من الأدبار. رواه ابن ماجه واللفظ له، والنسائى بأحاديث أحدها جيد عن  
خزيمة بن ثابت، كما ذكره فى زاد المعاد<sup>(٤)</sup>، ورواه أحمد والترمذى وحسنه،  
كما ذكره فى نييل الأوطار<sup>(٥)</sup>، وقال: ليس لعلى بن طلق رواية عن النبى غيره.  
وأخرجه ابن كثير فى تفسيره<sup>(٦)</sup>، وقال: إنه موقوف<sup>(٧)</sup>.

٣- وقوله « ملعون من أتى امرأة فى دبرها » رواه أبو داود عن أبى هريرة،  
وقد أعله ابن حجر أيضاً بالإرسال، ذكره فى زاد المعاد<sup>(٨)</sup>، وفى نييل الأوطار<sup>(٩)</sup>  
وابن كثير فى التفسير<sup>(١٠)</sup> وذكره المناوى فى شرح الجامع الصغير للسيوطى.

٤- وقوله « من أتى شيئاً من الرجال والنساء فقد كفر » رواه البيهقى،  
وهو موقوف على أبى هريرة ولم يثبت رفعه بطريق مقبول، كما فى تفسير  
ابن كثير<sup>(١١)</sup> وفى نييل الأوطار<sup>(١٢)</sup>.

٥- سُمى رسول الله ﷺ إتيان المرأة فى دبرها اللوطية الصغرى، كما رواه

- |                       |                       |
|-----------------------|-----------------------|
| (١) ج ٣، ص ١٤٩.       | (٢) ج ٦، ص ٢١٢ - ٢١٤. |
| (٣) ج ١، ص ٣٨٥.       | (٤) ج ٣، ص ١٤٨.       |
| (٥) ج ٦، ص ٢١٣ - ٢١٤. | (٦) ج ١، ص ٣٨٥.       |
| (٧) ج ١، ص ٣٨٧.       | (٨) ج ٣، ص ١٤٨.       |
| (٩) ج ٦، ص ٢١٢ - ٢١٣. | (١٠) ج ١، ص ٣٨٦.      |
| (١١) ج ١، ص ٣٨٧.      | (١٢) ج ٦، ص ٢١٢، ٢١٣. |

البيزار وأحمد، ورجالهما رجال الصحيح<sup>(١)</sup> وأعله النسائي<sup>(٢)</sup>، وروى موقوفاً على عبد الله بن عمرو كما فى تفسير ابن كثير<sup>(٣)</sup>.

٦- قوله ﷺ «إن الذى يأتى امرأة فى دبرها لا ينظر الله إليه يوم القيامة» رواه البيهقى عن أبى هريرة، وقال الألبانى على الجامع الصغير: إنه صحيح.

٧- عن ابن عباس وأبى هريرة قالوا: خطبنا رسول الله ﷺ قبل وفاته، وهى آخر خطبة خطبها بالمدينة حتى لقي الله عز وجل، وعظنا فيها وقال «من نكح امرأة فى دبرها أو رجلاً أو صبياً حشر يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة، يتأذى به الناس حتى يدخل النار، وأحبط الله أجره، ولا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً، ويدخل فى تابوت من نار، ويشد عليه مسامير من نار». قال أبو هريرة: هذا لمن لم يتب، رواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده<sup>(٤)</sup>.

إزاء هذه النصوص وغيرها حكم العلماء بحرمة إتيان المرأة فى دبرها، وذكر ابن القيم فى كتابه «بدائع الفوائد، ج ٤» أنه من الكبائر، ويعزر فاعله، وقيل: يكفر كفارة إتيان الحائض، وقيل: لا، وللمرأة حق الفسخ به. ثم تحدث عن اللواط بالأجنبية، فقال: قيل حده حد الزنى، وقيل: القتل، وإن كان بغلام فالقتل، نص عليه أحمد فى إحدى روايته، وفى الرواية الثانية، حد الزنى كقول مالك والشافعى، وذلك بناء على حديث «اقتلوا الفاعل والمفعول به» الذى رواه أصحاب السنن بإسناد صحيح، وحسنه الترمذى<sup>(٥)</sup>، وتوضيح ذلك مذكور فى الجزء الأول من هذه الموسوعة.

وأفاض ابن القيم فى زاد المعاد فى بيان أوجه التحريم، وبين أن الله إذا كان قد حرم الوطء فى القبل لعارض من الأذى وهو الحيض، فتحريم ما به الأذى دائماً، وهو الدبر، أولى، وأن للمرأة حقاً فى الوطء، وهو لا ينقضى بالوطء فى

(١) زاد المعاد، ج ٣، ص ١٤٨، ونيل الأوطار، ج ٦، ص ٢١٣.

(٢) نيل الأوطار، ج ٦، ص ٢١٤. (٣) ج ١، ص ٣٨٥.

(٤) زاد المعاد، ص ١٤٩. (٥) زاد المعاد، ج ٣، ص ٢٠٩.

الدبر، فليس فيه لذتها الطبيعية بل فيه ضررها، وأن الدبر لم يهياً للوطء فالعادلون عن الفرج إليه خارجون عن حكمة التشريع .

كما أن الطب قد أثبت ضرره بالرجل، لأن فرج المرأة له خاصية استفراغ ماء الرجل ليستريح منه، وليس الدبر كذلك، كما أثبت ضرره بالمرأة لأنه شئ غير طبيعي لم تخلق له، وهو من الأسباب الكبرى لزوال النعمة وحلول النقمة، فالقائم به ملعون بنص الحديث، وما الخير في حياة لعنهما رسول الله؟

هذا، وقد اشتبه على بعض الناس قوله تعالى ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فأخذوا منه جواز إتيان المرأة في أى موضع كان استنتاجاً من التعميم بقوله « أنى شئتم » ونسبوا ذلك إلى بعض السلف .

والجواب أن لفظ « أنى » يطلق على معان ثلاثة: أين ومن أين وكيف . والمعنى الثالث هو المقصود هنا، فالتعميم فى الحال لا فى المكان . والذى يعين ذلك هو السنة الصحيحة التى جاءت مفسرة للآية، وأسباب النزول تساعد على فهم المراد منها، فإن أهل الكتاب كانوا يأتون النساء على جنوبهن على حرف، ويقولون هو أيسر للمرأة، وكانت قريش والأنصار تشرح أو تشرح النساء على أفقائهن، فعاب اليهود عليهم ذلك، فأنزل الله هذه الآية (١) .

وفى الصحيحين عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها فى قبلها كان الولد أحول، فأنزل الله هذه الآية ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾، وفى لفظ مسلم « إن شاء مجيبة وإن شاء غير مجيبة » - والمجيبة هى المنكبة على وجهها - غير أن ذلك فى صمام واحد « والصمام الواحد هو الفرج، وهو موضع الحرث والولد (٢) .

وفى المسند عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكت . فقال « وما الذى أهلكك » قال: حولت رحلى البارحة . قال: فلم يرد عليه شيئاً، فأوحى الله إلى رسوله ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ .

(١) نيل الأوطار، ج٦، ص٢١٦ . (٢) المرجع السابق، زاد المعاد، ج٣، ص١٤٨ .

شَتْمٌ ﴿ أَقْبَلُ وَأُدْبِرُ، وَاتَّقِ الْحَيْضَةَ وَالذَّبِيرَ <sup>(١)</sup> رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ <sup>(٢)</sup> .

وذكر الدارمي في مسنده عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال: قلت لابن عمر: ما تقول في الجوارى، أي حمّض لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكر الدبر، فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟ وإسناده صحيح <sup>(٣)</sup> .

وذكر الشافعي بسند وثق رجاله أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن إتيان النساء في أدبارهن، فقال « حلال » فلما ولي دعاه وقال « كيف قلت، في أي الحزنتين أو في أي الحزنتين أو في أي الخصفتين؟ أمن دبرها في قبلها فنعم، أم من دبرها في دبرها فلا، إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهن » <sup>(٤)</sup> .

ولعل هذا موضع الغلط فيمن نسب حله إلى بعض السلف، فقد يكون النقل مبتوراً، أو مفهوماً علي غير وجهه الصحيح. قال مجاهد: سألت ابن عباس عن قوله تعالى ﴿ فَآتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ فقال: تأتيها من حيث أمرت أن تعزلها، يعني في الحيض.

يقول ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان» <sup>(٥)</sup>: إن بعض الناس صنّف كتاباً في إتيان المردان واستفراش النساء، وقال في أثنائه: باب في المذهب المالكي، وذكر فيه الجماع في الدبر من الذكر والإناث. وذكر ابن القيم أن سبب الغلط أنه قد نسب إلى مالك رحمه الله تعالى القول بجواز وطء الرجل امرأته في دبرها. وهو كذب على مالك وعلى أصحابه، فكتبهم كلها مصرحة بتحريمه، وجعلوا الباب واحداً، وهذا كفر وزندقة من قائله بإجماع الأمة.

وجاء في كتاب «حسن الأسوة» <sup>(٦)</sup>: روى عن مالك حله - أي إتيان المرأة

---

(١) زاد المعاد، ج ٣، ص ١٤٩. (٢) نيل الأوطار، ج ٦، ص ٢١٦. (٣) تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٣٨٢. (٤) زاد المعاد، ج ٣، ص ١٤٩. (٥) ص ٢٩٩. (٦) كتاب «حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة» تأليف السيد / محمد صديق حسن خان بهادر ملك باهوبال بالهند، دعتة إلى تأليفه صاحبتة وعييتة تاج الهند «نواب شاه جيهان بيكم» صاحبة الولاية في مملكة باهوبال منذ سنة ١١٣٠هـ، طبع في القسطنطينية سنة ١٢٠١ - المكتبة الأزهرية.

فى دبرها- وفى أسانيده ضعف . روى القول بحله عن بعض السلف، وليس فى أقوال هؤلاء حجة ألبتة . ولا يجوز العمل بقولهم، لعدم إتيانهم بدليل . فمن زعم أنه فهمه من الآية فقد أخطأ، فقد فسرها لنا الرسول وأكابر الصحابة . ومن زعم أن سبب نزول الآية أن رجلاً أتى امرأته فى دبرها، فليس فيه ما يدل على أن الآية أحلت ذلك، بل الذى تدل عليه أنه حرام، حتى ولو كانت الآية نازلة بهذا السبب، فهى لا تدل إلا على التحريم. اهـ.

وجاء فى كتاب «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء» للراغب الأصفهاني<sup>(١)</sup> قول مالك بجواز إتيان المرأة فى دبرها، وقالت عائشة: إذا حاضت المرأة حرم الحجران، فدل على أنهما كانا حلالين قبل الحيض، قال همام القاضى:

ومذعورة جاءت على غير موعد	تقنصتها والنجم قد كاد يطلع
فقلت لها لما استمر حديثها	ونفسى إلى أشياء منها تطلع
أبينى لنا: هل تؤمنين بمالك	فإنى بحب المالكية مولع؟
فقلت: نعم إنى أدين بدينه	ومذهبه عدل إلى ومقنع
فبتنا إلى الإصباح ندعو لمالك	ونؤثر فتياه احتسابا وتبع

[ هذا كلام أدباء لا يتخذ حجة، وهم مغرمون بنقل أمثال هذه الغرائب على أنها فكاهة، وليست دليلاً شرعياً ].

هذا، وقد جاء فى كتاب «المختصر النافع فى فقه الإمامية»<sup>(٢)</sup> طبعة وزارة الأوقاف المصرية:

إن الوطء فى الدبر فيه روايتان، أشهرهما الجواز مع الكراهة . وجاء فى كتاب «بطلان عقائد الشيعة» للشيخ محمد عبد الستار التونسى، رئيس منظمة أهل السنة بباكستان<sup>(٣)</sup>، بعض نقول عن كتاب الاستبصار للطوسى<sup>(٤)</sup>

(٢) ص ١٧٢ .  
(٤) ج ٣، ص ٢٤٣، ٢٤٤ .

(١) ج ٢، ص ١٦٠ .  
(٣) ص ٨٣ .

أن ذلك حلال، ومن استدلالهم عليه قوله تعالى ﴿فَأْتُوا حَرَثَكُمْ أَنْتَى سِتْمٌ﴾ وذلك إذا لم يكن طلبه الولد، بل التمتع، وكذلك قوله تعالى حكاية عن لوط ﴿هُؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فقد علم أنهم لا يريدون الفرج. وعلق صاحب الاستبصار على خبرين ورد فيهما المنع من اللواط بالنساء فقال: فالوجه في هذين الخبرين ضرب من الكراهية، لأن الأفضل تجنب ذلك وإن لم يكن محظوراً... ويحتمل أيضاً أن يكون الخبران وردا مورد التقية، لأن أحداً من العامة لا يجيز ذلك.

وقال الشوكاني في نيل الأوطار<sup>(١)</sup>: إنه نقل عن الشافعي حله. وقد دارت بينه وبين غيره مناقشات في هذا لم يسلم فيها دليل من حرّمه، ثم قال الشوكاني: إن أحاديث الباب وإن كانت معلولة إلا أنه يقوى بعضها بعضاً، ويعلم منها حرمة إتيان المرأة في دبرها، ثم قال: إن الرافضة جوزوه مع الكراهة، وهذه إحدى مسائلهم التي شذوا فيها، ثم قال: وقد حكى الإمام المهدي في البحر عن العترة جميعاً وأكثر الفقهاء أنه حرام. ثم نقل عن مالك الجواز وإن رجع متأخرو أصحابه عن حله وأفتوا بتحريمه.

وأشار ابن كثير في تفسيره إلى افتراء هذا القول على مالك، حيث قال بعضهم: إنه موجود في كتاب السر، لكن أكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عنه<sup>(٢)</sup>، وقال المناوي في شرح الجامع الصغير: وما نسب إلى مالك في كتاب السر في حل دبر الخليفة أنكره جمع.

هذا، وقد جاء في شرح الزبيدي لإحياء علوم الدين<sup>(٣)</sup> ما خلاصته: قرأت في كتاب «اختلاف الفقهاء» لابن جرير الطبري ما نصه: واختلفوا في إتيان النساء في أدبارهن، بعد إجماعهم أن للرجل أن يتلذذ من بدن المرأة بكل موضع منه سوى الدبر، فقال مالك: لا بأس بأن يأتي الرجل امرأته في دبرها كما يأتيها في قبلها، حدثني بذلك يونس عن ابن وهب عنه.

(٢) ج ٥٥، ص ٣٨٤، طبعة الشعب.

(١) ج ٦، ص ٢١٤، ٢١٥.

(٣) ج ٥٥، ص ٣٧٥.

وقال الشافعي: الإتيان في الدبر حتى يبلغ منه مبلغ الإتيان في القبل محرم بدلالة الكتاب والسنة. قال: وأما التلذذ بغير إيلاج الفرج بين الاليتين في جميع الجسد فلا بأس به، سواء في ذلك من الأمة والحرة، ولا ينبغي لها تركه لإصابة ذلك.

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد: إتيان النساء في الأدبار حرام.

(أ) وعلة من قال بقول مالك: إجماع الكل إن النكاح قد أحل للمتزوج ما كان حراماً، وإذا كان ذلك كذلك لم يكن القبل بأولى في التحليل من الدبر.

(ب) وعلة من قال بقول الشافعي:

١- من الخبر ما حدثني به... عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال «محاش النساء حرام، لا تأتوا النساء في أدبارهن».

٢- ومن الاستدلال أن الكل مجمعون قبل النكاح أن كل شيء منها حرام، ثم اختلفوا فيما يحل له منها بالنكاح، ولن ينتقل المحرم بإجماع إلى تحليل إلا بما يجب التسليم له من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس على أصل مجمع عليه، فما أجمع منها على التحليل فحلال، وما اختلف فيه منها فحرام، والإتيان في الدبر مختلف فيه، فهو على التحريم المجمع عليه. اهـ.

✽ تحرير مذهب مالك:

ما نسب إلى مالك فهو صحيح، لكن رجع متأخرو أصحابه عن ذلك، وأفتوا بتحريمه، إلا أن مذهبه الجواز، وقال القاضي أبو الطيب في تعليقه: نص في كتاب «السر» عن مالك على إباحته، ورواه عنه أهل مصر وأهل المغرب. وقال القاضي عياض، كان الإمام القاضي أبو محمد الأصيلي يجيزه ويذهب فيه إلى أنه غير محرم. وضيق في إباحته محمد بن سحنون ومحمد بن شعبان، ونقل ذلك عن جمع كثير من التابعين. وفي كلام ابن العربي والمازري ما يوميء إلى جواز ذلك أيضاً.

وقال القرطبي في تفسيره وابن عطية قبله: لا ينبغي لأحد أن يأخذ بذلك،

ولا تثبت الرواية فيه لأنها من الزلات . وذكر الخليلي في الإرشاد عن ابن وهب أن مالكا رجع عنه . وفي مختصر ابن الحاجب عن ابن وهب عن مالك إنكاره ذلك، وتكذيب من نقله عنه . والله أعلم .

### \* تحرير مذهب الشافعي :

قال الرافعي : وحكى ابن عبد الحكم عن الشافعي أنه قال : لم يصح عن رسول الله ﷺ في تحريمه ولا تحليله شيء، والطيبالسي أنه حلال . قال الحاكم : لعل الشافعي كان يقول بذلك في القديم، أما الجديد فالمشهور أنه حرمه، وحكى الماوردي في « الحاوي » وابن الصباغ في « الشامل » عن الأصم تكذيب الربيع محمد بن عبد الحكم فيما نسبه إلى الشافعي، وقال : بل نص الشافعي على تحريمه . قال الحافظ ابن حجر : ولا معنى لتكذيبه إياه، فإنه لم ينفرد به، فقد تابعه عليه أخوه عبد الرحمن بن عبد الحكم عن الشافعي، أخرجه أحمد بن أسامة بن أحمد بن أبي السمع المصري عن أبيه .

وفي مختصر الجويني أن بعضهم أقام ما رواه ابن عبد الحكم قولاً، وإن كان كذلك فهو قول قديم، وقد رجع عنه الشافعي كما قال الربيع . وهذا أولى من إطلاق الربيع تكذيب محمد بن عبد الحكم، فإنه لا خلاف في ثقته وإمامته، وإنما اغتر محمد بكون الشافعي قص له القصة التي وقعت له بطريق المناظرة بينه وبين محمد بن الحسن، ولا شك أن العالم في المناظرة يتقلد القول وهو لا يختاره، فيذكر أدلته إلى أن ينقطع خصمه . وذلك غير مستنكر في المناظرة . اهـ .

بعد هذا السرد الطويل للنقول والأقوال نخرج بحكم على إتيان الزوج زوجته في دبرها بأنه حرام باتفاق الفقهاء الأربعة، والشيعية الإمامية هم الذين قالوا بأنه حلال مع الكراهة . وقد تقدم قول الشوكاني<sup>(١)</sup> : إن أحاديث الباب وإن كانت معلولة إلا أنه يقوى بعضها بعضاً، ويعلم منها حرمة إتيان المرأة في دبرها .

(١) نيل الأوطار، ج ٦، ص ٢١٤، ٢١٥ .

## \* من آداب الاتصال الجنسي :

يقول داود الأنطاكي في تذكرته<sup>(١)</sup> : إن الجماع أشهر الأسماء بهذا الفعل، وألفاظه في لغة العرب تزيد على المائة، وهو عبارة عن نفس الفعل، والباه هو القوة عليه، والإنعاط هو انتفاخ العروق ولو عن مرض، والجماع يكون دواء من أمراض كثيرة، كالجنون والبرسام والاختناق والصرع، خصوصاً إذا حصل ما يوجب إنزال الماء إلى الأوعية، كتذكار واحتلام لم يكتمل، وكان الشباب في عنفوانه والبدن خصباً، واشتدت الدواعي بلا موجب يثيرها، كتقبيل وعناق . فإن تركه حينئذ يوقع في الأمراض العسرة البرء، ولا أصح في ضابط الحاجة إليه من هذا . ويكون داء يهيج نحو الرعشة والمفاصل والنقرس والحكة إلى غير ذلك . وكل بشروط تتعلق بالفاعل والمفعول والكمية والزمان، ما تقدم أو تأخر على نفس الفعل من الأسباب .

وجاء فيه : الجماع بعد السمك يورث الجنون، وبعد اللبن يورث الفالج، وبعد لحم الجزور والبقر والعدس يوجب الدوالي والنقرس والمفاصل، وبعد نحو الباذنجان يورث الأخلاط المحترقة، وبعد القرع والفواكه يعدو الضرر فيها على المرأة دون الرجل لبرد الماء عنها وقبل الفطور يوقع في الرعشة ويندفع هذا كله غالباً إذا لم يحتج في الفعل إلى حركة عنيفة، كالتطابق في سرعة الإنزال، أو قضاء وطره إذا لم يطلب لها ذلك .

ومن الكتب المساعدة عليه : إرشاد اللبيب، ورجوع الشيخ إلى صباه، والوشاح، وشقائق الأترج... وتقدم في بحث الحجاب شيء عن كتاب : رجوع الشيخ إلى صباه وأنه من تأليف ابن كمال باشا، ويعرف أيضاً بكتاب النفراوى .  
وهذه بعض الآداب الدينية :

١- يسن عند الاتصال التستر وعدم النظر إلى الفرج في كل من الزوجين، وتوضيحه مذکور في بحث الحجاب .

(١) ص ٢، ص ٦٤، طبعة صبيح .

٢- يسن أن يقول قبل الجماع ما جاء في الحديث الشريف « لو أن أحدكم إذا أتى أهله وقال : « اللهم جنبني الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ». رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق، ورواه مسلم أيضاً، « ج ١٠، ص ٥ »<sup>(١)</sup>. وجاء فى كتاب « آكام المرجان » ص ١٧٧ عن مجاهد قال : إذا جامع الرجل ولم يُسَمَّ انطوى الجان على إحليله فجامع معه، فذلك قوله تعالى « لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان » نقله ابن جرير فى « تهذيب الآثار ».

وجاء فى كتاب « مفيد العلوم »<sup>(٢)</sup> : أن من أراد أن يرزق بولد فليقرأ عند الجماع « قل هو الله أحد » ثم يقول : اللهم ارزقنى من هذا الجماع ولداً أسميه محمداً أو أحمد، ليرزقه الله ولداً، ويقول : إنه مجرب، جربه جماعة كثيرون فصح [ لا أعلم مدى صحة ذلك وإن كان الدعاء بوجه عام غير محظور، بل مندوب إليه، وقد يجيب الله هذا الدعاء . انظر بحث حقوق الأولاد ] .

٣- من تمام الأنس وكمال المتعة أن يقدم الرجل شيئاً من المزاح والملاعبة قبل المباشرة، لتتهيا نفس الزوجين لها، فإن الخيل تشرب بالصفير كما قالت عائشة بنت طلحة<sup>(٣)</sup>، وهذا أمر طبيعى لا يحتاج إلى دليل خاص يثبته أو يؤكده، ولا يتنافى أبداً مع وقار الزهاد، ولا يجرح تعبد المتعبدين، فقد كان النبى ﷺ يلاعب زوجاته ويقبلهن ويمص لسان إحداهن، كما سبق ذكره، وأشار على جابر بزواج البكر ليلاعبها وتلاعبه، كما سبق أيضاً ذكره، وكذلك تقدم حديث استثناء ملاعبة الرجل أهله من اللهو الباطل، وذكر عن جابر بن عبد الله حديث ضعيف « إذا أتيت أهلك فاعمل عملاً كئيباً » كما ذكر عن أنس حديث ضعيف

(١) الأذكار للنووى، ص ٢٨٢، الزبيدى، ج ٣، ص ٢٤٢، تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٣٨٩.

(٢) ص ٨٥.

(٣) جاء فى المستطرف، ج ٢، ص ١٩٠، أن امرأة دخلت على عائشة بنت طلحة فقيل لها هى مع زوجها فى الخلوة الخاصة فسمعت أصواتاً لم تسمعها من قبل ولما قالت لها : ما ظننت حرة ففعل مثل هذا، فقالت : إن الخيل تشرب بالصفير.

أيضاً وقيل إنه منكر « لا يقع أحدكم على امرأته كما يقع العير - الحمار - وليقدم بين يدي ذلك رسولا: القبلة والكلام » (١).

٤- عليه أن يتوخى أوقات حاجة المرأة إلى المعاشرة ليعفها ويغنيها عن أفكار غير طيبة، كما ينبغي أن يتحرى أوقات راحتها وقبولها لذلك، وأن يترك لها فرصة للراحة إن كانت متعبة جسمانياً أو نفسياً، وهذا شيء لا يحتاج إلى نص يدل عليه. ومع ذلك هناك أقوال ماثورة فيه، كما جاءت الوصية بعدم التنحي عنها إلا بعد قضاء حاجتها منه كما قضى حاجته منها، من ذلك حديث رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس يقول « ثلاث من العجز في الرجل: أن يلقي من يحب معرفته، فيفارقه قبل أن يعلم اسمه ونسبه، وأن يكرمه أحد فيرد عليه كرامته، وأن يقارب الرجل جاريتته أو زوجته فيصيبها قبل أن يحدثها ويؤانسها ويضاجعها، فيقضى حاجته منها قبل أن تقضى حاجتها منه » قال العراقي عن هذا الحديث: إنه منكر (٢). وحديث رواه أبو يعلى عن أنس « إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها، فإن سبقها فلا يُعجلها حتى تقضى حاجتها » قال البوصيري والهيثمي: فيه راو لم يُسم (٣)، وكذلك رواه عبد الرزاق في مصنفه، وفيه راو لم يسم أو ضعيف أو متروك (٤).

٥- هناك وصية قديمة منسوبة إلى الإمام على كرم الله وجهه تقول: لا تكشروا الكلام عند الجماع، فإن منه يكون الخرس والفأفة في الولد. وجاء مثلها في مسند الفردوس عن أبي هريرة، وحكم عليها ابن الجوزي بالوضع (٥). ومن الوصايا: ليغط أحدكم رأسه ومؤخرته، ولا يجمع قائماً ولا على جنب ولا على ظهر، ولا في شدة حر ولا برد، ولا هو يدافع الأخبثين، فمنه يكون الحصباء،

(١) زاد المعاد - الجماع، الجامع الكبير طبعة مجمع البحوث، ج ١، ص ٣١٥، الإحياء ج ٢، ص ٤٦.

(٢) الأحياء، ج ٢، ص ٤٦. (٣) المطالب العلية، ج ٢، ص ٣٠.

(٤) الجامع الكبير للسيوطي، ج ١، ص ٤٩٢، ٤٩٣، طبع مجمع البحوث.

(٥) المصدر السابق.

والبواسير، وليحذر أحدكم الجماع في وقت امتلاء البطن، فمن ذلك يكون اليرقان، وفي عقب الافتصاد والاحتجام، وشرب الدواء، فإنه يورث مرض السل والغشاوة في العين. ومنها عدم الجماع صدر الليل وعقب الخروج من الحمام، ونسب إلى معاوية أنه قال: نهيت أن آتى أهلى غرة الهلال<sup>(١)</sup>. ومثلها ما جاء في كتاب «مفيد العلوم»<sup>(٢)</sup> من كراهة الجماع في أول ليلة من الشهر وآخره وليلة النصف، لأن الشياطين تنتشر في هذه الليالي، وتحضر وقت الجماع. ويقول: إنه مروى عن علي ومعاوية وأبى هريرة.

هذه أقوال قد تكون نتيجة تجارب، وهى بدون سند لأصحابها فلا تلتزم، والإخبار عن الشياطين من الغيب الذى يحتاج إلى نص قوى فى دلالته وثبوته، مع ملاحظة أن بعض التجارب قد تكون صحيحة. وإن لم يظرها تفسير علمى وقتذاك، وجاءت الأبحاث الحديثة تثبتها أو تحاول إثباتها، فلا ينبغي أن نبادر بإنكارها، كما لا يجب علينا أن نصدقها حتى تثبت بالطرق الموثوقة. وقد تقدمت صورة من هذه المحاولات فى بيان آثار الحيض.

٦- هناك حديث يقول «رحم الله من بكر وابتكر، وغسل واغتسل» رواه أصحاب السنن وابن حبان وصححه من حديث أوس بن أوس، وحسنه الترمذى<sup>(٣)</sup> أخذ منه بعض العلماء نذب الجماع ليلة الجمعة أو يومها، مفسراً «غسل» بتشديد السين بحمل أهله على الغسل، ولكن روى الحديث بتخفيف «غسل» وهو من غسل الثياب ونحوها، وذلك كله من أجل النظافة لحضور صلاة الجمعة، لكن الاستدلال به على المباشرة الجنسية لهذه المناسبة ليس بقوى.

٧- من الوصايا عدم الإكثار من الجماع. وعدم تكلفه ما دام لا تدعو إليه ضرورة، فالإفراط فيه ضار، كالإفراط فى كل شىء، وليس عليه دليل بخصوصه، فيكفى النهى بوجه عام عن الإلقاء إلى التهلكة، وعن الضرر والضرار. ونشير هنا إلى ما سنفضله فى بحث حقوق الأولاد، مع عدم المبالغة فى خفاض البنت، حتى

(١) كشف الغمة للشعرانى، ج٢، ص١٠٣. (٢) ص٨٥. (٣) الإحياء، ج١، ص١٦٢.

تعتدل حساسيتها، ولا تكلف الرجل عنتاً، وفي زاد المعاد لابن القيم وصايا نافعة في هذا المقام<sup>(١)</sup>.

٨- يسن أن يغتسل عقب كل جماع. يقول ابن القيم: إن ذلك فيه من النشاط وطيب النفس وإخلاف بعض ما تحلل بالجماع، وكمال الطهر والنظافة، واجتماع الحار الغريزي إلى داخل البدن بعد انتشاره بالجماع، وحصول الطهارة التي يحبها الله - ما هو من أحسن التدبير في الجماع وحفظ الصحة والقوى فيه<sup>(٢)</sup>.

وكان النبي ﷺ يحافظ عليه، كما جاء عن أبي رافع مولاه أنه ﷺ طاف على نسائه في ليلة، فاغتسل عند كل امرأة منهن غسلًا، فقلت: يا رسول الله، لو اغتسلت غسلًا واحداً!! فقال «هذا أطيب وأطهر» رواه أبو داود في سننه<sup>(٣)</sup>. وإن كان عليه الصلاة والسلام يكتفى أحياناً بغسل واحد، لبيان الجواز وعدم الوجوب، فنحن أنس أنه ﷺ كان يطوف على نسائه بغسل واحد. رواه مسلم<sup>(٤)</sup>. ولو أراد العود إلى الجماع قبل الغسل من الأول فليتوضأ، فقد روى مسلم<sup>(٥)</sup> عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال «إذا أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعود فليتوضأ»<sup>(٦)</sup>.

هذا، ويوصى المختصون بأن يكون الاستحمام بغير الماء الساخن، لأنه يؤثر على الحيوية الجنسية، فكثرة الحمامات الساخنة، وكذلك الملابس الدافئة تقلل من حيوية الحيوان المنوي<sup>(٧)</sup>، وقد قامت جامعة «جالفستون» بولاية تكساس بأمريكا بإجراء عدة تجارب على عدد من الرجال وضعوا في حمام بخار لمدة نصف ساعة يومياً على مدى ثمانية عشر يوماً، فأتضح لهم أنهم فقدوا خصوبتهم لمدة

---

(١) ج ٣، ص ١٤٧.  
(٢) زاد المعاد، ج ٣، ص ١٤٧.  
(٣) المربع السابق.  
(٤) ج ٥، ص ٢١٧.  
(٥) زاد المعاد، ج ٣، ص ١٤٧.  
(٦) كتاب ماري ستوبس في المسألة الجنسية في الحياة الزوجية، ص ٨٣، ٨٤.

سبعة وستين يوماً بعد التجربة، وعرض العالم اللندنى (ج. نيتشار) عدداً من الرجال لدرجة حرارة ما بين ١٠٥، ١٢٠ فهرنهايتية داخل حمامات، فأتضح له أن حمامات المياه الساخنة تتلف حيوية الرجل وتسلبه نشاطه، وتضعف مقاومته للأمراض، وقد تفقده رجولته مؤقتاً<sup>(١)</sup>.

٩- يسن ألا ينام بعد الجماع إلا بعد أن يغتسل، فقد سأل عمر رسول الله ﷺ: «أينام أحدنا وهو جنب؟ قال: «نعم إذا توضأ» رواه البخارى، وكذلك رواه مسلم<sup>(٢)</sup>. وعن ميمونة بنت سعد قالت: قلت: يا رسول الله، هل يرقد الجنب؟ قال: «ما أحب أن يرقد حتى يتوضأ، فإنى أخاف أن يتوفى فلا يحضره جبريل» رواه الطبرانى فى الكبير<sup>(٣)</sup>.

وهناك توصية عامة بالمسارعة إلى الاغتسال من الجنابة، وكراهة التأخير ومباشرة الأعمال قبل أن يتطهر، فقد روى أبو داود أن النبى ﷺ قال «ثلاثة لا تقربهن الملائكة: جيفة الكافر، والمتضمخ بالخلوق، والجنب إلا أن يتوضأ» يقول الحافظ المنذرى: المراد بالملائكة هنا هم الذين ينزلون بالرحمة والبركة، دون الحفظة، فإنهم لا يفارقونه على حال من الأحوال. وروى أبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن النبى ﷺ «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب» وروى البزار بإسناد صحيح عن ابن عباس قال «ثلاثة لا تقربهم الملائكة، الجنب والسكران والمتضمخ بالخلوق». وكان هذا الحديث بمناسبة أن النبى ﷺ رأى عمار بن ياسر متضمخاً بالزعفران، وهو لا يلىق بالرجال، فحثه على إزالته. وابن الأثير فى النهاية حمل التنفير من عدم غسل الجنب على من يتعود ذلك فىكون أكثر أوقاته جنباً، وهذا يدل على قلة دينه وخبث باطنه. اهـ.

\* \* \*

(١) جريدة القبس، ١٠/٢/١٩٧٥.

(٢) رواه البخارى، وكذلك رواه مسلم، ج٣، ص٢١٦.

(٣) مشارق الأنوار للعدوى، ص٩.

## الفصل التاسع

### العدل فى القسم بين الزوجات

لا أتحدث هنا عن تعدد الزوجات من حيث مشروعيتها وما اشترط له فذلك له مبحثه الخاص به. وإنما الحديث عن سياسة الرجل مع زوجاته عند التعدد، حتى يستطيع أن يجد الجو الملائم والسكن المنشود، وتستطيع الأسرة بشركائها المتعددين أن تؤدى واجبها المطلوب.

وأول ما أنبه عليه فى هذا المجال هو العدل. والعدل بوجه عام مطلوب فى كل المجالات، وهو هنا أشد طلباً وأكثر أهمية، وذلك لشدة الحساسية بين الضرائر، وللآثار الوخيمة على الأسرة والمجتمع عند عدم مراعاته. ومن الأدلة على طلب العدل والعناية به هنا:

١- أن الله سبحانه جعله شرطاً لجواز الإقدام على التعدد، فهو من الأهمية بالقدر الذى جعل الشرع ينبه إلى مراعاته قبل التفكير فى زواج امرأة أخرى مع الزوجة الأولى، قال تعالى: ﴿فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنِي وَثَلَاثَ وَرِبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْوُوا﴾ [النساء: ٣]. فالآية تجعل مجرد الخوف من عدم العدل مانعاً من التعدد.

٢- حذر النبي ﷺ من عدم العدل بين الزوجات فقال «من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل» رواه أصحاب السنن عن أبى هريرة<sup>(١)</sup>.

٣- ما كان يفعله النبي ﷺ مع زوجاته من مراعاة العدل والحرص عليه، والله سبحانه يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

(١) الإحياء، ج ٢، ص ٤٤.

وحوادثه في ذلك كثيرة منها:

(أ) روى أصحاب السنن عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم، من مكثه عندنا، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ إلى التي هو في نوبتها، فيبيت عندها، وذكر ابن القيم أن الطواف كان بعد العصر لاستقراء أحوالهن<sup>(١)</sup>.

(ب) روى البخارى عن أنس: كان النبي ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار، وهن إحدى عشرة. قيل: أو كان يطيق ذلك؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين<sup>(٢)</sup>. وقد يكون التحدث عن هذه القوة إنما هو عن قوة التحمل الجسدى، ولا يتعين حملها على القوة الجنسية، لحديث عائشة المتقدم أنه كان يدنو من كل امرأة من غير مسيس، وأن ذلك كان في أكثر الأيام فهل هناك من البشر من يطيق ذلك؟ وأين الوقت الذى كان يتفرغ فيه للعبادة ورعاية مصالح المسلمين؟ وابن القيم يذكر أن الطواف كان بعد العصر، فهل تكفى هذه المدة لمباشرة إحدى عشرة زوجة؟ وينص على أن الطواف كان لاستقراء أحوالهن، أى الاطمئنان عليهن قبل أن يبيت عند صاحبة النوبة.

ذكر ابن العربى أن النبي ﷺ كانت له القوة الظاهرة على الخلق فى الوطء، وكان له فى الأكل القناعة، ليجمع الله له الفضيلتين فى الأمور الاعتيادية، كما جمع له الفضيلتين فى الأمر الشرعية، حتى يكون حاله كاملاً فى الدارين. اهـ.

قال القسطلانى<sup>(٣)</sup>: وروى أنه ﷺ قال «أتانى جبريل بقدر، فأكلت منها، فأعطيت قوة أربعين رجلاً فى الجماع» رواه ابن سعد مرسلًا، وروى من حديث أبى هريرة: شكَا رسول الله ﷺ إلى جبريل قلة الجماع، فتبسّم جبريل حتى تلاًّ مجلس رسول الله من بريق ثنايا جبريل، فقال: أين أنت من أكل الهريسة، فإن فيه قوة أربعين رجلاً؟ ومن حديث حذيفة بلفظ «أطعمنى جبريل الهريسة أشدُّ بها ظهري، وأتقوى بها على الصلاة» رواه الدارقطنى. ومن حديث جابر بن سمرة

(٢) الزبيدى، ج ١، ص ١٦٧.

(١) زاد المعاد، ج ١، ص ١٩.

(٣) المواهب، ج ١، ص ٢٧٥.

وابن عباس وغيرهم، ولكنها كلها واهية، بل صرح الحافظ بن ناصر الدين فى جزء له سماه «رفع الدسيسة بوضع حديث الهريسة» بأنه موضوع.

(ج) حافظ عليه الصلاة والسلام على العدل بينهن حتى فى أيام مرضه، فيروى ابن سعد فى الطبقات أنه كان يطاف به محمولاً فى ثوب أثناء مرضه فى كل يوم وليلة، فبييت عند كل واحدة منهن<sup>(١)</sup>. وأخرج البخارى ومسلم أنه كان يلقى الماء فى هذه الجولات، وكان يسأل عن صاحبة الليلة المقبلة، اشتياقاً لنوبة عائشة، فعرفت زوجاته رغبته - وقد عرضتها عليهن فاطمة - فأذن له أن يمرض فى بيت عائشة<sup>(٢)</sup>.

(د) كان إذا مال إلى واحدة فى غير نوبتها مرّ عليهن جميعاً، حتى يتحقق العدل<sup>(٣)</sup>.

(هـ) أخرج مسلم عن أنس أن زوجاته كن يجتمعن كل ليلة فى بيت النبي يأتيها، وأنه كان إذا قسم بينهن لا ينتهى إلى المرأة الأولى إلا فى تسع وذلك عندما كان عنده تسع فقط<sup>(٤)</sup>.

(و) كان يحافظ على شعورهن وهن مجتمعات بعضهن مع بعض فى بيت صاحبة النوبة، فلا يولى غير صاحبة النوبة اهتماماً، أو يعمل شيئاً يدخل الغيرة عليها. ففى صحيح مسلم عن أنس أنه كان فى بيت عائشة صاحبة النوبة، وهن مجتمعات هناك، فجاءت زينب فمد يده إليها، فقالت عائشة: هذه زينب، فكف النبي يده فتناولتا حتى استخبتا - تسابتا - وأقيمت الصلاة. فمر أبو بكر على ذلك فسمع أصواتهما، فقال: اخرج يا رسول الله إلى الصلاة، وأحث فى أفواههن التراب، فخرج النبي ﷺ، فقالت عائشة: الآن يقضى النبي صلته فيجيبى، أبو بكر فيفعل بى ويفعل. فلما قضى النبي صلته أتاها أبو بكر فقال لها قولاً شديداً، وقال أتصنعين هذا؟<sup>(٥)</sup>.

(١) (٣، ٢، ١) الإحياء، ج ٢، ص ٤٥. (٤) ج ١٠، ص ٤٦، زاد المعاد، ج ٤، ص ١٩.

(٥) ج ١٠، ص ٤٦.

(ز) كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها، كما رواه البخارى ومسلم<sup>(١)</sup>، ولم يختر من يشاء منهن، محافظة على شعورهن. وإليك هذه الحادثة الطريفة، كما رواها الشيخان:

عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه، فطارت القرعة على عائشة وحفصة، فخرجتا معه جميعاً، وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث معها، فقالت حفصة لعائشة: ألا تركبين بعيرى وأركب بعيرك فتنظرين وأنظري؟ قلت: بلى. فركبت عائشة على بعير حفصة، وركبت حفصة على بعير عائشة، فجاء رسول الله ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة فسلم، ثم سار معها حتى نزلوا، فافتقدته عائشة فغارت. فلما نزلوا جعلت تجعل رجلها بين الإذخر وتقول: يارب سلط على عقرباً أو حية تلدغنى، رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئاً.

وعن عائشة أيضاً ما ملخصه: أنها خرجت مع النبي ﷺ فى حجة الوداع، ومعه نساؤه، وكان متاعها فيه خف - خفة - وكان على جمل ناج - سريع - وكان متاع صفية فيه ثقل، وكان على جمل ثقال - بطيء - (ثقال بالفاء أو بالقاف) يتبطأ بالركب. فقال النبي ﷺ « حولوا متاع عائشة على جمل صفية، ومتاع صفية على جمل عائشة حتى يمضى الركب » تقول عائشة: فلما رأيت ذلك قلت: يا لعباد الله!! أغلبت هذه اليهودية على رسول الله؟ قالت: فقال رسول الله « يا أم عبد الله، إن متاعك كان فيه خف، وكان متاع صفية فيه ثقل.. فقلت: ألسنت تزعم أنك رسول الله؟ فتبسم وقال « أفى شك أنت يا أم عبد الله؟ » فأعادتها مرة ثانية، وقالت: فهلا عدلت.. وسمعها أبو بكر - وكان فيه غرب، أى حدة - فلطم وجهها، فقال النبي ﷺ « مهلا يا أبا بكر » فقال: يا رسول الله، أما سمعت ما قالت؟ فقال ﷺ « إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادى من أعلاه. » قال الهيثمى: فيه ابن اسحق، مدلس<sup>(٢)</sup>.

(١) الزبيدي، ج ٣، ص ٢٥٣، مسلم، ج ١٥، ص ٢٠٩. (٢) المطالب العالمة، ج ٢، ص ٢٠.

وابن اسحاق صاحب السيرة اختلف رجال الحديث فى قبول رواياته فى المغازى ورفضها .

هذا، وقسم النبى ﷺ بين زوجاته فيه خلاف بين وجوبه عليه وعدم وجوبه . فقال كثير من العلماء، منهم مالك وابن الجوزى والاصطخرى : لم يكن واجباً عليه، والمشهور عند الشافعية وأكثر العلماء الوجوب، ويجاب عن الأحاديث التى كان يطوف فيها على نساءه فى اليوم الواحد أنه كان باستطابتهن، أو كان الدوران فى يوم القرعة للقسمة قبل أن يقرع بينهن<sup>(١)</sup>، وكان حرصه على العدل تنفيذاً لأمر الله تعالى، ولتقتدى به الأمة، فإن التهاون فيه له ضرره الكبير .

والعدل المفروض يكون فى النفقة وفى المبيت حتى لو كان من غير مباشرة جنسية، والعدل فى النفقة سيكون الحديث عنه بالتفصيل عند ذكر حق الإنفاق، والمهم هنا هو الحديث عن المبيت، فالزوج لا بد أن يسوى بين زوجاته فيه، على معنى أن يجعل لكل منهن يوماً أو عدداً من الأيام بالتساوى، أو بحسب رضاهن، وإن كن يحرصن على المساواة حتى لو لم يتبعها شىء من المتعة، فيكفى إحداهن أنها أخذت حقها ولو بالأنس العام، وقد رأيت حرص النبى ﷺ على هذه التسوية بين زوجاته .

ولا يلزم من المبيت الجماع، فإن ذلك راجع إلى أمرين، الاستعداد الجسمى، والاستعداد النفسى . فقد يكون الزوج متعباً أو مريضاً لا يستطيع المباشرة الجنسية، وقد يكون مرهقاً نفسياً، أو غير ميال إليها، فلا يستطيع ذلك .

فإذا امتنع عنها ينظر إلى الباعث على امتناعه، فإن كان لعله فيسولوجية أو نفسية لا يستطيع معها المباشرة فهو معذور، أما إن كان مستطيعاً ولكن داعيه إلى الضرة أقوى، فهذا مما يدخل تحت استطاعته . فإن أدى الواجب عليه منها لم يبق لها حق، ولا تلزمه التسوية، وإن ترك الواجب منها فلها المطالبة به<sup>(٢)</sup> .

ولا تجب التسوية فى الحب القلبي، فذلك غير مستطاع وقد يكون هو المراد

(١) شرح ثلاثيات أحمد للسفارينى، ج ١، ص ٣٥٧ . (٢) زاد المعاد، ج ٤، ص ١٩ .

بقوله تعالى ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمَعْلُوقَةِ ﴾ [النساء: ١٢٩]، فالتعبير بالميل فى الآية يناسب أن يراد به الميل القلبى، ويوضحه قول النبى ﷺ « اللهم هذا قسمى فيما أملك، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » فالذى يملكه هو النفقة والمبيت، والذى لا يملكه هو الحب القلبى. أخرجه أصحاب السنن<sup>(١)</sup>.

ورأى بعض المفسرين أن هذه الآية يراد بها عدم الاستطاعة فى العدل فى النفقات حتى مع الحرص عليه، وقد يكون ذلك صحيحاً، لأن العدل التام الذى لا مطعن فيه أبداً غير ممكن. فإن مقادير الطعام وألوان الكساء وأنواعها ومعرفة أذواقهن فيها، وملاحظة المكانة الاجتماعية لكل منهن كالغنية والفقيرة، والاطمئنان إلى رضا كل واحدة عن نصيبها يجعل العدل المطلق صعباً. ولكن ما فى الإمكان هو المطلوب، على ما فيه من تقصير يغتفر، ولهذا جاء النهى عن كل الميل، لا عن أى ميل، فإن ذلك غير مستطاع. وحديث الرسول ﷺ فى الميل القلبى يرجح حمل الآية عليه.

– وختام الآية بقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَصَلَّحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ يعنى: إن تفعلوا ما فيه الصلاح فى قيادة الأسرة وغيرها حسب ما أمر الله به، وحسب ما أداكم إليه اجتهادكم من العشرة بالمعروف، وتكونوا فى ذلك مراقبين لله خائفين من تبعة التقصير، فإن الله يتجاوز لكم عن بعض ما يقع من تقصير غير مقصود به الإضرار، أو لم تستطيعوا تداركه فهو سبحانه غفور لهذه الهنات رحيم لا يكلفكم ما لا تطيقون.

ومما يدل على أن الحب ليس فى الاستطاعة العدل فيه، وأنه هبة من الله تعالى، أن النبى ﷺ وسلم عبّر عنه فى حق خديجة بقوله « إني قد رزقت حبها » كما سبق ذكره، والرزق ينسب دائماً أو فى الغالب إلى الله تعالى، ولذلك جاء التعبير عنه بصيغة المجهول، وكذلك رفضه ﷺ ما طلبه زوجاته من عدل فى حب

(١) زاد المعاد، ج ١، ص ٣٨، ج ٤، ص ١٩، تفسير القرطبي، ج ١٤، ص ٣١٧.

عائشة، وأرسلن بذلك فاطمة إليه حيث قالت له: إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، فقال لها «أى بنية، أأنت تحبين ما أحب»؟ فقالت: بلى، قال «فأحبى هذه» رواه مسلم<sup>(١)</sup>.

وقال العلماء: لا تجب التسوية في النظرة إليهن، فإنها من لوازم الحب والإعجاب، غير أنني أرى أن هذه في استطاعة الرجل، ويمكنه التحكم فيه، ولو بقدر، فإنه أمر ظاهري تشاهده النساء، أما الحب القلبي فأمر باطن لا يشاهدنه، وإن شاهدن آثاره.

ولا يجوز للرجل أن يترك الحق الواجب للزوجة في المبيت إلا برضاها، فإن تنازلت عنه لكبر سنها أو لمرضها أو لأي سبب آخر فلا بأس، وقد يكون التنازل له لإحدى الزوجات فتحظى بنصيبين بدلاً من نصيب واحد، وقد يكون بغير إعطائه لواحدة، فيسقط حقها هي فيه فقط.

يقول النووي: يشترط رضا الزوج بذلك، لأن له حقاً في الواهبة، فلا يفوته إلا برضاها، ويجوز أن تهب للزوج فيجعل الزوج نوبتها لمن شاء. وقيل: يلزمه توزيعها على الباقيات، ويجعل الواهبة كالمعدومة، والأول أصح. وللواهبة الرجوع متى شاءت<sup>(٢)</sup>، ودليل هذا التنازل ما يأتي:

١- جاء في الصحيحين أن سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، فكان النبي ﷺ يقسم لعائشة يومين<sup>(٣)</sup>، وكان سبب التنازل خشية طلاق النبي لها لكبر سنها، روى الترمذي بسند حسن عن ابن عباس وأبو داود والحاكم عن عائشة، أن سودة خشيت أن يطلقها ﷺ، فقالت: لا تطلقني وأمسكني، واجعل يومي لعائشة، ففعلت. فأنزل الله ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

(١) صحيح مسلم، ج ١٠، ص ٤٨.

(٢) ج ١٥، ص ٢٠٥.

وجاء في الزرقاني على المواهب<sup>(١)</sup> أن ابن عبد البر عن عائشة: لما أسنت سودة همَّ ﷺ بطلاقها، فقالت: لا تطلقني وأنت في حل مني، فأنا أريد أن أحشر في زمرة أزواجك، وإنني قد وهبت يومي لعائشة، وإني لا أريد ما تريد النساء، فأمسكها حتى توفي.

وقيل: سبب همه بطلاقها خوفه من ظلمها في حقها في المعاشرة لكبر سنها، وما رواه ابن كثير عن بعض المعاجم من كونه ﷺ بعث إليها بطلاقها، ثم ناشدته فراجعها، فهو - زيادة عن إرساله وغرابته كما قال ابن كثير - فيه نكارة لا تخفى<sup>(٢)</sup>.

والصلح المذكور في الآية هو على هبة نوبة سودة لعائشة، وتطبيقاً لذلك يجوز أن يكون التصالح على شيء آخر. ومنه إيثار الزوجة الجديدة على الزوجة القديمة، كما حدث لرافع بن خديج الأنصاري، من أصحاب النبي ﷺ، حيث كانت عنده امرأة، حتى إذا كبرت تزوج عليها فتاة شابة، وآثرها عليها، فناشدته الطلاق، فطلقها تطليقة، ثم أمهلها، حتى إذا كادت تحل راجعها، ثم عاد فأثر عليها الشابة، فناشدته الطلاق، فقال لها: ماشئت، إنما بقيت لك تطليقة واحدة، فإن شئت استقررت على ما ترين من الأثرة، وإن شئت فارقتك. فقالت: لا، بل استقر على الأثرة فأمسكها على ذلك، فكان ذلك صلحاً، ولم ير رافع عليه إيثار حين رضيت أن تستقر عنده على الأثرة، فيما أثر به عليها. ذكر هذا الخبر ابن كثير في تفسيره للآية، وهو يحتاج إلى إثبات يعتمد عليه، وهل كان إيثار رافع الصحابي للشابة فيما يجب عليه العدل فيه، أو في الحب القلبي فقط دون أن تكون له مظاهر تجعل القديمة تطلب الطلاق لعدم تحملها؟ الأمر يحتاج إلى بحث، وما ثبت عن الرسول ﷺ فيه الكفاية.

٢- ورد أن النبي ﷺ كان قد وجد على صفة في شيء، فقالت لعائشة: هل لك أن ترضي رسول الله عنى وأهب لك يومي؟ قالت: نعم، فقعدت عائشة

(١) ج ٣، ص ٢٢٩. (٢) محاسن التأويل للقاسمي «إن امرأة خافت...».

إلى جنب النبي ﷺ فى يوم صافية، فقال: «إليك عنى يا عائشة، فإنه ليس يومك» فقالت: ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء، وأخبرته الخبر، فرضى عنها. وكانت تلك الهبة ليلة واحدة ويوم واحد<sup>(١)</sup>.

هذا، وهناك بعض الحالات التى لا تلزم فيها التسوية فى القسم، وذلك بين البكر والثيب عند الزواج بجديدة منهما، ففى الصحيحين<sup>(٢)</sup> عن أنس أنه قال: من السنة إذا تزوج الرجل البكر على الثيب أقام عندها سبعا، وقسم. وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثا، ثم قسم. قال خالد - أحد الرواة - ولو شئت لقلت: إن أنسا رفعه إلى النبي ﷺ. وهذا الذى قاله خالد قد جاء مصرحاً به عن أنس كما رواه البزار من طريق أيوب السختياني<sup>(٣)</sup>.

وفى مسلم أن أم سلمة رضى الله عنها لما تزوجها النبي ﷺ فدخل عليها، أقام عندها ثلاثا ثم قال «إنه ليس بك على أهلك هوان، إن شئت سبعت لك، وإن سبعت لك سبعت لنسائي». ولمسلم فى لفظ آخر: لما أراد أن يخرج أخذت بثوبه، فقال «إن شئت زدتك وحاسبتك به، للبكر سبع وللثيب ثلاث»<sup>(٤)</sup>. ومعنى ليس بك على أهلك هوان. لا يلحقك هوان، ولا يضيع من حقك شيء، فالمراد بأهلك هنا نفسه ﷺ، كما قاله القاضى عياض.

ويرى الأحناف أن الزوجة الجديدة ليس لها عند زفافها شيء من هذه الأيام، اللهم إلا القسم العادى، وحجتهم فى ذلك تساوى الزوجتين فى الزوجية، فلا مبرر لتخصيص الجديدة بزيادة، ولكن يرد عليهم بالأحاديث، وبأن كل جديدة لها هذا الحق، فهن متساويات فيه ولا ظلم عليهن. والجديدة ينبغى أن تستقبل استقبالا خاصاً لتهيئة نفسها للعش الجديد.

هذا، وكان الصحابة والسلف الصالح حريصين على العدل بين الزوجات،

(١) زاد المعاد، ج ١، ص ٣٩، تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣٠٥.

(٢) مسلم، ج ١٠، ص ٤٥. (٣) زاد المعاد، ج ٤، ص ١٩.

(٤) ج ١٠، ص ٤٣، ٤٤.

وتحاشوا بسبب ذلك ما يترتب على الظلم من هزات فى الأسرة والمجتمع، فقد ورد عن جابر بن زيد أنه قال: كانت لى امرأتان، فلقد كنت أعدل بينهما حتى أعدّ القبيل، ذكره الألوسى فى تفسيره<sup>(١)</sup> وخافوا من عذاب الله خوفاً شديداً حمل بعضهم على أن يلتزم العدل بين زوجاته حتى بعد موتهن، فقد ورد أن معاذ بن جبل - الذى قال: من كانت له امرأتان فإذا كان يوم هذه لم يشرب من بيت الأخرى الماء - ماتت له امرأتان فى الطاعون، فأسهم - أقرع - بينهما، أيهما تدلى فى القبر أولاً. ذكره القرطبي فى تفسيره<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

---

(١) العطار، ص ١٦٥.

(٢) ج ١٤، ص ٢١٧.

## الفصل العاشر

### مشاورتها

المشورة فى حد ذاتها أمر هام لكل إنسان يريد أن يحيا حياة طيبة، فالمشكلات كثيرة، وقد تخفى وجوه حلها على الكثير من الناس. بحيث لا يستطيع الرأى الفردى أن يهتدى إليها، فيكون من الحكمة اللجوء إلى الآراء الأخرى التى يأنس الإنسان فى أصحابها الخبرة والحصافة، والله در القائل:

الرأى كالليل مُسَوِّدٌ جوانبه      والليل لا ينجلي إلا بإصباح  
فاضم مصابيح آراء الرجال إلى      مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

ومن استشار قلّ أن يخيب له سعى، وإن كبا به جواد الحظ وجد من يعذره، ويرثى له ويقف بجواره، لأنه رمى بأخر سهم فى كنانته، ولجأ إلى كنانة الآخرين، ومسئولية الخطأ ستكون موزعة بينه وبين غيره، فيخف حملها ويهون وقعها، كما قال الشاعر:

وأكثر من الشورى فإنك إن تصب      تجمد مادحا، أو تخطىء الرأى تعذر

ومشكلات الحياة الزوجية كثيرة، وتبعاتها جسيمة، ومسيرتها الطويلة تعترضها عقبات لا محالة، فلا بد من التشاور لحل ما أشكل، وإزالة العقبات أو اتقائها، والرجل والمرأة شريكان فيما يصيب الأسرة من خير وشر، ومن هنا نرى أنه ليس من الصواب أن يستبد الرجل برأيه، ويتعالى عن استشارة زوجته، وبخاصة فى الأمور التى تتعلق بالحياة الزوجية.

لقد ذهب بعض المتزمتمين إلى إهمال رأى الزوجة إهمالاً تاماً، لأنها فى نظره ليست أهلاً للاستشارة، وآثر أن يعيش مستبداً يملك كل الزمام بيده، وما على

الزوجة إلا أن تطيع طاعة عمياء، وتنفيذ كل ما يريد. وهذه النظرة امتداد للنظرة القديمة التي تحدثنا عنها في البحث الخاص بالحجاب، وهي قائمة على الاستغلال السيئ لقول الله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤].

وذهب بعض آخر إلى إشراك المرأة مع زوجها في كل شأن من الشؤون، حتى التي لا تتصل بحياة الأسرة، وتعدى ذلك الأمر حده حتى تملص الزوج من المسؤولية، وآثر أن يعيش شخصاً عادياً في المنزل، يجرى عليه ما يجرى على أى فرد فيه، فصارت المرأة ممثلة للسلطة التشريعية، وهو المنفذ لما تقرره، بل تبادت حتى استأثرت هي بالسلطتين معاً، فاستولت على إيراد الزوج، ووضعت بنفسها مشروع الميزانية المنزلية، ونفذته كما تريد. لايهمها بعد أن تغطي المصروفات، أو تلجأ إلى الاحتياطي حتى تأتي عليه أيضاً.

يقول «جون بلومب»: إذا قالت لك زوجتك: إنك تفرط في التدخين فاعلم أنها اشترت شيئاً لم يكن ينبغى لها أن تشتريه، معنى هذا أنها تبدأ بنقدك في بعض تصرفاتك الكمالية حتى لا تعترض أنت عليها وتنقدها في شيء كمالى، أو أنها اشترت شيئاً من الكماليات وحتى لا يؤثر على ميزانية البيت توصى زوجها بعدم الإفراط في التدخين، حتى يتوفر ثمن هذا الشيء، أى أنها تؤثر هواها على هواه، وتحرمه من شيء يرى فيه لذته من أجل لذتها هي.

والذى حدا بهؤلاء إلى سلوك هذا المسلك:

(أ) إما تأثرهم بالتيارات الفكرية الحديثة فى إعطاء المرأة حقوقها، واحترامها فى المجتمع العصرى احتراماً يجعلها مساوية للرجل فى كثير من الحقوق إن لم يكن فى جميعها.

(ب) وإما تملصهم من لوم ينصب عليهم منها لو أخطأ أحدهم فى أمر استبد برأيه فيه، وكثير من هؤلاء الرجال ليس لهم من الرجولة إلا اسمها، فهم أضعف من أن يقفوا أمام رغباتها، أو يعترضوا سلطانها الذى تعدى حدوده الطبيعية والاجتماعية والدينية.

(ج) وإما ميلهم إلى الراحة الفكرية والنفسية، وإلقاء تبعه الحياة الزوجية كلها على عاتق المرأة، ليخلو له الجو في حياته الخارجية، ولا يعترض تيار لذاته شيء من مشكلات الحياة المنزلية، وتغالى هؤلاء فجعلوا الزوجة مستشارهم الأول في كل شئون الحياة، لأنها جديرة بذلك في المجتمع العصري الحديث.

وكلا النوعين من الأزواج على خطأ عظيم، فالأولون قد فرطوا في حق التشاور، ونظروا إلى المرأة بمنظار قاتم، كأنها متمحضة للشر ولا خير فيها، لكن المرأة - كما قدمنا في هذا البحث - ليست بهذه الصورة، ففيها من نواحي الخير نصيب، وقد يكون لها نظر تحمد عليه، أو رأى صائب يلجأ إليه، على الرغم مما بيننا وبين المختصون من وجود فوارق عقلية بين الرجل والمرأة، فقد أمر النبي ﷺ أن يستشير أصحابه، وهم أدنى منه نظراً وفكراً، قال تعالى « وشاورهم في الأمر » وقد حمد لصفية رأيها في عدم بنائه عليها وهي في الطريق منصرفاً من خيبر، خوفاً عليه أن يبغته اليهود وهو قريب منهم، كما رواه ابن سعد<sup>(١)</sup>، وقد سبق ذكره في الجزء الأول من هذه الموسوعة، وكذلك استجاب لرأى أم سلمة في أزمة الحديبية، فقد روى البخارى وغيره من الثقات أنه ﷺ لما فرغ من كتاب الصلح أمر أصحابه أن يتحللوا من إحرامهم بالنحر والحلق، ويرجعوا إلى المدينة، لأنهم أحصروا عن إتمام النسك، فعز عليهم أن يرجعوا من غير فتح، ولم يبادروا إلى تنفيذ أمر الرسول ﷺ، على غير عادتهم، انتظاراً منهم لوحى قد ينسخ ما كان، أو دهشة منهم لهذا الوضع الذى اضطروا إليه، أو لحملهم أمر الرسول على الترخيص دون الإلزام، فلما رأى منهم ذلك دخل على أم سلمة وشكا إليها تباطؤهم فى تنفيذ أمره، فقالت: يا رسول الله، لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم من غير فتح، ثم قالت: يا نبي الله، اخرج ثم لا تكلم منهم أحداً كلمة حتى تنحر بدئك وتدعو حالك فيحلقك، فخرج وفعل ذلك، فقاموا ونحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً.

(١) الزرقانى على المواهب، ج ٣، ص ٢٥٩.

وقد علق العلماء على ذلك بمدحهم مشورة المرأة الفاضلة، وسداد رأى أم سلمة، حتى قال إمام الحرمين: لا نعلم امرأة أشارت برأى فأصابت إلا أم سلمة. واستدرك بعضهم عليه بنت شبيب ومشورتها على أبيها استئجار موسى فإنه القوى الأمين<sup>(١)</sup>.

وكان لأم سلمة فضل أيضاً على الحارث بن عم النبي ﷺ، عندما جاءه في الطريق إلى فتح مكة ليسلم، فأعرض عنه، فقالت للنبي ﷺ: لا يكن ابن عمك أشقى الناس بك، فقبل إسلامه، وهو تأثير نابع من العقل والحكمة، لا من الهوى والشهوة.

والتاريخ ملئ بآراء بعض النساء في مسائل هامة أصابت فيها، فامرأة فرعون أشارت بعدم قتل موسى عندما التقطوه من اليم ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]. وأخت موسى قالت عندما امتنع عن الرضاعة من أمة امرأة ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ [القصص: ١٢]. وبلقيس عندما جاءها كتاب سليمان وجمعت أولي الرأي لاستشارتهم ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُون﴾ [النمل: ٣٢]، ولما فوضوا الأمر إليها قالت ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥].

كما يحكى لنا القصص العربي أن بهيسة بنت أوس بن حارثة عندما تزوجها الحارث بن عوف لم توافق على بنائه عليها في محلة أهلها، أو في الطريق، بل حتى في محلته هو إلا إن أصلح بين الفتيتين المتقاتلتين، وكان لذلك أثره الحميد. والحكاية مذكورة بالتفصيل في بحث اختيار الزوجين في الجزء الأول من هذه الموسوعة.

وقد ذكر ابن الأثير أن زوجة عثمان بن عفان سمعت يوماً مروان بن الحكم يشير عليه برأى غير راشد، فتدخلت وأشارت بغيره، فقال لها مروان: اسكتي أنت لا شأن لك، فقال له عثمان: دعها فإنها أنصح لي منك.

(١) المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٠٨.

فالرجل، وإن كان صاحب اليد الطولى فى الإنفاق على الأسرة، لا ينبغى أن ينسى أن بينه وبين الزوجة عقد شركة وميثاقاً غليظاً أن يتعاونوا على خيرها وعلى خير المجتمع كله، فليشرك معه شريكته فى تحمل تبعات الأسرة، ولعل لها بعض الصواب فى ناحية من النواحي كما سبق ذكره.

والبعض الآخر مُفرط فى إعطاء المرأة كل الزمام، وفى ذلك خطر جسيم بيناه فى مقدمة هذا البحث فى القاعدتين الأولى والثانية، فلن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة، كما سبق بذلك الحديث. وأخرج الترمذى عن أبى هريرة قوله صلى الله عليه وسلم « .. وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نساءكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها » قال الترمذى: حسن غريب، أى رواه راو واحد فقط<sup>(١)</sup>.

ويعجبني فى هذا المقام ما ذكرته كتب الأدب<sup>(٢)</sup> أن صياداً أتى «أبرويز» بسمكة فأعجبه حسنهما، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فخطأته زوجته «شيرين» فقال لها: ماذا أفعل؟ فقالت: إذا جاءك فقل له: أذكراً كانت أم أنثى؟ فإن قال لك: ذكر، فاطلب منه الأنثى، وإن قال لك: أنثى، فاطلب منه الذكر، فلما أتاه الصياد سألته، فقال: كانت أنثى، فقال: ائتنى بذكرها، فقال: عمر الله الملك، كانت بكرأ لم تتزوج، فقال «زه» - علامة استحسان - وأمر له بثمانية آلاف درهم، وقال: اكتبوا فى الحكمة: الغدر ومطاطوعة النساء يؤديان إلى الغرم الثقيل.

والحق الذى يفهم من روح الإسلام، وتدلل عليه طبيعة الحياة الزوجية، أنه لا بد أن تكون هناك مشاورة بين الزوجين فى شؤون الحياة الزوجية بالذات، وذلك لأمر:

(أ) إنها أمر يقتضيه عقد الشركة بينهما، والرئيس لا يستأثر بالرأى وحده، والذى يملك منهما أسهماً أكثر من الآخر لا ينبغى أن يهمل شريكه إهمالاً كلياً، فإنه سيناله من هذه الشركة ربح أو خسارة ولو إلى حد ما.

(٢) المستطرف، ج ٢، ص ١٩٠.

(١) الترغيب، ج ٣، ص ١٦٠.

(ب) المرأة أدرى بكثير من مصالح المنزل، خصوصاً من الناحية المادية، في المصروفات والتنظيمات وما إليها، وذلك لشدة التصاقها به.

(ج) الأذواق مختلفة في المأكل والملبس، فلا يجوز إرغامها على طعام أو كساء لا تألفه ولا تستسيغه ولا تحبه.

(د) الاستشارة لها تأثير كبير في سعادة الأسرة، لأمر ثلاثة، الأول أن الزوجة تشعر بوجودها كشخص له قيمته، وتحس بمركزها الأدبي واحترام الزوج لها، وهذا يؤثر في نفسها من ناحيتين، الأولى أنسها بالحياة المنزلية، وسرورها بعشها الجديد، والثانية إخلاصها في العمل الذي كان نتيجة رأيها، واجتهادها في تلافى الخطأ الذي يترتب على وحي مشورتها، وفي ذلك خير للمنزل لا يستهان به.

والثاني أن الرجل الذي أخذ رأى زوجته يفلت من اللوم الذي يوجه إليه، ويخفف التبعة المترتبة على الخطأ الذي اشتركت المرأة في رسم الطريق إليه عن قصد أو غير قصد.

والثالث أن كلاً من الطرفين يلتمس العذر للآخر، وينظر إليه نظرة المشفق الرائي، لا الشامت الفرح، وهذا الشعور المتبادل يؤدي إلى هدوء الحياة الزوجية، ويفسح لها الطريق حتى تصل بسلام إلى ما تريد من خير، بعيداً عن الشجار والصخب واللوم والتقريع.

ومما يدل على استشارة المرأة في الأمور الزوجية أن الله سبحانه قرر العمل بمقتضى ما يتفق عليه الزوج والزوجة في الطفل الذي يكون بينهما عند إرادة فطامه فقال - ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]. فإن حياة الطفل تتعلق بهما معاً، فالرجل عليه الإنفاق، والمرأة عليها الإرضاع والرعاية، ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمِّرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦].

وإذا قلنا بالتشاور بين الزوجين، فيلبي أي حد تكون المشاورة؟ لا ينبغي أن

يساء استعمال هذا الحق حتى لا تقع الأخطاء التي تترتب على النظرتين المختلفتين اللتين أشرنا إليهما، بل لا بد أن يكون لرأى الزوجة مجال لا تتجاوزه حتى لا يجبر وراءه الخطر.

فهى تستشار ويحترم رأيها إلى حد كبير فى شئون المنزل، من جهة المال والنظام، ومن جهة تربية الطفل وتعرف ميوله، لأنها أعرف بذلك من الزوج، أما الأمور الخاصة بالرجل أو بالحياة العامة فإن رأيها فى هذا المجال دون رأيها فى المجال السابق، وعلى هذا يحمل زجر عمر لا مرأته عند إشارتها عليه فى أمر أحد الولاة، وقوله: خالفوا النساء، فإن فى خلافهن البركة، وهو معنى المثل الصينى: انصت إلى زوجتك ولا تصدقها<sup>(١)</sup>.

ويقول أبو بكر رضى الله عنه: دَلَّ من أسند أمره إلى امرأة<sup>(٢)</sup>. وتقدم فى هذا البحث قول على فى الحذر من النساء، وعدم سماع النبى ﷺ لرأى عائشة فى تقديم غير أبيها فى الصلاة بالناس، وفى عدم إخباره باقى نسائه باختيارها له وقوله «إن الله لم يبعثنى معنّاً ولا متعنّاً، ولكن بعثنى معلماً ميسراً».

وجاء فى كتاب «أعلام النساء» لعمر كحالة قول الشاعر:

شيئان يعجز ذو الرياضة عنهما رأى النساء وإمرة الصبيان

أما النساء فميلهن إلى الهوى وأخو الصبا يجرى بغير عنان

وذلك بمناسبة تحكم أم الأمير «نوح» فيه وفى شئون الدولة فى فارس فى القرن الرابع الهجرى، قاله ابن الأثير فى تاريخه «الكامل».

\* \* \*

(٢) المستطرف، ج ٢، ص ١٩٠.

(١) نشرة وزارة الأوقاف رقم ٥٤.

## الفصل الحادى عشر

### الإنفاق عليها

الحديث عن حق النفقة على الزوجة يتناول عدة نقاط، وجوبها، الترغيب فيها. وقتها، سقوطها، أنواعها، مقدارها، حكم العجز عنها، والعدل فى توزيعها.

وهذا الحق الثابت لها على الزوج إن لم يكن حقاً دينياً تنزلت به الشريعة، فهو حق إنسانى تقضى به الحياة الاجتماعية للبشر، ذلك أن جهة الاختصاص فى كفالتها قد انتقلت من الأبوين إلى الزوج، الذى قطع نفسه من حياة أهلها لمتعته وتوفير السكن والراحة له، فليست لها فرصة تكسب منها قوتها أو تحصل على حاجتها، فليكن من منطق الحياة أن تكافأ على ذلك بما تكافأ به خدمات أخرى أقل منها شأناً. ومع ذلك فالشريعة نظمت هذا الحق، وتناولته من عدة وجوه، نورد بعضها فيما يلى :

#### ١- وجوب النفقة :

أمر الله برعاية هذا الحق فى عدة مواطن من القرآن الكريم، وأوصى به النبى ﷺ فى عدة أحاديث، سيأتى كثير منها فى موضعه فيما بعد .

فمن القرآن الكريم :

\* قوله تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء : ٣٤] ، والإنفاق هنا يدخل فيه الصداق وغيره .

\* قوله تعالى : ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة :

[٢٢٨]، والضمير فى قوله ﴿رَزَقْنَهُنَّ وَكَسَوْتُهُنَّ﴾ راجع إلى الوالدات المذكورات فى أول الآية، والمولود له هو زوج الوالدة عند دوام الزوجية.

\* قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلًا فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فِى تَرْضِعِ لَهُنَّ أُخْرَىٰ \* لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٦، ٧]. وهو حديث عن نفقة المطلقات فى العدة، وأولى بها من كانت فى العصمة.

\* قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وقوله ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، والنفقة أول ما يدخل فى المعاشرة بالمعروف.

#### ومن الحديث:

\* قوله ﷺ فى حجة الوداع «ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف» رواه مسلم<sup>(١)</sup> وفى رواية الترمذى وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص «ألا وحققهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن» وهو حديث حسن صحيح، ولا شك أن الإحسان والمعروف يلتقيان عند نقطة واحدة<sup>(٢)</sup>.

\* وقوله عندما سأله معاوية بن حيدة عن حق الزوجة على الزوج «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا فى البيت» وهو حديث حسن رواه أبو داود<sup>(٣)</sup>.

\* وقوله فى التحذير من التقصير فى هذه النفقة «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» وهو حديث صحيح رواه أبو داود وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ورواه مسلم فى صحيحه بمعناه، قال «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن

(٢) رياض الصالحين، ص ١٤١.

(١) ج ٨، ص ١٨٤.

(٣) رياض الصالحين، ص ١٤٢.

يملك قوته»<sup>(١)</sup> والذي يُملك هم العبيد والإماء، فنفقتهم واجبة على من يملكهم، ومثلهم في ذلك الزوجة والأولاد فنفقتهم على الزوج والآباء.

\* وقوله في التحذير أيضاً من التقصير فيها وفي غيرها «إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته» رواه ابن حبان في صحيحه عن الحسن<sup>(٢)</sup>.

## ٢- فضلها:

لقد سما الله بهذه النفقة إلى درجة عظيمة، فوعد عليها أجراً كبيراً، ترغيباً للرجل في المحافظة عليها، وجعل الزوجة مقدمة على سائر الأهل في الصدقة، كما يلي:

(أ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «تصدقوا» قال رجل: عندي دينار، قال «تصدق به على نفسك» قال: عندي دينار آخر: قال «تصدق به على زوجتك» قال: عندي دينار آخر، قال «تصدق به على ولدك» قال: عندي دينار آخر، قال: «تصدق به على خادمك» قال: عندي دينار آخر، قال: «أنت أبصر به» رواه أحمد والنسائي، ورواه أبو داود، ولكنه قدم الولد على الزوجة، ويمكن الميل إلى تقديم الزوجة برواية حديث جابر أن النبي ﷺ قال لرجل «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك، فإن فضل شيء فلذئ قرابتك، فإن فضل عن ذئ قرابتك شيء فهكذا وهكذا» رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي. وهذا محمول على أن الأهل يراد به الزوجة، أما إن أريد به الزوجة والولد فهما سواء في درجة الإنفاق، ويرجع هذا الرأي رواية أبي هريرة السابقة، مرة بتقديم الزوجة، ومرة بتقديم الولد<sup>(٣)</sup>.

(ب) حديث سعد بن أبي وقاص الطويل، وفيه «وإنك لن تنفق نفقة

(٢) الترغيب، ج ٣، ص ١٦.

(١) رياض الصالحين، ص ١٤٦.

(٣) نيل الأوطار، ج ٦، ص ٣٤٠.

تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تضع فى فى امرأتك» رواه البخارى ومسلم<sup>(١)</sup>.

(ج) حديث «دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك». رواه مسلم عن أبى هريرة<sup>(٢)</sup>.

(د) حديث «إذا أنفق الرجل على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة» رواه البخارى ومسلم عن أبى مسعود البدرى، أى كان له ثواب الصدقة<sup>(٣)</sup>.

(هـ) حديث «كل ما صنعت لأهلك صدقة» رواه الطبرانى بسند رجاله ثقات، والنسائى وأبو يعلى، وجاء فى رواية لأبى يعلى أن الحديث قيل بمناسبة شراء عمرو بن أمية مرطاً غالى الثمن، وقال لعثمان بن عفان، أو عبد الرحمن بن عوف، اللذين لم يشترياه، لغلاء ثمنه، وقد سألاه ماذا فعلت به؟ قال «تصدقت به على سخيلة بنت عبيدة» امرأته». فتعجب أن تكون هديته لأهله صدقة، فروى هذا الحديث<sup>(٤)</sup>.

وقد أجاز الشرع للزوج، بل قال بعض العلماء أوجب، أن يسأل الناس إن عجز عن الكسب، وذلك لينفق على نفسه وأهله، ودليله ما رواه ابن حبان فى صحيحه والطبرانى عن ابن عباس من خروج عمر وأبى بكر والرسول ﷺ وهم جياع، والتوجه إلى بيت أبى أيوب الأنصارى والأكل عنده وفيه أن النبى ﷺ أخذ رغيفاً وقطعة لحم وقال لأبى أيوب «ابلق بها فاطمة، فإنها لم تره منذ أيام»<sup>(٥)</sup>.

وعلق بعض العلماء<sup>(٦)</sup> عليه بقوله: إن التكسب ولو بالسؤال واجب عليه لزوجه وأصوله وفروعه، ومندوب لذوى رحمه، فإن نفقتهم واجبة عليه إن كان

(١) رياض الصالحين، ص ١٤٦.

(٢) رياض الصالحين، ص ١٤٦.

(٣) المطالب العالىة، ج ٢، ص ٨٢.

(٤) الترغيب، ج ٣، ص ٥٦.

(٥) الشيخ محمد فرج السنهورى فى بعض اذاعاته.

غنياً، لا إن كان قادراً على الكسب كالواجب السابق، ومباح وهو للإدخار وأمور الدنيا.

وجاء في تفسير ابن كثير<sup>(١)</sup> أن النبي ﷺ ذهب إلى فاطمة وهو جوعان، فلم يجد شيئاً، وبعد خروجه جاءها رغيفان ولحم من بعض الجارات، فاستدعته وقدمت له هذا وأكلوا جميعاً كما أكلت زوجاته، رواه أبو يعلى عن جابر. وفي سننه عبد الله بن لهيعة.

### ٣- متى تجب؟

لا تلزم النفقة الزوج إلا بعد تمكين الزوجة نفسها منه، أو استعدادها للتمكين، أو امتناعها منه لعذر، كعدم إيفاء معجل صداقها، أو عدم إعداد المسكن اللائق للزوجية.

### ٤- متى تسقط؟

إن نفقة الزوجة تجب ما دامت هناك زوجية حقيقية أو حكماً كال المطلقة، وما دام الغرض من الزواج متحققاً، ولذلك تسقط هذه النفقة في الأحوال الآتية:

١- النشوز، ويتحقق بأحد أمرين:

(أ) امتناعها عن تمتع الزوج بها ولو بغير جماع، إن لم يكن هناك عذر مقبول يبرر هذا الامتناع، كالحيض والصوم الواجب والإحرام.

(ب) خروجها من منزل الزوجية بغير إذنه، ما لم تكن هناك ضرورة تدعوها إلى الخروج، وتسقط النفقة مدة النشوز، فإن عادت إلى الطاعة عادت النفقة، ومنه خروج العاملة للعمل بغير رضاه، ولو أذن لها ثم طلب منها عدم الخروج لصالح الحياة الزوجية ولم تجبه سقطت نفقتها.

٢- انفصام الحياة الزوجية:

فلو حلت عقدة النكاح فللمرأة وضع آخر، وهو: إن طلقت طلاقاً رجعيّاً

(١) ج ٢، ص ٢٩.

فحكمتها حكم الزوجة في وجوب النفقة مدة العدة، سواء في ذلك المرأة الحامل والحائض أي غير الحامل، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا \* فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق: ١، ٢]. وقال بعد ذلك ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلًا فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٦] وقد ذكرت ذلك فاطمة بنت قيس، محتجة على رفض روايتها لحديثها الآتي بعد .

وإن طلقت طلاقاً بائناً، فإن كانت حاملاً فلها النفقة والمسكن حتى تنقضي عدتها بوضع الحمل، بدليل الآية السابقة، وحملها بعضهم على الرجعية، لأن الآيات من أول السورة في سياق واحد، وإن كانت حائلاً، أي غير حامل، فلها المسكن فقط دون النفقة، كما ذهب إليه الشافعي ومالك، وأوجب فقهاء الكوفة السكنى والنفقة، وهو مروى عن عمرو بن مسعود، لإطلاق الآية، ولم يحكم بعض العلماء لها بشيء من نفقة أو مسكن، استناداً إلى حديث فاطمة بنت قيس، الذي اختلف العلماء كثيراً في استنباط الحكم منه، ولطرافته ساقصه عليك ملخصاً من عدة روايات لمسلم .

وذلك أنها كانت متزوجة من أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، الذي خرج مع علي إلى اليمن، فأرسل إليها، وهو غائب، بتطبيقه كانت بقيت من تطليقها، وبعث إليها وكيلين بذلك، هما الحارث بن هشام وعياش بن أبي ربيعة، ومعهما نفقة هي خمسة أصع من تمر وخمسة أصع من شعير، فسخطت ذلك وامتنعت عن الاعتداد في منزلهم، فقال أهله: والله مالك علينا من شيء، فشدت ثيابها عليها وأتت رسول الله ﷺ فقال « كم طلقك؟ » قالت: ثلاثاً، قال « صدق، ليس لك نفقة » وفي رواية « إلا أن تكوني حاملاً » .

وكان خالد بن الوليد قد ذهب مع نفر إلى رسول الله ﷺ في بيت ميمونة

وسألوه عن هذا الحكم ثم أمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم أرسل إليها أن أم شريك يأتيها المهاجرون الأولون، وأمرها أن تعتد في بيت ابن عمها عبد الله بن أم مكتوم. قائلاً « فإنك إذا وضعت خمارك لم يرك » فانطلقت إليه، وكان قد قال لها « إذا حللت فأذنيني » فلما حلت ذكرت له خطبة معاوية بن أبي سفيان وأبى جهم إياها، ثم زوجها النبي ﷺ من أسامة بن زيد بعد أن امتنعت، فوجدت فيه خيراً.

هذا حديث فاطمة بنت قيس الذى يحكم بأنها ليست لها نفقة ولا سكن، وقد عارضه كثيرون، منهم عمر الذى قال عندما سمعه: لا نترك كتاب الله وسنة نبيه لقول امرأة لا ندرى أحفظت أم نسيت، وحكم بالسكنى والنفقة لإطلاق الآية. كما طعن فى هذا الحديث عائشة. وقال: إن النبى ﷺ لم يحكم بخروجها من مسكن أهل زوجها إلا لأنها كانت بذيعة اللسان، وبأن المكان الذى كانت فيه موحش وخشى عليها منه.

وقد رد ابن القيم هذه العلل الرافضة لحديثها، بأن المرأة تقبل روايتها كالرجل، وأن فاطمة كانت من أحفظ النساء لحديث رسول الله ﷺ، ومنه حديث الدجال الطويل، وأن النسيان جائز على الناس جميعاً، ومنهم عمر الذى نسى وذكرته المرأة فى مسألة المهور، ونسى تيمم الجنب. وقال ابن القيم: إن حديث فاطمة مخصص لعموم القرآن، ولا مانع منه. وكذب افتراء أنها بذيعة اللسان، لأن النبى ﷺ لم ينهها عن ذلك. اهـ. ولا داعى للإطالة فى هذه المسألة الخلافية، فمحلها كتب الفقه.

وإذا كان الفراق بالموت فحكم النفقة مذكور فى مبحث الطلاق الذى سيأتى بعد.

## ٥- بيت الطاعة:

هناك وضع شاذ تلجأ إليه المرأة من أجل الحفاظ على حق النفقة، وبخاصة إذا كان عن طريق التحاكم إلى القضاء، وهو ما يسمى ببيت الطاعة، فالرجل

يعمد إلى مسكن لا يرضى أن يسكن هو فيه، بل ولا يرضى لابنته أو أخته أن تسكن فيه، ويقدم إليها من الطعام والشراب في هذا السجن المظلم ما يتنافى مع الإنسانية، وذلك كله من أجل أن تفتدى الموءودة نفسها بما تستطيع أن تفتدى به ليطلقها زوجها، إن الله سبحانه يقول «أسكنوهن من حيث سكنتم» أى فى مسكن يليق بوسطكم لا تشمئزون منه لو وضعتن فيه «من وجدكم» أى على حسب طاقتكم ومتناسباً مع وضعكم الاقتصادى يساراً وإعساراً، «ولا تضاروهن» بهذه المعاملة القاسية «لتضيقوا عليهن» السبيل إلى معيشة كريمة تليق بهذا الإنسان الذى كرمه الله.

إن هذه المعاملة تتنافى مع الوصية بالإحسان إليهن وعشرتهن بالمعروف، وقد يحمل عناد المرأة على عدم تمكين مطلقها من الوصول إلى غرضه، على أنها لو رجعت إليه مرة أخرى فلن تمحى آثار هذه المعاملة الوحشية من نفسها، وما معنى الحياة الزوجية مع النفور؟

يقول الشيخ محمد فرج السنهورى فى تقرير قدمه لرئيس لجنة التنسيق العليا لأعمال اللجان القانونية التابعة لرياسة الجمهورية سنة ١٩٦٥م: إن سوق الزوجة إلى بيت الزوجية جبراً وبقوة الشرطة لا خير فيه لاستقامة الحياة الزوجية، وأنه كثيراً ما يؤدي إلى اتهامات باطلة وارتكاب جرائم، وإنه وضع ينافى الكرامة الإنسانية... فلا يجوز تنفيذ أحكام الطاعة على الزوجات جبراً بقوة الشرطة، وأنه يكفى فى مثل هذه الأحوال أن تعامل الزوجة بآثار نشوزها، وأن من حق الزوج أن يطلب التفريق بينه وبينها، مع إلزامها بآثار ذلك المادية متى استحکم الشقاق بينهما «ص ٢٢».

وكان ذلك على أثر البحث فى تعديل القوانين، حيث كان فى القانون المصرى رقم ٧٨ لسنة ١٩٢٩: تنص المادة ٣٤٥ على القضاء للزوج بطاعة زوجته، مع تنفيذ ذلك قهراً ولو أدى إلى استعمال القوة ودخول المنازل، كما تنص المادة ٣٤٦ على إعادة تنفيذ الحكم بالطاعة للزوجة مادامت زوجة.

## ٦- أنواع النفقة:

النفقة المستحقة للزوجة قسماً، نفقة عارضة مؤقتة لها مناسبة خاصة، وأخرى لازمة مؤبدة مادامت الحياة الزوجية: فمن القسم الأول:

(أ) نفقة الإرضاع: ذكر العلماء أن الزوجة يجب عليها أن ترضع ولدها «اللَّبَّاء» وهو اللبن الأول الذى يدر بعد الولادة، وكان مختزناً أيام الحمل، لما له من الفائدة الصحية العظيمة للطفل، وأما إرضاعه غير اللبأ فليس بأمر محتتم على الزوجة، بل لها الخيار بين أن ترضعه وأن تلتمس له من يرضعه، ولو أرضعته هي بنفسها كان لها الحق أن تتقاضى أجراً فوق ما وجب لها من نفقة الزوجية، وذلك لأن امتصاص اللبن يؤثر على صحتها، وغذاؤها العادى لا يكفيها لمزاولة هذه العملية الجديدة، فهذا الأجر كأنه نفقة على الرضيع لتغذيته، بل هو كذلك.

غير أن مطالبتها بالأجر محله إن لم تكن تطعم كفايتها مع الزوج، بما فى ذلك ما تتطلبه الزيادة للرضاعة، وهذا القدر الجديد الذى يفرض لها يجب أن يراعى فيه حال الطرفين، طرف الزوج فلا يرهق به، بل يقدر بما يتناسب مع حاله، وطرف الزوجة فلا تبخس حقها فيه، وتكون لها الأولوية، إذا رأت هي إرضاعه، فتفضل على غيرها، ولا يجوز الضغط عليها لإرضاع الولد دون مكافأة. وهذا ما يفيدته قوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلِدَهُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ ﴾ أى تطلبوا لهم مرضع غير أمهاتهم ﴿ فلا جناح عليكم إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وذلك بعد انفصال عقدة الزوجية، أى لا مانع أن ترضع المطلقة ولدها إذا أخذت على ذلك أجراً مناسباً. وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ يُرْوَى بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى فى تقدير الأجر ومصصلحة الطفل ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ ﴾ فلم يسفر التفاوض عن نتيجة مرضية ﴿ فَسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى ﴾ [الطلاق: ٦]. قوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ

يُرْضِعَنَّ أَوْلَادَهُنَّ ﴿﴾ جملة خبرية تحتمل الأمر، فبالنظر إلى خبريتها يكون الرضاع حق لهن يمكن الاستغناء عنه، وبالنظر إلى الأمر يكون واجباً عليهن، وفي ذلك خلاف للفقهاء، وقال الأحناف: إنه واجب ديانة ما لم يوجد عذر كمرض، أو كانت ذات ترفه لم يعتد العرف أن ترضع كما قال المالكية، وكذلك يجب إن تعينت له حيث لم يوجد غيرها يصلح له.

والأحناف يقولون: يجب عليها بالقضاء، إذا لم يكن للطفل ولا لأبيه مال يستأجر به مرضعاً، وإذا لم يوجد غيرها ممن يصلح للرضاع «أحكام الأسرة للدكتور محمد شلبي، ص ٧٣٨، ٧٣٩».

(ب) المتعة: المتعة حق لكل مطلقة في فرقة هي ليست سبباً فيها، وهي لازمة لها قبل الدخول إن لم يفرض لها مهر، ومستحبة للمطلقة بعد الدخول. قال تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١]. وقال: ﴿فَتَعَالَيْنِ أُمْتَعِكُنَّ وَأَسْرَحِكُنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

وليس لهذه المتعة تقدير مخصوص، بل يترك الأمر فيها للقاضي، ويراعى فيها حال الزوج من يسار وإعسار، كما تنص عليه الآية الكريمة، واستحب الشافعية ألا تنقص عن ثلاثين درهماً، لكنه تقدير قد يكون مناسباً للظروف وقتذاك، وهي تتغير كما هو معروف<sup>(١)</sup>.

وشرعت المتعة تطيبياً لخاطر المرأة التي لم توفق في زواجها، والتي لا ذنب لها في هذه الفرقة، فهي كشهادة بأن الطلاق ليس لجرح فيها، وفي ذلك ما فيه من صيانة عرضها من أقاويل الناس.

جاء في تفسير القرطبي<sup>(٢)</sup> أن ابن عباس وابن عمر وجابر بن زيد والحسن

(٢) ج ٣، ص ٢٠٠.

(١) يراجع تفسير القرطبي، ج ٣، ص ٢٠١.

والشافعي وأحمد وعطاء وإسحاق وأصحاب الرأي قالوا: المتعة واجبة للمطلقة قبل البناء والفرض، ومندوبة في حق غيرها. وقال مالك وأصحابه: المتعة مندوب إليها في كل مطلقة وإن دخل بها، إلا في التي لم يدخل بها وقد فرض لها، فحسبها ما فرض لها، ولا متعة لها، وقال أبو ثور: لها المتعة ولكل مطلقة، وأجمع أهل العلم على أن التي لم يفرض لها ولم يدخل بها لا شيء لها غير المتعة، قال الزهري: يقضى لها بها القاضى، وقال جمهور الناس: لا يقضى بها لها.

**(ج) زكاة الفطر:** أوجب الإسلام أن يخرجها الزوج عن زوجته حتى لو كانت موسرة، كما ذهب إليه الشافعي ومالك وأحمد، وهي تابعة للنفقة تسقط بسقوطها، أما أبو حنيفة فلا يوجبها على الرجل، لكن لو تبرع بها عنها أجزأت ولو كان ذلك بغير إذنها.

**(د) نفقات أخرى:** هناك نفقات أخرى لها مناسبات خاصة، كالأشياء التي تطلبها الحامل في فترة الوحم، على ما رآه الشافعية، وكذلك حلوى العيد، والمناسبات المشروعة، لأنها من المعاشرة بالمعروف.

ذكر الشيخ عوض في حاشيته على شرح الخطيب «الإقناع» لمتن أبي شجاع في فقه الشافعية: أنه يجب عليه لها الدخان والقهوة وفطرة العيد وسمكه، والبيض في خميس البيض، والكشك في أربع أيوب. اهـ. لكن في النفس من بعض هذه الأمور شيء، لأن مثل الدخان له أثره على الجنين - وربما لم يكن معروفاً أيام الشيخ عوض - والبيض والكشك في المناسبتين المذكورتين لا أصل لهما في الإسلام، وينبغي أن تربي المرأة على الوقوف عند حد الدين. والغريب أنه قال بعد ذلك: لا يجب لها عليه الحلبة مع العسل عند الولادة<sup>(١)</sup> مع أن ذلك ألزم لصحتها من البيض والكشك السابق ذكرهما، ولعله كان ينظر إلى العرف والعادة ويرى أن ذلك من المعاشرة بالمعروف.

(١) طعام النفساء يسمى عند العرب: الحُرْس.

وقياساً على وجوب ما تطلبه الحامل أثناء الوحم يجب على الزوج أن يعالجها من المرض، فإن المرض له دخل كبير في التأثير على تمتعه بها، وعلاجها من المعاشرة بالمعروف، وللفقهاء في ذلك اجتهاد، وفقهاء الشافعية<sup>(١)</sup> لا يوجبون على الزوج ثمن الدواء ولا أجر الطبيب، متعللين بأن ذلك لحفظ الأصل ولا صلة له به. وكيف يقال ذلك والمرض مانع أو منغص على الزوج متعته وما يلزمها، وما تقوم به المرأة من واجبات الأسرة، ومثل الشافعية قال الحنابلة<sup>(٢)</sup>.

وكذلك يجب عليه لها أدوات النظافة كالصابون ونحوه، لأنها من كمال متعته بها ومن المعاشرة بالمعروف، تلك المعاشرة التي تدخل العرف فيها إلى حد كبير، فالشافعية يقولون: إن الواجب عليه هو ما كان للنظافة لا للزينة. ومثلوا للأول بالمشط ودهن الشعر وما يزيل القذر من صابون ونحوه وما يزيل الرائحة الكريهة منها، وكذلك أجرة الحمام للغسل من الحيض. ومثلوا للثاني بالكحل والطيب والخضاب وكل ما تتزين به. لكنهم قالوا: لو أحضرها لها لوجب عليها استعمالها<sup>(٣)</sup>.

والحنابلة قالوا في أدوات النظافة كما قال الشافعية، وفي الزينة قالوا: الخضاب إن لم يطلبه الزوج منها فلا يلزمه، وإن طلبه فهو عليه، والطيب الذي يقطع الرائحة الكريهة ويعد دواء للعرق يلزمه، وما يراد به التلذذ لا يلزمه<sup>(٤)</sup>.

وفي القانون المصري للأحوال الشخصية رقم ٤٤ لسنة ١٩٧٩ نصت المادة ٤/٢ على أن النفقة تشمل الغذاء والكساء والمسكن ومصاريف العلاج وغير ذلك مما يقضى به العرف<sup>(٥)</sup>. وتجهيزها من الموت إلى الدفن بدون إسراف ولا تقتير يكون على الزوج كما ذهب إليه أبو يوسف من الأحناف وصدر به قانون المواريث رقم ٧٧ لسنة ١٩٤٣، مادة ٤<sup>(٦)</sup>.

(١، ٣) الإقناع للطبيب، ج ٢، ص ١٩١.

(٢، ٤) معجم المغني، طبعة الكويت، ص ٩٧٠.

(٥) الفتاوى الإسلامية، مجلد ٤، ص ١٣٨٧.

(٦) الفتاوى الإسلامية، مجلد ٥، ص ١٩٣٨.

والقسم الثانى من النفقة، وهو النفقة الدائمة يتمثل فى: إخدامها وإسكانها وكسوتها وإطعامها، وإليك التفصيل:

\* الإخدام: الإخدام وما يتعلق بخدمة الزوجة لزوجها سيأتى تفصيله فى الباب الثانى فى حقوق الزوج على زوجته. غير أنى أجمل هنا ما يتصل بواجب الرجل لها، وهو: إن كانت من وسط تخدم فيه عند أبيها وجب عليه أن يحضر لها خادماً، لأنه من المعاشرة بالمعروف، ووجب عليه نفقة الخادم، وإن كانت ممن تخدم نفسها عادة فليس لها أن تستأجر خادماً وتنفق عليه من مال الزوج إلا بإذنه. قال بذلك الإمام الشافعى والكوفيون - الأحناف - ومالك والليث ومحمد بن الحسن، اللهم إلا إذا كانت هناك حالات لا تمكنها من خدمة نفسها كمرض ونحوه فعليه حينئذ أن يحضر لها من يخدمها.

هذا، وقد صدرت من لجنة الفتوى بالأزهر برئاسة الشيخ عبد اللطيف الفحام، فتوى مأخوذة من مذهب المالكية، وملخصها:

١- إذا كانت الزوجة من ذوات القدر والشرف اللاتى جرت العادة بأنهن لا يتولين الخدمة بأنفسهن فى بيوتهن فإنه يجب على الزوج أن يجعل لها خادماً أو أكثر بحسب ما يليق بها، متى كان قادراً على ذلك.

٢- إذا كان الزوج من الأغنياء الذين لا يليق بهم عادة أن تقوم زوجاتهم بخدمة المنزل وجب عليه أن يجعل لها خادماً أو أكثر، ولو كانت هى فقيرة ليس من شأنها أن يكون لها خادم.

٣- إذا كان الزوج فقيراً لا يتيسر له أن يجعل لزوجته خادماً فلا يجب عليه استحضار خادم لها ولو كانت شريفة، ويجب عليها حينئذ القيام بالخدمة بحسب ما جرت به العادة.

٤- إذا كان الزوج موسراً ويستطيع أن يجعل لزوجته خادماً ولكن لم تجر العادة بأن يكون مثله ومثل زوجته خادم فعليها أن تخدم بنفسها بحسب العادة،

وحيثما تجب عليها الخدمة كما فى الحالتين الثالثة والرابعة فإنما الواجب عليها خدمة نفسها وزوجها لا غير أما أولاده وضيوفه فلا تجب عليها خدمتهم<sup>(١)</sup>.

(ب) الإسكان: لم يرد فى إسكان الزوجة نوع معين، اللهم إلا فى حق المطلقات ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجَدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦] وقياساً عليه أو تعميماً للنص يكون مسكن الزوجة مناسباً لحال الرجل ووسطه كما تقدم توضيحه، وهو من المعاشرة بالمعروف، التى يلجأ إليها فى كل ما لم يرد تحديده.

وهنا ننبه إلى شطط بعض العرائس فى وجوب البحث عن مسكن فاخر تباهى به، حتى لو كان فوق طاقة العريس، أو السكن فى حى خاص أو فى مدينة خاصة، فكل ذلك شطط لا يساعد على الهناء الزوجية. كما ننبه الرجل أيضاً إلى عدم تقتيره وقناعته بمسكن بسيط لا يوفر للزوجة والأولاد راحتهم، فمادامت عنده سعة فلينفق من سعته، والقصد فى كل الأمور خير، فلا إسراف ولا تقتير.

(ج) الطعام والكساء: لم يرد فى القرآن الكريم تقدير محدد لها، لا فى الكم ولا فى الكيف، فالآيات التى سبقت تدور حول كلمة المعروف والإحسان. ويعبر عنهما فى بعض الآيات بقوله تعالى ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ وبقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتِهِمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

وأما فى الأحاديث فقد ورد فيها التقدير تارة بعنوان المعروف، كما سبق فى حجة الوداع، وتارة بأن يكون مما يأكله الرجل ويلبسه، كحديث حكيم بن معاوية عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ما تقول فى نساءنا؟ قال «أطعموهن مما تأكلون، واكسوهن مما تلبسون» رواه أبو داود<sup>(٢)</sup> كما قال فى حق الرقيق «أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون» رواه أبو داود عن أبى ذر<sup>(٣)</sup>. وورد تارة بالكفاية والمعروف، كما فى حديث هند، الذى رواه

(١) مجلة الأزهر، مجلد ١٠، ص ٣٤٥.

(٢) زاد المعاد، ج ٤، ص ١٤٤، الترغيب، ج ٣، ص ٨، عن معاوية بن حيدة بمعناه.

(٣) الترغيب، ج ٩، ص ٨٥، رياض الصالحين، ص ٤٩٤.

البخارى ومسلم<sup>(١)</sup>. فعن عائشة قالت : دخلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان على رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني من النفقة ما يكفيني، ويكفى بنيّ إلا ما أخذت من ماله بغير علمه، فهل على فى ذلك جناح؟ فقال رسول الله ﷺ « خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفى بنيك ».

## ٧ - مقدار النفقة :

الناظر إلى النصوص المتقدمة يرى أن مرد تقدير النفقة هو المعروف ولو لم يرد نص عليه لرجعنا إليه، فكيف وقد أمرنا به على وجه صريح؟ وهذا المعروف هو ما يليق بوسط المرأة وأمثالها، ووسط الرجل كذلك، إلى حد الكفاية، وذلك شىء غير محدود، ويختلف باختلاف الناس واختلاف الظروف الزمانية والمكانية، والذي ترمى إليه الشريعة، وتقتضيه المعاشرة بالمعروف أن يكون ذلك بحيث لا يوجد تألماً ظاهراً له ما يبرره لو قصر فيه، وهذا يقتضى أن تراعى ظروف الأحوال الجوية واختلاف الفصول بالنسبة للكسوة، وتراعى الطباع والأمزجة بالنسبة للطعام. وكذلك تراعى المناسبات كالمواسم والأعياد، وأن يكون نوع مأكولها من نوع مأكوله، لا ينفرد عنها بنوع آخر فى حضرتها أو فى غيبتها مع علمه أن ذلك يؤلمها، اللهم إذا كان هناك ما يدعو إلى ذلك.

وهناك نص لا بد من ضمه إلى تلك النصوص الخاصة بالنفقة، للاستفادة منه هنا وفي غير هذا الموضوع، وهو قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧]، وقوله ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩]، وقوله ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف : ٣١].

وهذه الآيات ترشد إلى اعتبار الحد الوسط فى الإنفاق، فلا تقتير ولا إسراف، ذلك أن التقتير على الزوجة، وهو ما يكون نازلاً إلى الحد الذى لا يتناسب مع

(١) الزبيدي، ج٣، ص٩٤، مسلم، ج١٢، ص٧.

المعروف، له أثره السيئ على نفسها، فهو يضر صحتها. وهي أحوج ما تكون إلى ما يساعدها على القيام بمهام الزوجية، وهو أيضاً يدعو إلى عدم إخلاصها في خدمته، وإلى ثقافتها عما يطلب منها عمله. وكلما اشتد التقصير فكرت في الخلاص منه بأية وسيلة، وكثرت شكواها وبثت آلامها، وفي ذلك تشويه لسمعته. وإن استحكمت الأمر، وتجمعت السحب القائمة في أفق حياتهما الزوجية التي تنذر بمطر غزير من الآلام حاولت المجالس العرفية والمحاكم المختصة أن تنحيها عن الجو حتى تعود المياه إلى مجاريها، ويعيش الزوجان بعد ذلك في سلام، ولكن كل ذلك يتطلب جهداً كبيراً ما أغنانا عنه لو التزمنا الحدود. ومن المأثور أن الربيع بنت معوذ بن عفراء شكت زوجها، لأنه، كما تقول، يُقل عليها الخير إذا حضرها، ويحرمها إذا غاب عنها، وهذا التضييق حملها على سوء عشرته لها، فاختلعت منه أمام عثمان بن عفان<sup>(١)</sup>.

والإسراف أيضاً له خطورته على أخلاق المرأة وعلى ميزانية البيت ومستقبل الأسرة، فهو يغريها بالتدلل، ويفتح لها آفاقاً واسعة جديدة من المطالب التي لا تنتهي، والنساء ليس هناك حد يقفن عنده، ورحم الله عمر بن الخطاب الذي قال: أكثروا لهن من قول لا، فإن «نعم» تغريهن على المسألة<sup>(٢)</sup>.

والواقع يشهد أن المرأة تفضل المسرف على المقتر، متغاضية عن كثير من الاعتبارات الأخرى، تذكر الكتب أن المغيرة بن شعبه خطب هو وفتى من العرب امرأة، وكان الفتى شاباً جميلاً، فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها، فحضرا، وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما، فلما رأى المغيرة ذلك الشاب وعابن جماله علم أنها تؤثره عليه، فأقبل على الفتى وقال: لقد أوتيت جمالاً فهل عندك غير هذا؟ قال: نعم، فعدد محاسنه ثم سكت، فقال له المغيرة: كيف حسابك مع أهلك؟ قال: ما يخفى على من شئء، وإني لأستدرك منه أدق من الخردل. فقال المغيرة: لكني أضع البدرة في بيتي، فينفقها أهلي على ما يريدون.

(٢) المستطرف، ج ٢، ص ١٩٠.

(١) تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٤٠٤.

فلا أعلم بنفادها حتى يسألونى غيرها . فقالت المرأة : لهذا الشيخ الذى لا يحاسبنى أحب إلى من هذا الذى يحصى على مثقال الذرة ، فتزوجت المغيرة<sup>(١)</sup> .

ولئن كانت نظرة هذه المرأة حكيمة لأنها تناسبها ، فإن بعض النساء لهن مقاييس أخرى تملئها عليهن ظروف خاصة يرجع إليها فى مبحث اختبار الزوجين فى الجزء الأول من هذه الموسوعة .

إن الإسراف يجعل من العسير على المرأة أن تتحمل الصدمة لو تنكر لها الدهر ، وذلك ما يكون فى الغالب . وهنا يفكر الرجل فى الحصول على المال من أى طريق كان ، ليحافظ على المستوى الذى كان فيه . لا يبالي إن كان الطريق مشروعاً أو غير مشروع . فهمة الأول هو تغطية المصروفات ومواجهة الأعباء الثقيلة التى لم يعمل لها حساباً من قبل . فهو يختلس ويخون ويحتال للحصول على المال . والنتيجة الحتمية لذلك هى خراب الدين والدنيا معاً . والزوجة المدللة الناعمة لا يهتمها المصير الذى ينتهى إليه مطيتها الذلول . فى الحديث « يأتى زمان يكون هلاك الرجل فيه على يد زوجته وولده ، يعيرونه بضيق اليد فيتكلف ما لا يطيق ، حتى يورده ذلك موارد الهلكة » رواه البيهقى عن أبى هريرة بسند ضعيف<sup>(٢)</sup> .

والحوادث المؤلمة خير شاهد على ذلك ، ورحم الله المرأة الأولى التى كانت توصى زوجها عند خروجه من المنزل لكسب القوت ، فتقول له : اتق الله وإياك وكسب الحرام ، فإننا نصبر على الجوع والضر ، ولا نصبر على النار<sup>(٣)</sup> .

والإسراف ، وبخاصة فى الملابس والزينة ، يوحى للمرأة بعرض فتنتها على الناس ، لتحوز الإعجاب بما تملك ، ولتباهى بمركزها ومنزلتها فى نظر زوجها على الأقل ، وذلك له آثاره السيئة التى نرى شواهدا فى دور السينما والمسارح والحفلات والمنتزهات والمصايف فى داخل البلاد وخارجها ، والله در عمر الذى

(٢) الإحياء ، ج ٢ ، ص ٥٤ .

(١) المستطرف ، ج ٢ ، ص ٧٧ .

(٣) الإحياء ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

قال: أعروهن يلزمن الحجال. وقد تقدم ذلك. وما أصدق من قال: استعينوا على النساء بالعرى، فإن المرأة إذا كثرت ثيابها وأحسنّت زينتها أعجبها الخروج، وقد تقدم في الجزء الثاني من هذه الموسوعة.

هذا هو الإنفاق وهذا حده كما ورد في النصوص، يحكمه العرف وحسن العشرة وهو ما ذهب إليه مالك وأبو حنيفة وأحمد في إحدى روايته. وأما الشافعي فقال: إن النفقة محدودة مقدرة معلومة وهي في الطعام مُدٌّ بالنسبة للزوج المعسر، ومُدٌّ للموسر، ومُدٌّ ونصف بالنسبة للمتوسط. وقد استند في هذا إلى آثار وردت عن السلف. لكن لو تأملناها لوجدنا أن تقديرها تقريبي وردت به روايات مختلفة، فالحق هو اللجوء إلى المعروف الذي نص عليه القرآن والسنة.

وإذا كانت النفقة مقدرة بما يطيقه الزوج حسب يساره وإعساره، فالمرأة كثيراً ما تقيس حالها بحال امرأة أخرى، وتمد عينها إلى ما تمتعت به زوجة رجل موسر، فتطلب من زوجها زهرة الحياة الدنيا، حتى لا تخجل إذا جمعتها المجالس مع من تفوقها زينة. إن المرأة تطلب وتلح. والرجل لا يجد سعة، فما موقفه في هذه الحالة؟

هل يرفض ويقطع عليها خط الرجعة، ويستعمل الشدة ليقفها عند حدها، أو يحاول أن يحقق رغبتها فيلجأ إلى ما يلجأ إليه المسرفون؟

رأينا في الآثار الإسلامية طريقاً رسمه الشرع لمرور هذه الأزمة بسلام. فقد أباح للرجل أن يعد زوجته بإحضار ما تريد، ويمنيها وهو العازم على عدم التنفيذ حتى تهدأ ثورتها وتثوب إلى رشدها. وخيرٌ له أن يفسح الطريق لهذه العاصفة الهوجاء من أن يعترضها فرما أودت بهنائه وراحته. ومثل هذا الوعد الكاذب مرخص فيه لهذه الظروف التي ينظر فيها إلى نتائجها، فالغاية هنا تبرر الوسيلة، عند الاضطرار أو الحاجة الملحة، قالت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط: ولم أسمعه - أي النبي ﷺ - يرخص في شيء مما يقول الناس - أي الكذب - إلا في

ثلاث، تعنى الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها، رواه مسلم (١).

ولو كان الرجل لبقاً وتمكّن الدين من نفسه لاستطاع أن يحول مجرى تفكير المرأة من هذه النواحي إلى ناحية الدين، ويحبب إليها القناعة، ويبصرها بالمستقبل الذى ينتقل إليه كل شىء حاضر، كما انتقل أمس إلى اليوم، وما إلى ذلك من الأمور التى تُنزل على النفوس الثائرة برداً وسلاماً.

وهذه هى الطريقة التى لجأ إليها الرسول ﷺ فى فض أزمة نفسية سببها ضيق ذات اليد عن استكمال متع الحياة. ولطرفة هذه الواقعة وعلاجها سأقصها عليك كاملة، كما جاءت بها عدة روايات :

روى أحمد، واللفظ له، والبخارى ومسلم وأبو داود عن على بن أبى طالب أن رسول الله ﷺ لما زوجه فاطمة بعث معها بخميلة ووسادة من آدم - جلد - حشوها ليف، ورحيين وسقاء وجرتين. فقال علي لفاطمة رضى الله عنها ذات يوم: والله لقد سنوتُ - استقيت من البئر كالسانية أى الناقة التى تسحب الدلو من البئر - حتى اشتكيت صدرى، وقد جاء الله أباك بسبى فاذهبى فاستخدميه - اطلبى منه خادماً - فقالت: وأنا والله طحنت حتى مجلت يداى - تقيحت - وفى رواية أنها أيضاً استقت بالقربة حتى أثرت فى نحرها، وأنها كنست البيت حتى اغبرت ثيابها. فأتت رسول الله ﷺ، فقال « ما جاء بك أى بنية؟ » قالت: جئت لأسلم عليك. واستحييت أن تسأله ورجعت. فقال على: ما فعلت؟ قالت: استحييت أن أسأله. [ وفى رواية أنها وجدت عنده حدثاء فرجعت. وأتاهم النبي من غد، فسألها عن حاجتها، فسكتت، فحدثه على بذلك ] فأتيا جميعاً النبي ﷺ فقال على: يا رسول الله لقد سنوت حتى اشتكيت صدرى، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مجلت يداى، وقد جاءك الله بسبى وسعة،

(١) رياض الصالحين، ص ١٣٠.

فأخدمنا، فقال «والله لا أعطيكم وأدعُ أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم» فرجعا. فأتاهما النبي ﷺ وقد دخلا في قطيفتهما، إذا غطت رءوسهما تكشف أقدامهما، وإذا غطت أقدامهما تكشفت رءوسهما، فثارا - قاما - فقال «مكانكما» وفي رواية: فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدرى، ثم قال «ألا أخبركم بخير مما سألتماني؟» قالوا: بلى، قال «كلمات علمنيهن جبريل» فقال «تسبحان الله في دبر كل صلاة عشرا، وتحمدان عشرا، وتكبران عشرا، فإذا أويتما إلى فراشكما سبحا ثلاثا وثلاثين، واحمدا ثلاثا وثلاثين، وكبيرا أربعا وثلاثين»، وفي رواية: «فتلك مائة، فهو خير لك من خادم» قالت: رضيت عن الله ورسوله. وفي رواية: ولم يُخدمهما. قال على: فوالله ما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ. قال: فقال ابن الكوا: ولا ليلة صفين؟ قال: قاتلكم الله يا أهل العراق، ولا ليلة صفين<sup>(١)</sup>.

لا يليق بنا أن يمر هذا الحديث دون أن نجتلى منه بعض العبر والمثل الرائعة، والسياسة الحكيمة الرشيدة التي كانت طابع العصر الإسلامي الأول:

١- زوجة مثالية شغلت كل وقتها وجميع أعضائها بعمل نافع مفيد، ففي رواية بلال لما مرّ عليها، وهي تطحن والحسن يبكي، وأراد أن يتولى هو إحدى المهمتين، إنها شغلت يدها بالرحى، ورجلها بمداعة ولدها، ولسانها بذكر الله، وقلبها بالتفكير في مهمتها، وعينها بالبكاء من خشية الله.

٢- تواضع على وفاطمة بنت رسول الله في مزاولة الأعمال المنزلية، والتعاون المشترك على تحمل أعباء الحياة، يسئو حتى يشتكى ظهره، وتسئو فاطمة وتكنس وتطحن حتى تشتكى أعضاؤها.

(١) الترغيب والترهيب، ج ١، ص ١٦١، ج ٢، ص ١٨٢، زاد المعاد، ج ٤، ص ٣٢، البخارى، ج ٥، ص ٢٤، مسلم، ج ١٧، ص ٤٥.

٣- حياء فاطمة أن تسأل أباهما شيئاً قد ينقدها الناس عليه، إذ كيف تختص بشيء دون سائر أفراد الرعية، وكثير منهم يشتكى مما تشتكى هي منه، ويريد ما تريد .

٤- شدة اهتمام النبي ﷺ بالفقراء، وجعلهم من العناية فى المرتبة الأولى التى يؤثرهم فيها على بضعته وأحب الناس إلى قلبه، وهو نموذج رائع لما يسمى فى العصر الحديث بالمسئولية والضمآن الاجتماعى .

٥- القضاء على المحسوبية، والنعى على الاستثناءات التى هلكت بها قرون كثيرة .

٦- البساطة فى جهاز بنت النبى ﷺ، والاقتصار منه على الضرورة، خصوصاً فى الوقت الشديد الذى بدأ المسلمون يقيمون فيه دولتهم فى المدينة، عقب هجرتهم إليها مباشرة .

٧- اللجوء إلى الدين والتعزى به عن الدنيا وزهرتها، وتفرىغ القلب من الهموم، لينام الإنسان وقد زالت من نفسه الصور القائمة التى انطبعت فى مخيلته طول النهار، وفى ذلك راحة للقلب والجسم، وصفاء النفس من الهموم .

٨- رضا النفوس الخيرة بإرشاد الدين وقبول توجيهه، والحرص على تنفيذه «رضيت عن الله ورسوله، والله ما تركتهن منذ سمعتهن» .

وفى هذه الحادثة كثير غير ذلك لا يتسع له المجال .

ومثل هذه الحادثة التى عولجت فيها الأزمة بصرف نظر المرأة إلى ما هو أهم، ما سبق ذكره فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة، من رواية الطبرى، أن سلمة بن قيس كان أمير جيش . فأرسل رسوله إلى عمر، فوجده يطعم الناس ويرعاهم . ثم دخل بيته، ومعه رسول سلمة، فطلب طعاماً من أم كلثوم زوجته، وبينهما ستر - فأخرجت خبزاً بزيت ومعه ملح، فقال : ألا تخرجين لتأكلى معنا؟ قالت : أسمع حساً رجل، لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتنى، كما كسا ابن جعفر

امراته، وكما كسا الزبير امرأته، وكما كسا طلحة امرأته، قال عمر: أما يكفيك أن يقال: أم كلثوم بنت علي وامرأة أمير المؤمنين عمر؟

هذا، ويجمل برقيق الحال أن يقلل من الاختلاط بالأوساط التي تفوقه، وأن يحول بين المرأة والتقليد الضار، وأن يقلل الحديث معها عن المودات والمبتكرات وأصناف الأطعمة التي رآها أو تناولها في ضيافة ونحوها، حتى لا تستشرف نفسها إلى ما يتحدث عنه. وكل زوج أدري بالأسلوب الذي يتبعه حتى يتغلب على الأزمات.

### ٨- العجز عن النفقة:

لو فرض أن الزمان تنكر للرجل، وقلبت له الأيام ظهر المجنّ - الترس الذي يتقى به في الحرب - فأعسر حتى لا يستطيع أن ينفق على زوجته الحد الأدنى الذي تصعب الحياة بالنزول عنه، فماذا يكون الحل؟ هل يفرض عليها أن تتجرع معه هذه الكؤوس المريرة، وترضى بهذا الضيق وهي حبيسة البيت، أو يعطيها الفرصة لتخرج إلى الحياة العملية لتكسب قوتها، أو تحل عقدة زواجها حتى تتخلص من هذه الحياة، أملاً في ظل آخر تأوى إليه، وهل إذا كانت موسرة مع إعسار زوجها نكلفها الإنفاق عليه، أو تمهد لها السبيل للانفصال عنه، وهل إذا كان الزوج مستطيعاً أن ينفق لكنه يمسك بإضراراً بها، ولا يستطيع هي أن تصل إلى حقها منه بنفسها أو بالجهات المسؤولة، هل لها أن تطلب فسخ العقد أو تقيم على الضيم؟؟؟

هذه الأسئلة تمثل صوراً من المشكلات التي تتعرض لها الحياة الزوجية، وتغص بها المحاكم، وكل إنسان يتوق إلى معرفة الحل الذي جاء به الدين لعلاج هذه المشكلات، فنقول:

ذكر ابن القيم هذه الصور بعنوان «إعسار الزوج» وذهب في معالجتها مذاهب شتى، وأوفى في بحثه على الغاية، ولكنني سألخص مضمون ما قال، محيلاً من أراد الزيادة إلى كتابه «زاد المعاد».

فى البخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: « تقول المرأة: إما أن تطعمنى وإما أن تطلقنى » قالوا لأبى هريرة، سمعت هذا من رسول الله؟ قال: لا، هذا من كئيس أبى هريرة، ورواه النسائى بلفظ « امرأتك تقول: أطعمنى وإلا فأرقتى ». وروى البخارى عن أبى هريرة « أفضل الصدقة ما ترك غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وأبدأ بمن تعول » ثم قال أبو هريرة بعد رواية هذا الحديث عن النبى ﷺ: تقول المرأة: إما أن تطعمنى وإما أن تطلقنى، ويقول العبد: أطعمنى واستعملنى، ويقول الابن: أطعمنى، إلى من تدعنى؟

اختلفت أقوال العلماء فى علاج هذه المشكلة، فقيل: يجبر الزوج على طلاقها عند إعساره أو امتناعه، وقيل: يؤجل شهراً، ثم يطلق عليه الحاكم، وذهب إليه مالك. وقيل: تخير، إن شاءت أقامت، وإن شاءت فسخت، وهو المذهب عند الشافعى. لكن هل هو طلاق أو فسخ؟ قيل بكل منهما، لكن ذلك بعد رفع الأمر إلى الحاكم ليطلق، أو يثبت الإعسار عند الفسخ. وفى قول للشافعى أنه ليس لها الفسخ، لكن تُرْفَع يده عنها لتكتسب. وعن أحمد روايتان، إحداهما - وهى ظاهر مذهبه - أنها تخير بين المقام معه وبين الفسخ، فإن اختارت الفسخ رفعت إلى الحاكم، فيخير الحاكم بين أن يفسخ عليه أو يجبره على الطلاق، أو يأذن لها فى الفسخ، والرواية الثانية ليس لها الفسخ، وهو قول أبى حنيفة وصاحبيه، وليس عليها أن تتمكن من الاستمتاع بها، وعليه أن يخلى سبيلها لتكتسب، لأن حبسها مع عدم النفقة ضرر عليها، وليس له أن يحبسها حتى لو كانت موسرة، فليس له عليها يدٌ ما دام لم ينفق عليها.

وعدم الفسخ مروى عن الحسين. وروى عن الزهرى أنها تستأنى، لقوله تعالى ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عَسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧]، وقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وروى عن عمرو بن عبد العزيز إجراءات، أولها مثل ما روى عن الزهرى، وثانيها أنه أمهل الزوج شهراً أو شهرين، ثم فرق بينهما، وثالثها أنه جاءه رجل يشكو زوج ابنته أنه لا ينفق عليها، فقال الزوج:

أنكحني وهو يعلم أن ليس لى شيء، فقال عمر: أنكحته وأنت تعرفه؟ قال: نعم، قال: فما الذى أصنع؟ اذهب بأهلك.

وقد ذهب بعضهم إلى حبسه إن أعسر، وهو رأى باطل، فكيف يجرع الكأسين، الفقر والحبس؟ وما الذى أفادته الزوجة من حبسه؟ وذهب آخرون إلى وجوب إنفاقها عليه إن استطاعت، وعليه ابن حزم.

والقول بعدم التفريق مذهب أهل الظاهر جميعاً، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. وليس فى الآية تعرض للتفريق. وكذلك احتجوا بحادث اجتماع أمهات المؤمنين حول الرسول عليه الصلاة والسلام يطلبن منه ما ليس عنده، ودخول أبى بكر وعمر، واستئذانهما الرسول فى عقاب بنتيهما ونزول آية التخيير، كما تقدم ذلك بوضوح فى الفصل الثانى.

قالوا فى هذه الحجة:

(أ) من المحال أن يلجأ هؤلاء الصحابة إلى معاقبة بناتهم لأجل المطالبة بحق ثابت لهن، والرسول يقرهن ويسكت.

(ب) وكيف تمكن المرأة من فسخ النكاح لعدم ما ليس لها طلبه؟

(ج) المعسر قد أمر بإنظاره إلى اليسار، وغاية الأمر فى النفقة أن تكون ديناً على رأى من قال بأنها تملك لا تسقط بمضى المدة، فكيف إذا كانت إمتاعاً يسقط بالمضى كما ذهب إليه الآخرون؟ فنقول للزوجة: انتظرى إلى الميسرة، أو تصدقى بإيرائه من دينه، ولا حق لها فيما سواهما.

وكذلك احتجوا بأنه كان فى الصحابة معسرون كثيرون، ولم تمكن امرأة أحدهم من الفسخ، بل لم يثبت أن امرأة واحدة طالبت بالفسخ للإعسار، وهى التى كانت تطلب الفسخ لأشياء أخرى، كمن اشتكت ضعف زوجها عن أداء

واجب المتعة، لأن ما عنده مثل هدية الثوب - امرأة رفاعة القرظي، والمزنية التي تزوجها أبو ركانة وقد تقدمت - أولئك هن نساء النبي ﷺ لم تطلب واحدة منهن الفسخ حتي بعد أن خيرهن، فقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واختارت واحدة منهن نفسها فذهبت، وكان ألبتة، قال ابن شهاب: وكانت بدوية. قال عمرو بن شعيب: وهي ابنة الضحاك العامرية، رجعت إلى أهلها. وقال ابن حبيب: قد كان دخل بها، وقيل: لم يدخل بها، وكانت تلتقط بعد ذلك البعر وتقول: أنا الشقية<sup>(١)</sup>، وفي تعيين القائلة لذلك وسببه خلاف كبير ذكره الزرقاني على المواهب<sup>(٢)</sup>.

- والعسر واليسر مطيتان للابتلاء، فلو كان كل من افتقر فسخت عليه امرأته لعمَّ البلاء، ولصارت الفرقة بأيدي النساء. ومن ذا الذي لم تصبه عسرة في حياته؟ وقالوا أيضاً: هل لو تعذر الاستمتاع بها لمرض وأعسرت بجماعها يمكن الزوج من الفسخ؟ كلا، بل يوجبون عليه النفقة كاملة مع إعسارها بالوطء، فكيف تمكّن هي من الفسخ لإعساره بالنفقة؟ وقد ردّ مالك - وهو القائل بالإمهال ثم الفسخ - على هؤلاء استشهادهم بعصر الصحابة، بأن الزواج في أيامهم كان روحياً أكثر منه مادياً، وكان الدين مسيطراً على النفوس، حتى طلبت الزوجة أن يكون صداقها تعليمها سوراً من القرآن. أما الآن فالزواج دنيوي أكثر منه دينياً، فلا تكلف المرأة بالانتظار، فالإسلام لا ضرر فيه ولا ضرار.

قال ابن القيم في ختام بحثه: والذي تقتضيه أصول الشريعة أن الرجل إذا غسر بالمرأة قبل الزواج بأنه ذو مال، ثم ظهر أنه مفلس، أو كان ذا مال وترك الإنفاق عليها ولم تقدر علي أخذ كفايتها من ماله بنفسها أو بالحاكم فلها الفسخ، وإن تزوجته وهي عالة بعسره، أو كان موسراً ثم أعسر فلا فسخ لها. اهـ. وأنا أميل إلى هذا القول، ضاماً إليه القول الثاني للشافعي، وهو أن ترفع يده

(٢) ج٧، ص ٢٥٣ - ٢٦٥.

(١) زاد المعاد، ج٤، ص ٦٨.

عنها لتكتسب، وتبقى على عصمته، ولها أن تمتنع عن تمكينه من التمتع بها كما قال أبو حنيفة، فإن عجزت عن الاكتساب أو وجدت عننا فيه أرى أنها تخير بعد ذلك في البقاء معه أو الانفصال عنه إذا لاح لها في الأفق ما يوفر لها الحياة الكريمة. والله أعلم.

## ٩- العدل في توزيع النفقة:

إذا كان الرجل متزوجاً بأكثر من واحدة وجب عليه أن يسوى بينهن في النفقة كما سبقت الإشارة إليه. فإن تمييز إحداهن يوجد من المتاعب ما يشغل فكره، وينغص عليه حياته، وكما قلنا سابقاً: إن الضررة تود من صميم قلبها أن تكون عند الزوج في مرتبة أعلى من الأخرى، فهي تقبل العدل بينها وبين ضررتها على مضض. فما بالك لو كانت في منزلة أدنى منها؟ إنها لا تتسامح معه في الشيء الضعيف مهما بلغت قيمته، إن اختلاف لون ثوبها عن لون ثوب الأخرى ستبني عليه نتائج لا تنتهي، وستتسلسل الأفكار وتندافع، وتبدىء وتعيد، وهو في الواقع لا يساوى ذلك كله، لكن الظروف لها دخل كبير في أفكار الإنسان وتكييف ميوله واتجاهاته ونظراته.

إن الحبة ستبني منها قبة بل قباباً، والمقدمة العقيمة ستنتج، وستكون نتائجها - على الرغم من عقمها - ذات أثر خطير، إنها ستنظر إلى الزوج دائماً بالمنظار الأسود القاتم، وستفسر كل حركة من حركاته - بله النفقات - بما يشعل النار بينها وبين الأخرى - أو على الأصح - بما يزيدا اشتعالاً، فهي دائمة الاشتعال. وفي الوقت نفسه لو ميزها بشيء تافه حتى لو كان خارج دائرة النفقة، ستستغله استغلالاً قوياً في إظهار منزلتها عنده، بل إنها ستدعى زوراً وبهتاناً أنه خصها بما لم يخص به ضررتها، لتؤجج نار الغيظ في قلبها، ولذلك حذر النبي ﷺ هذا الصنف من الضرائر من سوء استعمال هذا السلاح الخطير.

فمن أسماء رضى الله عنها أن امرأة قالت: يا رسول الله، إني لى ضرة، فهل

على جناح إن تشبعت من زوجي غير الذى يعطينى، فقال النبي ﷺ « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور » رواه البخارى ومسلم<sup>(١)</sup>. وقال النووى فى تفسير هذا الحديث : المتشبع هو الذى يظهر الشبع وليس بشبعان، ومعناه هنا أن يظهر أنه حصل له فضيلة وليست حاصلة، ولا بس ثوبى زور، أى ذو زور، وهو الذى يزور على الناس، بأن يتزياً بزى أهل الزهد والعلم أو الثروة، ليغتر به الناس، وليس هو بتلك الصفة. اهـ<sup>(٢)</sup>.

فليحذر الزوج كل الحذر من عدم التسوية بينهما، غير متأثر بجمال إحداهن أو غناها أو نسبها أو كونها جديدة، فإن لهذه الناحية صلة كبيرة بالمشكلات العائلية التى تشرذ بسببها أسر كثيرة.

\* \* \*

---

(١) رياض الصحالين، ص ٥٦٧.

(٢) فى معجم المغنى لابن قدامة، ص ٩٩٩: ليس على الزوج التسوية فى النفقة والكسوة بين نسائه إذ قام بالواجب لكل منهن.

## الفصل الثاني عشر

### الوفاء لها

الوفاء خلق حميد يقصد به القيام بموجبات العهد والميثاق بين شخص وآخر، ومنه الوفاء لله بعبادته وحده، لأنه أخذ علينا العهد ألا نعبد غيره، والوفاء من المسلم لأخيه المسلم بمقتضى عهد الإيمان الذي جعلهم إخوة، ومنه الوفاء بين الصديقين، نزولاً على حكم الصداقة، وهكذا.

والوفاء الصادق يقتضى أن يبذل الإنسان غاية جهده، بحيث يكون عند حسن الظن به فى القيام بواجب العهد والميثاق. ومن أهم المواثيق الدنيوية الميثاق بين الزوج وزوجته، كما يقول الله تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢١]، و كما يقول النبى ﷺ « أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » (١).

وهذا الميثاق يقتضى أن يخلص الزوج لزوجته فى معاشرتها بالمعروف كما أمر الله، وهو ما أعنيه هنا بالوفاء، وهذا الحق يعتبر صمام الأمن للحياة الزوجية، يحفظ قوة الحب كمانة فى القلب، وتتوثق به العروة التى ربطت بين القلبين اللذين تعتمد عليهما الحياة السعيدة، وهو يرمى إلى مكافأتها على تعلق قلبها به وعشرتها له، مكافأة يكون الباعث عليها شعوراً داخلياً نبيلاً، فوق تلك المكافآت الظاهرية التى تقتضيها المعاشرة بالمعروف.

والمعاشرة بالمعروف معنى واسع، شامل لعدة صور ومظاهر تقدمت تفصيلاتها، وهى إما أن تكون معاملات ظاهرية ليس للقلب عليها تأثير كبير، وإما أن تكون مع باعث وجدانى شريف. والمعنى القلبى فى النوع الأول لا يؤثر

(١) رواه مسلم، ج٨، ص١٨٣.

عليه تأثيراً يذكر، فالإنفاق والمشاورة وتحمل الأذى . . كل ذلك يتحقق على أى حال، سواء أصُغ بالصبغة القلبية الوجدانية أم كان معاملة ظاهرية، أما الوفاء وهو النوع الثانى من المعاملات فهو مظهر لحركة باطنية هى حركة القلب بالتقدير والاحترام والمكافأة على جميل حياة سعيدة قضاها مع زوجته الوفية التى كانت له سكناً وعوناً . وعلامته أن يستمر حتى بعد الوفاة<sup>(١)</sup> .

وقد ضرب رسول الله ﷺ فى هذه الناحية مثلاً أعلى، شأنه فى كل خلق نبيل، وهذا الخلق له عدة مظاهر، منها:

١- دفع ما يوجه إليها من نقد يراه الزوج غير مبرر للسكوت عليه، والتماس المعاذير ما أمكن لأمر قد تكون فى نظر الناس نُبواً عن الخطوط المستقيمة التى رسمتها الأوضاع للسعادة الزوجية، ولكن الزوج يراها واهية، فهو رب الدار، وهو بداره أدري، وهذا الدفاع يعظم قدره إذا كان فى غيبة الزوجة، فإن الدفاع إليه يكون حينئذ خالصاً لوجه الحق، مصبوغاً بصيغة الحب القوى الكامن فى القلب .

ومن أمثلة ذلك فى حياة النبى ﷺ دفاعه عن صفية عندما عابتها عائشة بأنها قصيرة، وغضبه على زينب حتى هجرها مدة يعست منه بعدها، لأنها عابتها أيضاً، وقد تقدم ذلك . وكذلك عندما رأت عائشة صفية فى أول زواجها، سألتها «ماذا رأيت يا عائشة»؟ قالت: رأيت يهودية، فقال «لا تقولى ذلك، فإنها أسلمت وحسن إسلامها»<sup>(٢)</sup> .

وقد أخرج الترمذى عن صفية قالت: دخل على النبى ﷺ وأنا أبكى، وقد بلغنى أن عائشة وحفصة قالتا: نحن أكرم على رسول الله منها، نحن أزواجه وبنات عمه، فقال «ما يبكيك»؟ فذكرت له ذلك، فقال «ألا قلت: وكيف تكونان خيراً منى وأبى هرون وعمى موسى، وزوجى محمد»<sup>(٣)</sup> .

(١) الإحياء، ج ٢، ص ١٧٤ .

(٢) رواه عطاء بن يسار - الزرقانى على المواهب، ج ٣، ص ٢٥٩ . (٣) المرجع السابق .

وكذلك أخرج ابن سعد بإسناد حسن عن زيد بن أسلم قال: اجتمع نساء النبي ﷺ عنده في مرضه الذي توفي فيه، فقالت صفية: إني والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بى، فغمز بها أزواجه. فبصر بهن، فقال «مضمن» قلن: من أى شىء؟ قال «من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة»<sup>(١)</sup>. وقد تقدم نهيهِ ﷺ نساءه عن إيذائه فى حب عائشة بقوله «لا تؤذونى فى عائشة، فإنه والله ما نزل على الوحي وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها»<sup>(٢)</sup>. ويتصل بالدفاع عن زوجته ثناؤه عليها وإبراز ميزاتهما، كما هو ظاهر فى دفاعه عن عائشة وصفية، وكما سيأتى فى دفاعه عن خديجة.

٢- ومن الوفاء للزوجة عدم التعلق بغيرها دون ما يدعو لذلك، وهذا التعلق إما أن يكون بوسيلة مشروعة كالزواج، أو غير مشروعة كالحب والمخالطة، والناحية الثانية محظورة على الرجل حتى لو كان غير متزوج، مادام يحيط بهذا التعلق، ما يحظره الدين، من نظر واختلاط وخلوة ونحوها، وهو محظور من باب أولى على المتزوج، لأن مصلحة الأسرة فى تركيز عواطف الزوجين فى بؤرة واحدة، ليتم الارتباط وتقوى العروة، فإن حرارة الحب لو انخفضت عن معدلها المطلوب بدأت السعادة تهجر هذا الجو الذى لا تتحمل برودته، وذهبت إلى جو آخر تلائمها حرارته، وتنسجم فيها مع مقررات الشرف والدين، وفى الحديث الشريف «لا يبيهن رجل عند امرأة إلا أن يكون ناكحاً أو ذا محرم» رواه مسلم عن جابر<sup>(٣)</sup> يعنى إلا أن يكون زوجها أو محرماً لها.

وقد ضعف وازع الدين فى نفوس بعض الناس، فرأوا أن يوزعوا عواطفهم على مناطق مختلفة، واتخذوا المعشوقات نزولاً على تقاليد الحياة العصرية فى الاختلاط فى الحفلات والشوارع والملاهى والأعمال. وساعدهم على ذلك النظر بعين الرضا أو السكوت، إلى هذه العلاقات التى تنشأ بين الجنسين تحت عين

(٢) رواه البخارى.

(١) المرجع نفسه.

(٣) ج ١٤، ص ١٥٣.

الآباء، وفي حماية القانون، وتشجيع الجمهور الذي يحب أن يصطاد الواحد فيه كما يصطاد غيره، فيسكت عنه كما سكت هو. وقد خربت بيوت كثيرة من جراء هذا التقليد القذر، فالزوجة إن كانت على شيء من الدين والعفة تجرعت كؤوس الهموم المريرة غصصاً، تتنفس فيما بينها أحياناً بشكاة لوالديها أو لمن يهمله الأمر، وتنتهي الحال غالباً بانفراط عقد الزوجية إذا لم يرجع هذا الخائن عن موارد التهلكة. وما أتعس هذه البائسة التي يقول على لسانها أحد الشعراء:

وعشت يريني الحب أنك حافظ عهودي وأن الخلد بعض الذي أبغى  
فلما رأيت الوجد يغتال مهجتي وأيقنت أني من غرامك في سجن  
مضيت إلي غيري جهارا وختنتي فمن أي وحل صيغ طبعك خبرني

وإن كانت الزوجة قد لُزَّت معه في قرن - القَرَن جراب السهام - واحد، وتشبعت بما تشبع به زوجها من المبادئ، لا تقنع بعش تأوى إليه، بل يهزها الشوق إلى التنقل والتجديد، إن كانت كذلك ستتخذ لها من تشاء من الأصدقاء والأحبة، تحت سمعه وبصره كصدي لسلوكة هو، وكإجابة على تحديه لها، وهنا يكون الخراب أسرع إلى الأسرة من السيل إلى منحدره، فقد تعاون على هدم السعادة الزوجية معولان خطيران، يكفي أن يطيح بها من أساسها معول واحد. والطامة تكون أكبر لو كان بين الزوجين القذرين أطفال تنطبع في أذهانهم هذه الصور المخزية على أنها شيء عادي، فتكبر وتنضج كلما تقدم الزمن حتى تصير حقائق مؤلمة عندما ينزلون إلى الميدان بأول خطوة يضعونها فيه، وهم في سن المراهقة بخطورتها المعروفة.

ذكر ابن عبد ربه في كتابه «العقد الفريد»<sup>(١)</sup> ونقلها الأبشيهي في كتابه «المستطرف من كل فن مستظرف»<sup>(٢)</sup> أن البعث قد ضرب على رجل همداني من أهل الكوفة، فخرج إلى أذربيجان [في المحاسن والأضداد للبيهقي أنه خرج مع قتيبة بن مسلم إلى خراسان، وخلف امرأة يقال لها هند] فاقتاد جارية [اسمها

(٢) ج ٢، ص ١٨٧.

(١) ج ٣، ص ٢٠٠.

حباية كما فى محاضرات الأدياء للأصفهانى، أو جمانة، كما فى المحاسن والأضداد، واقتاد أيضاً فرساً يقال له الورد كما ذكره الأصفهانى [ وكان مملكا بابنة عمه التى سماها الجاحظ فى المحاسن والأضداد هندا. فكتب إليها ليغيرها، أى يبعث فى قلبها الغيرة:

ألا أبلغوا أم البنين بأننا غنينا وأغنيتنا الغطارفة المرد  
بعيد مناظ المنكين إذا جرى وبيضاء كالمثال زينها العقد  
فهذا لأيام العدو وهذه حاجة نفسى حين ينصرف الجند

– فى عيون الأخبار لابن قتيبة<sup>(١)</sup>: صنهاجية بدل كالمثال –

فلما ورد كتابه قرأته وقالت: يا غلام، هات الدواء، فكتبت إليه تحييه:  
ألا أقره منا السلام وقل له: غنينا بفتيان غطارفة مرد  
بمحمد أمير المؤمنين أقرهم شبابا وأغزاكم خوالف<sup>(٢)</sup> فى الجند  
إذا شئت غناني غلام<sup>(٣)</sup> مرجل ونازعته من ماء معتصر الورد  
وإن شاء منهم ناشيء مد كفه إلى كبد ملساء، أو كفل نهد<sup>(٤)</sup>  
فما كنتمو تقضون من حاج أهلكم شهوداً قضيناها على النأى والبعد  
فعجل علينا بالسراح فيانه منانا ولا ندعو لك الله بالرد  
فلا قفل الجند الذى أنت فيهم وزادك رب الناس بعداً إلى بعد

فلما ورد كتابها لم يزد على أن ركب فرسه وأردف الجارية ولحق بها، فكان أول شيء بدأ به لها بعد السلام أن قال: بالله هل كنت فاعلة؟ قالت: الله أجل فى

(١) ج ٤، ص ٤٨.

(٢) فى عيون الأخبار «حوائل» جمع حوئل وهو الرجل المسن.

(٣) فى عيون الأخبار «رفل» وهو طويل الذيل من الناس.

(٤) فى المحاضرات للأصفهانى، الشطر الثانى: إلى كفل ريان أو كعشب نهد. والكعيب هو الفرج، نهد أى بارز. وفى عيون الأخبار بدل كيد كتد وهو مجتمع الكتفين، وفى المستطرف عكُن بدل كبد، وهى ثنية البطن – المستطرف، ج ٢، ص ١٨٧، والمحاسن، ج ٢، ص ٢٧.

قلبي وأعظم، وأنت في عيني أذل وأحققر من أن أعصى الله فيك، فكيف ذقت طعم الغيرة؟ فوهب لها الجارية وانصرف إلى بعثه.

وجاء مثل هذا عن نعمان بن عدى بن نضلة، الذي كان أول وارث لأول مورث في الإسلام حيث توفي والده في الحبشة فورثه هناك، وقد استعمله عمر على «ميسان» ولم يستعمل من قومه غيره، ولم تخرج معه امرأته إلى مقر عمله<sup>(١)</sup>.

ومثل هذه الأحداث ترينا بصورة واضحة النتيجة الحتمية لميل الزوج إلى أخرى، سواء أكان ذلك في حلال أم حرام، وأمثالها كثير لم يكتب، ولم ينشر.

والناحية الأولى، وهي التعلق بأخرى بوسيلة مشروعة، ينظر فيها إلى الباعث عليه، فإن كان مجرد شهوة دفعته إلى تنويع الطعام الذي يتناوله، مأخوذاً بجمال أو غيره من المغريات، مع أن زوجته مستعدة لأداء ما يتطلبه الزواج من متعة ونسل، فذلك جحود ما بعده جحود، وإضرار كبير بمقام زوجته، وجرح كبير لشعورها، وقدح سافر في أهليتها فيما ضمت بسببه إليها الزوجة الأخرى، ولا يعترض علي هذا بجواز تعدد الزوجات فإن الداعي إليه على عهد الرسول والصحابة كان داعياً قوياً. مع محافظتهم الكاملة على الحقوق المشروعة لكل زوجة، كما هو مفصل في مبحث تعدد الزوجات.

ولعل في موقف النبي ﷺ من علي رضي الله عنه، عندما نمي إليه أنه خطب جويرية بنت أبي جهل، ما يوضح ذلك المعنى، وكذلك في مدحه لموقف أبي العاص من زينب في الوفاء بعدم التزوج عليها، كما يقضى به العرف الذي كان على أساسه زوجه الرسول منها.

أخرج الشيخان البخاري ومسلم وغيرهما عن المسور بن مخرمة أنه سمع النبي ﷺ على المنبر يقول «إن بنى هاشم بن المغيرة استاذنوني في أن ينكحوا

---

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميري - صاجة.

ابنتهم - ابنة أبي جهل - على بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي، وينكح ابنتهم، وإنما ابنتي بضعة مني، يريبنى مارابها، ويؤذيني ما آذاها» وفي رواية أن على بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل، وعنده فاطمة بنت النبي ﷺ، فلما سمعت بذلك فاطمة أتت أباها فقالت: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا على ناكح ابنة أبي جهل، قال المسور: فقام النبي ﷺ، فسمعت حين تشهد قال «أما بعد، فإني أنكحت أبا العاص بن الربيع، فحدثني فصدقني، وإن فاطمة بنت محمد بضعة مني، وإنما أكره أن يفتنوها، وإني لا أحل حراماً ولا أحرم حلالاً، وإنه والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً» فترك على الخطبة.

ولأجل هذا أباح الشرع أن تشترط الزوجة على زوجها ألا يتزوج عليها، وجاء في ذلك حديث عام رواه الشيخان «إن أحق الشروط أن توفوا ما استحللتم به الفروج»<sup>(١)</sup>. وإن كان هناك داع كعقم الأولى أو مرضها مرضاً يحول دون التمتع بها، فليترفق بها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإن لها حق السبق في الحب والعشرة، ولا ينبغي أن يميل إلى الثانية كل الميل فيذر الأولى كالمعلقة، ويحاول أن يقوم بالإرشادات التي تقدمت فيما يجب على المتزوج بأكثر من واحدة.

٣- ومن الوفاء عدم تطليقها بغير سبب معقول، ككبر سنها أو مرضها أو فقرها أو تغير مركزه الاجتماعي. فليس من الوفاء أن تقطف زهرتها يانعة نظرة، ثم تتركها هشيماً تذرره الرياح، ولا يعترض على هذا بهم النبي ﷺ بطلاق سودة لكبر سنها، فإن الرواية الصحيحة أنه لم يطلقها ولم يهمل بطلاقها، بل إنها هي التي خشيت أن يطلقها، ظانة أن الرسول كغيره من الناس، فعرضت عليه التنازل عن ليلتها لتعيش سعيدة وتموت سعيدة بالانتساب إليه، وقد مر ذلك.

وهذا ما تشير إليه حادثة مظاهرة أوس بن الصامت من زوجته خولة بنت مالك بن ثعلبة سنة ست عام الحديبية، وهي مفصلة في بحث الطلاق<sup>(٢)</sup>. فقد

(٢) الزرقاني على المواهب، ج ٢، ص ٢١٢.

(١) صحيح مسلم، ج ٩، ص ٢٠١.

قالت للرسول ﷺ أثناء مجادلتها في هذا الظهار: إن شبابها وليّ وما لها قد نفذ، وأهلها قد فقدوا، وقد نثرت له بطنها ثم يعمد بعد ذلك إليها فيمطلقها. ومن أجل هذا نهى الإسلام عن الزواج بشرط طلاق الأخرى. ففي مسند أحمد «لا يحل أن تنكح امرأة بطلاق أخرى»<sup>(١)</sup>. وفي الصحيحين «لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ ما في صحتها، فإن لها ما قدر لها»<sup>(٢)</sup>.

وفي معنى التطلق تغيير معاملته لها على خلاف عاداته السابقة معها، وقد يحصل هذا من قوم لا خلاق لهم، أرادت لهم الظروف<sup>(٣)</sup> أن يكونوا في وضع اجتماعي لا تتناسب معه زوجته التي كان قد تزوجها فقيرة تناسب فقره، إنه الآن يرى أن هذه الفقيرة قذية في عينه، أو شبح يخيفه إن جمعته المجالس مع قوم سكروا بخمر الأرستقراطية والكبرياء، فنسوا أوضاعهم الأولى، وتنكروا لماضيهم الذي على أنقاضه وصلوا إلى ما وصلوا إليه الآن:

### إن الكرام وإن أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

وكثير من هذه الزيجات المفرضة تأتي بنتيجة عكسية، على خلاف ما كان يتوقعه من فتاة أحلامه، وذلك جزاء على سوء قصده ولوثة نيته.

٤- ومن الوفاء امتداد الحب أو التقدير للزوجة إلى ما بعد موتها، كما حزن النبي ﷺ على خديجة، وسمى عام وفاتها عام الحزن، ولذلك عدة مظاهر، منها:  
(أ) أن يكرم صديقاتها. فقد ورد أن النبي ﷺ أكرم عجوزا دخلت عليه، فقيل له في ذلك، فقال «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن كرم العهد من الدين». رواه الحاكم من حديث عائشة، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وليس له علة<sup>(٤)</sup>، وورد هذا الخبر بلفظ آخر، أن النبي ﷺ قال لها «من أنت؟»

(١) نيل الأوطار، ج ٦، ص ١٥٢، عن عبد الله بن عمرو. (٢) المرجع السابق عن أبي هريرة.  
(٣) إسناد الإفادة للظروف ليس إسناداً حقيقياً بل مجازياً، فالمريد لكل شيء هو الله سبحانه، لكنه تعبير جار على الألسنة، ومع ذلك فالأحسن عدمه وقد كتبت له لأنه عليه.  
(٤) الأحياء، ج ٢، ص ١٦٥.

فقالت: جُثامة المزنية، فقال «أنت حُسبانة، كيف أنتم، كيف حالكم، كيف كنتم بعدنا»؟ قالت: بخير، بأبى أنت وأمى، فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ قال «إنها كانت تأتينا...»<sup>(١)</sup>.

وورد في الصحيح عن عائشة: كان ﷺ إذا ذبح الشاة يقول «أرسلوا إلى أصدقاء خديجة» وفي بعض الروايات: وربما ذبح الشاة فيقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة<sup>(٢)</sup>. وروى ابن حبان عن أنس: كان النبي ﷺ إذا أتى بالشىء يقول «أذهبوا إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة»<sup>(٣)</sup>.

(ب) ومن ذلك صلة رحمها وإكرام أقاربها، فقد روى المستغفرى عن عائشة: قدم ابن لخديجة يقال له: هالة، والنبي ﷺ قائل - مستريح وقت القيلولة ما بين الظهر إلى العصر - فسمعه فقال: «هالة هالة». وروى الطبرانى عن هالة بن أبى هالة أنه دخل على النبي ﷺ وهو راقد، فاستيقظ فضم هالة إلى صدره وقال «هالة» ثلاث مرات<sup>(٤)</sup>. [يؤخذ من هذا أن هالة ذكر لا أنثى لقول عائشة: ابن. ولهذا ذكره صاحب الإصابة فى الرجال. ومشى الشامى على أنه أنثى كما فى الزرقانى على المواهب، ج ٣، ص ٢٢٠، وذكر الزرقانى، ص ١٩٦، ومسلم فى صحيحه، ج ١٥، ص ٢٠٢، أن هالة هى أخت خديجة، وكانت صحابية، واستأذنت على النبي ﷺ فعرف استئذان خديجة، فارتاع وقال «هالة» كما أخرجه البخارى أيضاً عن عائشة. وذكر الزرقانى «ج ٣، ص ٢١٩» أن هالة اسم لأم أم خديجة: هالة بنت عبد مناف أم فاطمة والدة خديجة].

وننبه هنا من يقل أو ينعدم عطفه على أولاده أو أقارب زوجته المتوفاة، تحت تأثير التيارات التى تنحدر من زوجة جديدة، فتنه حبها، وأثرت عليه همساتها السحرية، فإن الخضوع لهذه التأثيرات كان سبباً فى تشرد عدد كبير

(١) الرسالة الخالدة لعبد الرحمن عزام، ص ١٥٣. (٢) الزرقانى على المواهب، ج ٣، ص ٢٢٦.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الزبيدى، ج ٣، ص ٩٤.

من الأطفال الذين لم يجدوا فى والدهم الظل الذى يفيغون إليه بعد أن حرموا عطف الأم الرعوم .

والحقيقة أن الشخص إذا أحب إنساناً أحب كل شىء يتصل به، فهو يهش لذكر اسمه، أو رؤية شبهه أو صديقه، أو أى شىء له أدنى علاقة بحبيبه، حتى النسيم الذى يأتى من ناحية الديار، أو الطير الذى يروح أو يغدو إلى حيث الحبيب، يقول الشاعر:

رأى المجنون فى البيداء كلباً      فجرّ عليه بالإحسان ذيلاً  
فلاموه على ما كان منه      وقالوا: لمّ منحت الكلب نيلاً؟  
أجاب: دعوا الملام فإن عيني      رأته مرة فى حى ليلي<sup>(١)</sup>.  
ويقول مجنون بنى عامر:

أمر على الديار ديار ليلي      أقبل ذا الجدار وذا الجدارا  
وما حب الديار شغفن قلبى      ولكن حب من سكن الديارا<sup>(٢)</sup>

ولعل مما يشبه هذا تعليق صورة الزوجة المتوفاة، فإن له تأثيراً كبيراً على بعض الزوجات، إلا أن العاقلة يجب أن تفهم أن زوجها وفي، وسيكون لها بعد موتها كما كان لسابقتها إن أحسنت عشرته.

(ج) ومنها الثناء على الزوجة والدعاء والاستغفار لها، فقد كان ﷺ يكثّر من ذكر خديجة حتى غارت عائشة، كما غارت حين كان يسر لرؤية هالة، ويروى مسلم<sup>(٣)</sup> أنها قالت: وما تذكر من عجوز من عجائز قریش حمراء الشدقين، هلكت فى الدهر، فأبدلك الله خيراً منها؟ وورد فى الصحيح عن عائشة قالت: ما غرت على أحد من نساء النبى ﷺ ما غرت على خديجة رضى الله عنها، وما رأيتها قط، ولكن كان الرسول يكثّر ذكرها، قالت: قلت: قد

(٢) الإحياء، ج ٢، ص ١٤٥.

(١) المواهب اللدنية، ج ٢، ص ٣٢٣.

(٣) ج ١٥، ص ٢٠١.

رزقك الله خيراً منها، وفي رواية أحمد والطبراني: قد أبدلك الله بكبيرة السن حديثه السن، فغضب غضباً شديداً ثم قال « لا والله مارزقني الله خيراً منها، آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتنى حين كذبتني الناس، وأعظتني مالها حين حرمتني الناس » زاد الطبراني « وآوتني إذ رفضني الناس، ورزقت مني الولد إذ حرمتموه.. »<sup>(١)</sup>، واشتد الغضب بالرسول حتى قالت عائشة: اللهم أذهب غيظ رسولك، وأقسمت ألا تذكرها بعد هذا إلا بخير، رواه أحمد والطبراني<sup>(٢)</sup>.

ويلحق بهذا زيارة قبرها، كما روى عن النبي ﷺ أنه بعد فتح مكة كان يذهب إلى قبر خديجة، بالحنجون ليلاً، ويمكث هناك طويلاً<sup>(٣)</sup>.

(د) ومن الوفاء إنفاذ وصيتها من بعدها، فذلك أمر مطلوب بين كل شخصين، فما بالك بصديقين، بل وما بالك بزوجين؟ غير أننا رأينا وصايا غريبة يتقبلها أحد الطرفين قبولاً حسناً دليلاً على الإخلاص والوفاء، ولكن الإسلام وقف من هذه الوصايا موقف الحكم العدل. فما كان منها يعارض المقصود الأصلي من الزواج لا يكون من الوفاء تنفيذه، بل عدم التنفيذ يكون هو الوفاء، لأن الإسلام يأمر به، لقد أوصت فاطمة علياً أن يتزوج بعدها أمامة بنت أختها زينب، ففعل، وليس في تنفيذ هذه الوصية ضرر، وقالت « أم مبشر » التي خطبها النبي ﷺ: إن زوجي شرطت له ألا أتزوج بعده، فأبطله النبي، لأنه شرط ليس في كتاب الله. أخرجه الطبراني بإسناد حسن عن جابر<sup>(٤)</sup>.

وكان هذا من النبي ﷺ، لأن في الالتزام بالوصية تعطيلاً لحركة النسل وإخصاب الحياة، وربما خيف على المرأة الفتنة، لكن لو كان في التنفيذ مصلحة جاز الالتزام بالوصية، وقد يكون مستحباً، كما إذا تأيمت من أجل رعاية أيتام، لو تزوجت لأهملوا، فقد جاء في الحديث « أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة » وأوماً بالوسطى والسبابة « امرأة أيمت من زوجها ذات منصب وجمال،

(١) الزرقاني، ج ٣، ص ٢٢٤.

(٢) الزرقاني، ج ٣، ص ٢٢٠.

(٣) نساء النبي لبنت الشاطيء، ص ٤٢.

(٤) نبيل الأوطار، ج ٦، ص ١٥٤.

وحبست نفسها على يتامى لها، حتى بانوا أو ماتوا» رواه أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعي<sup>(١)</sup> وأخرجه البخارى فى كتابه «الأدب المفرد».

ذكر ابن سعد عن أم سلمة قالت: قلت لأبى سلمة: بلغنى أنه ليس امرأة يموت زوجها وهما من أهل الجنة ثم لم تتزوج بعده إلا جمع الله بينهما فى الجنة، وكذلك إذا ماتت المرأة وبقي الرجل بعدها، فتعال أعاهدك ألا تتزوج بعدى ولا أتزوج بعدك. قال: أتعطينى؟ قالت: ما سألتك إلا لأعطيك، قال: فإذا أنا مت فتزوجى. ثم قال: اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيراً منى، لا يحزنها ولا يؤذيها، فلما مات قلت: من هذا الذى هو خير لى من أبى سلمة؟ فلبثت ما لبثت، فجاء رسول الله ﷺ وخطبها<sup>(٢)</sup>.

\* تنبيه:

يظن بعض الناس أن من الوفاء للزوجة ألا يتزوج الرجل بعدها، وهذا شل لحركة الإنتاج، يبطله عمل الرسول ﷺ والصحابة، وزعم آخرون أن على الرجل أن يمكث مدة تساوى عدة الوفاة الواجبة على المرأة، وهى أربعة أشهر وعشرة أيام، لا يصح له، بل يحرم عليه أن يتزوج حتى تنتهى المدة، وهذا زعم باطل لا أساس له فى الدين، فقد عقد النبى ﷺ على سودة وعائشة فى شهر شوال بعد وفاة خديجة الوفية البارة فى شهر رمضان لعشر خلون منه، كما ذكره الدمياطى والواقدي<sup>(٣)</sup> وتزوج على بن أبى طالب بعد وفاة فاطمة بسبع ليال<sup>(٤)</sup> وتزوج أحمد بن حنبل فى اليوم الثانى من وفاة أم ولده عبد الله، وقال: أكره أن أبيت عزياً<sup>(٥)</sup> وسعيد بن المسيب زوج تلميذه عبد الله بن أبى أوفى ابنته، وذلك ثانى يوم توفيت فيه زوجته، وقصتها مذكورة فى بحث اختيار الزوجين، وغير هؤلاء كثيرون يبادرون بالزواج ويخشون الموت وهم فى حال العزبة.

(١) زاد المعاد، ج ٤، والترغيب، ج ٣، ص ١٤٤. (٢) الزرقانى، ج ٣، ص ٢٤١.

(٣) الزرقانى، ج ٣، ص ٢٢٦، ٢٣٠.

(٤) إمامة على بين العقل والنقل لمحمد جواد مغنية ص ١٥٥، ١٥٦.

(٥) اعلام النساء لعمر كحالة.

وزعم آخرون أن على الرجل أن يحد على امرأته كما تحد هي عليه، فيلبس ملابس الإحداد، ويعيش في حال كئيبة وهيئة رثة، كما تفعل النساء. وهذا أمر حظره الشرع، لأنه لا يليق بالرجل الذي خلقه الله على وضع يتحمل فيه الصدمات ويواجه الأزمات، فهل يخشى عليه بعد موتها أن يضيع فلا يجد من يعوله أو يعول أولاده؟ وما شرع الإحداد للمرأة إلا مراعاة لعواطفها الرقيقة وإحساساتها المرهقة، التي لا تقوى على مواجهة هذه الصدمات، فشرع لها الإسلام هذه الرياضة التدريجية لتنسى أو تتناسى العهد القديم الذي فقدته، وينخف ألم الوحدة التي يطول أمدها حتى تزول بزواج جديد.

ولهذا رأينا كتب الأدب طافحة بمراثى الزوجات للأزواج، وهي مراث تثلث فيها قوة الصدمة وصدق الشعور وحسن تصوير العاطفة، ولكن مراثى الأزواج للزوجات قليلة، وإن وجدت فهي دون الأولى تصويراً وقوة، يقول البيهقي:

**ولعمري ما العجز عندي إلا أن تبيت الرجال تبكي النساء**

ومن رثى زوجته فأجاد محمود سامي البارودي « ١٨٣٨ - ١٩٠٤ » حين نعت إليه وهو في منفاه، فقال فيما قال:

يا دهر فسيم فجعتني بحليلة	كانت خلاصة عدتي وعتادي
لو كان هذا الدهر يقبل فدية	بالنفس عنك لكنت أول فاد
هيهات بعدك أن تقر جوانحي	أسفا لبعذك أو يلين مهادي
فإذا انتبهت فأنت أول فكرتي	وإذا أويت فأنت آخر زادي

ومن يذكرهم التاريخ في الوفاء شاه جيهان زوج أرجمان ممتاز محل، الذي بنى لها قبراً يعد من أعاجيب الدنيا « انظر بحث الحجاب، ص ٥٥١ » وصار هذا القبر رمزاً مقدساً لنساء الهند بالذات.

\* \* \*

## الفصل الثالث عشر

### الإحسان في تطليقها

هذا الحق المذكور بالتفصيل في بحث الطلاق، وهو آخر مرحلة من مراحل الوفاء للزوجة مهما كان الداعي إلى تطليقها، فإن النفس الكريمة الأصيلة إذا صحبت إنساناً أو شاركته مدة طويلة تقاسما فيها الخير والشر، كان من الوفاء عند افتراقها من صاحبها أو شريكها أن يكون ذلك في جو إنساني مؤدب، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢].

ووجوه الإحسان موضحة في بابها، وتعجبنى هذه الروح الطيبة عند افتراق الزوجين التي ذكرها الأصبهاني في محاضراته<sup>(١)</sup>، حيث يقول: طلق رجل زوجته فلما أرادت الارتحال قال لها: اسمعي وليسمع من حضر، إني والله اعتمدتك رغبة، وعاشرتك محبة، ولم يوجد مكانى منك زلة، ولم يدخلنى منك ملة، ولكن القضاء كان غالباً. فقالت المرأة: جوزيت من صحوب خيرا، فما استريت حَبْرِكَ، ولا شكوت خيرك. ولا تمنيت غيرك، وليس لقضاء الله مدفع، ولا من حكمه ممنع، ثم تفرقا.

معنى استريت = شككت، والحَبْر = النعمة.

وسئل أحد المتصوفة: لم طلقت امرأتك؟ قال: لقد كانت زوجتى ولم أفش سرها، فكيف وقد صارت زوجة غيرى؟  
وكل منهما لا يعدم سبباً للفراق ولو كان مختلفاً. فكل واحد له عيوبه

(١) ج ٢، ص ١٢٨.

المستورة لا يعرفها الناس إلا عند التنازع، فلا ينبغي لأحدهما أن يكشف ستر غيره.

تزوج قتادة ابنة يزيد الحنفى، فلما أصبح طلقها، فرأته جالساً عند يزيد بن المهلب فقالت فيه:

حلقت فلم أكذب وإلا فكل ما      ملكت لبيت الله أهديه حافيه  
لو ان المنايا أعرضت لا قتحمتها      مخافة (فيه) إن فيه لداهيه  
وكيف اصطبارى يا قتادة بعدما      شممت الذى من فيك أدمى سماخيه  
فما جيفة الخنزير عند ابن مغرب      قتادة إلا ريح مسك وغاليه<sup>(١)</sup>

\* \* \*

---

(٢) أعلام النساء لعمر كحالة.